سلسلة تفسير القرآن
17

أبو القاسم الزّمخشري

الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل

الجزء الثّالث عشر

ندقيق
أسعد جمعة

دار كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع
2024

النّاشر: شركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع
العنوان: إقامة الزّيتونة – III/2 – المنار 2 – تونس – الجمهوريّة التّونسيّة
الهاتف: 71886914 216+
الفاكس: 71886872 216+
العنوان الالكتروني: JomaaAssaad@yahoo.fr
معرّف النّاشر: 02-9938
عدد الطّبعة: الأولى
ت د م ك: 978-9938-02-070-6

© جميع الحقوق محفوظة لشركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع

أبو القاسم الزّمخشري

الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل

الجزء الثّالث عشر

سورة المؤمنون

سورة المؤمن

مَكِّيَّةٌ. [قَالَ الْحَسَنُ :إِلَّا قَوْلَهُ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾[1]
لِأَنَّ الصَّلَوَاتِ نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ، وَقَدْ قِيلَ فِي الْحَوَامِيمِ كُلِّهَا: إِنَّهَا
مَكِّيَّاتٌ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ الْحَنَفِيَّةِ]
وَهِيَ خَمْسٌ وَثَمَانُونَ آيَةً، وَقِيلَ: ثِنْتَانِ وَثَمَانُونَ [نَزَلَتْ بَعْدَ الزُّمَرِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ
ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[2]

قُرِئَ بِإِمَالَةِ أَلِفِ "حا" وَتَفْخِيمِهَا، وَبِتَسْكِينِ الْمِيمِ وَفَتْحِهَا. وَوَجْهُ الْفَتْحِ: التَّحْرِيكُ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ، وَإِيثَارِ أَخَفِّ الْحَرَكَاتِ، وَنَحْوُ أَيْنَ وَكَيْفَ، أَوِ النَّصْبِ بِإِضْمَارِ اقْرَأْ، وَمَنْعِ الصَّرْفِ، لِلتَّأْنِيثِ وَالتَّعْرِيفِ أَوْ لِلتَّعْرِيفِ، وَأَنَّهَا عَلَى زِنَةِ أَعْجَمِيٍّ نَحْوُ قَابِيلَ وَهَابِيلَ.

﴿التَّوْبِ﴾[3] وَالتَّوْبِ وَالْأَوْبِ: أَخَوَاتٌ فِي مَعْنَى الرُّجُوعِ.

وَ﴿الطَّوْلِ﴾[4]: وَالْفَضْلُ وَالزِّيَادُ. يُقَالُ: لِفُلَانٍ عَلَى فُلَانٍ طَوْلٌ، وَالْإِفْضَالُ. يُقَالُ: طَالَ عَلَيْهِ وَتَطَوَّلَ، إِذَا تَفَضَّلَ.

---

1 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
2 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
3 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
4 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الصِّفَاتُ تَعْرِيفًا وَتَنْكِيرًا، وَالْمَوْصُوفُ مَعْرِفَةٌ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ مِثْلُهُ مَعَارِفَ؟

قُلْتُ: أَمَّا ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾[1] فَمَعْرِفَتَانِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَرِدْ بِهِمَا حُدُوثُ الْفِعْلَيْنِ، وَأَنَّهُ يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَقْبَلُ التَّوْبَ الْآنَ، أَوْ غَدًا، حَتَّى يَكُونَا فِي تَقْدِيرِ الِانْفِصَالِ، فَتَكُونُ إِضَافَتُهُمَا غَيْرَ حَقِيقِيَّةٍ، وَإِنَّمَا أُرِيدَ ثُبُوتُ ذَلِكَ وَدَوَامُهُ، فَكَانَ حُكْمُهُمَا حُكْمَ إِلَهِ الْخَلْقِ وَرَبِّ الْعَرْشِ، وَأَمَّا شَدِيدُ الْعِقَابِ فَأَمْرُهُ مُشْكِلٌ، لِأَنَّهُ فِي تَقْدِيرِ: شَدِيدٌ عِقَابُهُ لَا يَنْفَكُّ مِنْ هَذَا التَّقْدِيرِ، وَقَدْ جَعَلَهُ الزَّجَّاجُ بَدَلًا، وَفِي كَوْنِهِ بَدَلًا وَحْدَهُ بَيْنَ الصِّفَاتِ نُبُوٌّ ظَاهِرٌ.

وَالْوَجْهُ أَنْ يُقَالَ: لَمَّا صُودِفَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْمَعَارِفِ هَذِهِ النَّكِرَةُ الْوَاحِدَةُ، فَقَدْ آذَنَتْ بِأَنَّ كُلَّهَا أَبْدَالٌ غَيْرُ أَوْصَافٍ، وَمِثَالُ ذَلِكَ قَصِيدَةٌ جَاءَتْ تَفَاعِيلُهَا كُلُّهَا عَلَى مُسْتَفْعِلُنْ، فَهِيَ مَحْكُومٌ عَلَيْهَا بِأَنَّهَا مِنْ بَحْرِ الرَّجَزِ، فَإِنْ وَقَعَ فيها جُزْءٌ وَاحِدٌ عَلَى مُتَفَاعِلُنْ كَانَتْ مِنَ الْكَامِلِ.

وَلِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ: هِيَ صِفَاتٌ، وَإِنَّمَا مَحْذُوفُ الْأَلِفِ وَاللَّامِ مِنْ ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾[2] لِيُزَاوِجَ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ لَفْظًا، فَقَدْ غَيَّرُوا كَثِيرًا مِنْ كَلَامِهِمْ عَنْ قَوَانِينِهِ لِأَجْلِ الِازْدِوَاجِ، حَتَّى قَالُوا: مَا يُعْرَفُ سَحَادِلِيهِ مِنْ عَنَادِلِيهِ، فَثَنَّوْا مَا هُوَ وِتْرٌ لِأَجْلِ مَا هُوَ شَفْعٌ، عَلَى أَنَّ الْخَلِيلَ قَالَ –فِي قَوْلِهِمْ: مَا يَحْسُنُ بِالرَّجُلِ مِثْلُكَ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ، وَمَا يَحْسُنُ بِالرَّجُلِ خَيْرٌ مِنْكَ أَنْ يَفْعَلَ–: أَنَّهُ عَلَى نِيَّةِ الْأَلِفِ وَاللَّامِ، كَمَا كَانَ الْجَمَاءُ الْغَفِيرُ عَلَى نِيَّةِ طَرْحِ الْأَلِفِ وَاللَّامِ، وَمِمَّا سَهَّلَ ذَلِكَ الْأَمْنُ مِنَ اللَّبْسِ وَجَهَالَةُ الْمَوْصُوفِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: قَدْ تَعَمَّدَ تَنْكِيرَهُ، وَإِبْهَامَهُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى فَرْطِ الشِّدَّةِ وَعَلَى مَا لَا شَيْءَ أَدْهَى مِنْهُ وَأَمَرَّ لِزِيَادَةِ الْإِنْذَارِ. وَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: هَذِهِ النُّكْتَةُ هِيَ الدَّاعِيَةُ إِلَى اخْتِيَارِ الْبَدَلِ عَلَى الْوَصْفِ إِذَا سَلَكَتْ طَرِيقَةَ الْإِبْدَالِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا بَالُ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾؟

قُلْتُ: فيها نُكْتَةٌ جَلِيلَةٌ، وَهِيَ إِفَادَةُ الْجَمْعِ لِلْمُذْنِبِ التَّائِبِ بَيْنَ رَحْمَتَيْنِ: بَيْنَ أَنْ يَقْبَلَ تَوْبَتَهُ فيكْتُبُهَا لَهُ طَاعَةً مِنَ الطَّاعَاتِ. وَأَنْ يَجْعَلَهَا مَحَاءَةً لِلذُّنُوبِ، كَأَنْ لَمْ يُذْنِبْ، كَأَنَّهُ قَالَ: جَامِعُ الْمَغْفِرَةِ وَالْقَبُولِ.

---

[1] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

[2] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

وَرُوِيَ أَنَّ عُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– افْتَقَدَ رَجُلًا ذَا بَأْسٍ شَدِيدٍ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، فَقِيلَ لَهُ: تُتَابِعُ فِي هَذَا الشَّرَابِ، فَقَالَ عُمَرُ لِكَاتِبِهِ: اكْتُبْ، مِنْ عُمَرَ إِلَى فُلَانٍ: سَلَامٌ عَلَيْكَ، وَأَنَا أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿حَمْ﴾[1] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[2].

وَخَتَمَ الْكِتَابَ، وَقَالَ لِرَسُولِهِ: لَا تَدْفَعْهُ إِلَيْهِ حَتَّى تَجِدَهُ صَاحِيًا، ثُمَّ أَمَرَ مِنْ عِنْدَهُ بِالدُّعَاءِ لَهُ بِالتَّوْبَةِ، فَلَمَّا أَتَتْهُ الصَّحِيفَةُ جَعَلَ يَقْرَؤُهَا وَيَقُولُ: قَدْ وَعَدَنِي اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي، وَحَذَّرَنِي عِقَابَهُ، فَلَمْ يَبْرَحْ يُرَدِّدُهَا حَتَّى بَكَى ثُمَّ نَزَعَ فَأَحْسَنَ النُّزُوعَ وَحَسُنَتْ تَوْبَتُهُ، فَلَمَّا بَلَغَ عُمَرَ أَمْرُهُ قَالَ: هَكَذَا فَاصْنَعُوا، إِذَا رَأَيْتُمْ أَخَاكُمْ قَدْ زَلَّ فَسَدِّدُوهُ وَوَقِّفُوهُ، وَادْعُوا لَهُ اللَّهَ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِ، وَلَا تَكُونُوا أَعْوَانًا لِلشَّيَاطِينِ عَلَيْهِ.

﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾[3]

سَجَّلَ عَلَى الْمُجَادِلِينَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِالْكُفْرِ، وَالْمُرَادُ: الْجِدَالُ بِالْبَاطِلِ، مِنَ الطَّعْنِ فِيهَا، وَالْقَصْدِ إِلَى إِدْحَاضِ الْحَقِّ وَإِطْفَاءِ نُورِ اللَّهِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾[4].

أَمَّا الْجِدَالُ فِيهَا لِإِيضَاحِ مُلْتَبِسِهَا وَحَلِّ مُشْكِلِهَا وَمُقَادَحَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي اسْتِنْبَاطِ مَعَانِيهَا وَرَدِّ أَهْلِ الزَّيْغِ بِهَا وَعَنْهَا، فَأَعْظَمُ جِهَادٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَوْلُهُ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "إِنَّ جِدَالًا فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ"، وَإِيرَادُهُ مُنْكَرًا، وَإِنْ لَمْ يَقُلْ: إِنَّ الْجِدَالَ ، تَمْيِيزٌ مِنْهُ بَيْنَ جِدَالٍ وَجِدَالٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: مِنْ أَيْنَ تُسَبِّبَ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ﴾[5] مَا قَبْلَهُ؟

---

[1] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[2] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[3] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[4] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[5] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

قُلْتُ: مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا مَشْهُودًا عَلَيْهِمْ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ بِالْكُفْرِ، وَالْكَافِرُ لَا أَحَدَ أَشْقَى مِنْهُ عِنْدَ اللَّهِ؛ وَجَبَ عَلَى مَنْ تَحَقَّقَ ذَلِكَ أَنْ لَا تُرَجَّحَ أَحْوَالُهُمْ فِي عَيْنِهِ، وَلَا يُغْرِهِ إِقْبَالُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَتَقَلُّبِهِمْ فِي الْبِلَادِ بِالتِّجَارَاتِ النَّافِقَةِ وَالْمَكَاسِبِ الْمُرْبِحَةِ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ كَذَلِكَ يَتَقَلَّبُونَ فِي بِلَادِ الشَّامِ وَالْيَمَنِ، وَلَهُمُ الْأَمْوَالُ يَتَّجِرُونَ فِيهَا وَيَتَرَبَّحُونَ، فَإِنَّ مَصِيرَ ذَلِكَ وَعَاقِبَتَهُ إِلَى الزَّوَالِ، وَوَرَاءَهُ شَقَاوَةُ الْأَبَدِ.

ثُمَّ ضَرَبَ لِتَكْذِيبِهِمْ وَعَدَاوَتِهِمْ لِلرُّسُلِ وَجِدَالِهِمْ بِالْبَاطِلِ وَمَا ادَّخَرَ لَهُمْ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ مَثَلًا: مَا كَانَ مِنْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمَمِ، وَمَا أَخَذَهُمْ بِهِ مِنْ عِقَابِهِ وَأَحَلَّهُ بِسَاحَتِهِمْ مِنِ انْتِقَامِهِ. وَقُرِئَ: (فَلَا يَغُرُّكَ).

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[1]

﴿الْأَحْزَابُ﴾[2] الَّذِينَ تَحَزَّبُوا عَلَى الرُّسُلِ وَنَاصَبُوهُمْ وَهُمْ عَادٌ وَثَمُودُ وَفِرْعَوْنُ وَغَيْرُهُمْ، ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾[3] مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ الَّتِي هِيَ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ ﴿بِرَسُولِهِمْ﴾[4]، وَقُرِئَ: (بِرَسُولِهَا)، ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾[5] لِيَتَمَكَّنُوا مِنْهُ، وَمِنَ الْإِيقَاعِ بِهِ وَإِصَابَتِهِ بِمَا أَرَادُوا مِنْ تَعْذِيبٍ أَوْ قَتْلٍ. وَيُقَالُ لِلْأَسِيرِ: أَخِيذٌ.

﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾[6]، يَعْنِي: أَنَّهُمْ قَصَدُوا أَخْذَهُ، فَجَعَلْتَ جَزَاءَهُمْ عَلَى إِرَادَةِ أَخْذِهِ أَنْ أَخَذْتُهُمْ.

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[1]، فَإِنَّكُمْ تَمُرُّونَ عَلَى بِلَادِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ فَتُعَايِنُونَ أَثَرَ ذَلِكَ، وَهَذَا تَقْرِيرٌ فيهِ مَعْنَى التَّعْجِيبِ.

﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾[2]

(مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ) في مَحَلِّ الرَّفْعِ بَدَلٌ مِنْ ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾[3]، أَيْ: مِثْلُ ذَلِكَ الْوُجُوبِ وَجَبَ عَلَى الْكَفَرَةِ كَوْنَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ.

وَمَعْنَاهُ: كَمَا وَجَبَ إِهْلَاكُهُمْ في الدُّنْيَا بِالْعَذَابِ الْمُسْتَأْصَلِ، كَذَلِكَ وَجَبَ إِهْلَاكُهُمْ بِعَذَابِ النَّارِ في الْآخِرَةِ، أَوْ في مَحَلِّ النَّصْبِ بِحَذْفِ لَامِ التَّعْلِيلِ وَإِيصَالِ الْفِعْلِ.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا: قُرَيْشٌ، وَمَعْنَاهُ، كَمَا وَجَبَ إِهْلَاكُ أُولَئِكَ الْأُمَمِ، كَذَلِكَ وَجَبَ إِهْلَاكُ هَؤُلَاءِ، لِأَنَّ عِلَّةً وَاحِدَةً تَجْمَعُهُمْ أَنَّهُمْ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ.

وَقُرِئَ: (كَلِمَاتُ).

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[4]

رُوِيَ: أَنَّ حَمَلَةَ الْعَرْشِ أَرْجُلُهُمْ في الْأَرْضِ السُّفْلَى وَرُءُوسُهُمْ قَدْ خَرَقَتِ الْعَرْشَ، وَهُمْ خُشُوعٌ لَا يَرْفَعُونَ طَرْفَهُمْ.

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "لَا تَتَفَكَّرُوا فِي عِظَمِ رَبِّكُمْ وَلَكِنْ تَفَكَّرُوا فِيمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَإِنَّ خَلْقًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ يُقَالُ لَهُ: إِسْرَافِيلُ، زَاوِيَةٌ مِنْ زَوَايَا الْعَرْشِ عَلَى كَاهِلِهِ، وَقَدَمَاهُ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، وَقَدْ مَرَقَ رَأْسُهُ مِنْ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ، وَإِنَّهُ لَيَتَضَاءَلُ مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ حَتَّى يَصِيرَ كَأَنَّهُ الْوَصْعُ".

وَفِي الْحَدِيثِ: "إِنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– أَمَرَ جَمِيعِ الْمَلَائِكَةِ أَنْ يَغْدُوا وَيَرُوحُوا بِالسَّلَامِ عَلَى حَمَلَةِ الْعَرْشِ تَفْضِيلًا لَهُمْ عَلَى سَائِرِ الْمَلَائِكَةِ".

وَقِيلَ: خَلَقَ اللَّهُ الْعَرْشَ مِنْ جَوْهَرَةٍ خَضْرَاءَ، وَبَيْنَ الْقَائِمَتَيْنِ مِنْ قَوَائِمِهِ خَفَقَانُ الطَّيْرِ الْمُسْرِعِ ثَمَانِينَ أَلْفَ عَامٍ. وَقِيلَ: حَوْلَ الْعَرْشِ سَبْعُونَ أَلْفَ صِنْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، يَطُوفُونَ بِهِ مُهَلِّلِينَ مُكَبِّرِينَ، وَمِنْ وَرَائِهِمْ سَبْعُونَ أَلْفَ صَفٍّ قِيَامٌ قَدْ وَضَعُوا أَيْدِيَهُمْ عَلَى عَوَاتِقِهِمْ رَافِعِينَ أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ، وَمِنْ وَرَائِهِمْ مِائَةُ أَلْفِ صَفٍّ قَدْ وَضَعُوا الْأَيْمَانَ عَلَى الشَّمَائِلِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يَسْبَحُ بِمَا لَا يَسْبَحُ بِهِ الْآخَرُ.

وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (الْعُرْشِ) بِضَمِّ الْعَيْنِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا فَائِدَةُ قَوْلِهِ: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾[1]، وَلَا يَخْفى عَلَى أَحَدٍ أَنَّ حَمَلَةَ الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ مُؤْمِنُونَ؟

قُلْتُ: فَائِدَتُهُ إِظْهَارُ شَرَفِ الْإِيمَانِ وَفَضْلِهِ، وَالتَّرْغِيبِ فيهِ، كَمَا وَصَفَ الْأَنْبِيَاءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ بِالصَّلَاحِ لِذَلِكَ، وَكَمَا عَقَّبَ أَعْمَالَ الْخَيْرِ بِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[2]، فَأَبَانَ بِذَلِكَ فَضْلَ الْإِيمَانِ.

وَفَائِدَةٌ أُخْرَى: وَهِيَ التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ لَوْ كَانَ كَمَا تَقُولُ الْمُجَسِّمَةُ لَكَانَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ مُشَاهِدِينَ مُعَايِنِينَ، وَلَمَا وُصِفُوا بِالْإِيمَانِ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُوصَفُ بِالْإِيمَانِ: الْغَائِبُ، فَلَمَّا وُصِفُوا بِهِ عَلَى سَبِيلِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ عُلِمَ أَنَّ إِيمَانَهُمْ وَإِيمَانَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَكُلَّ مَنْ غَابَ عَنْ ذَلِكَ الْمَقَامِ سَوَاءٌ: فِي أَنَّ إِيمَانَ الْجَمِيعِ بِطَرِيقِ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ لَا غَيْرُ، وَأَنَّهُ لَا طَرِيقَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ إِلَّا هَذَا، وَأَنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنْ صِفَاتِ الْإِجْرَامِ.

وَقَدْ رُوعِيَ التَّنَاسُبُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[3]، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَيُؤْمِنُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي مِثْلِ حَالِهِمْ وَصِفَتِهِمْ. وَفِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ الِاشْتِرَاكَ فِي الْإِيمَانِ

---

[1] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

[2] سورة الْبَلَدُ، الآية 17.

[3] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

يَجِبُ أَنْ يَكُونَ أَدْعَى شَيْءٍ إِلَى النَّصِيحَةِ، وَأَبْعَثُهُ عَلَى إِمْحَاضِ الشَّفَقَةِ وَإِنْ تَفَاوَتَتِ الْأَجْنَاسُ وَتَبَاعَدَتِ الْأَمَاكِنُ. فَإِنَّهُ لَا تَجَالُسَ بَيْنَ مَلَكٍ وَإِنْسَانٍ، وَلَا بَيْنَ سَمَاوِيٍّ وَأَرْضِيٍّ قَطُّ، ثُمَّ لَمَّا جَاءَ الْإِيمَانُ جَاءَ مَعَهُ التَّجَانُسُ الْكُلِّيُّ وَالتَّنَاسُبُ الْحَقِيقِيُّ، حَتَّى اسْتَغْفَرَ مَنْ حَوْلَ الْعَرْشِ لِمَنْ فَوْقَ الْأَرْضِ.

قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ﴾[1]، أَيْ: يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا﴾[2].

وَهَذَا الْمُضْمَرُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بَيَانًا لِيَسْتَغْفِرُونَ مَرْفُوعٌ مِثْلَهُ، وَأَنْ يَكُونَ حَالًا.

فَإِنْ قُلْتَ: تَعَالَى اللَّهُ عَنِ الْمَكَانِ، فَكَيْفَ صَحَّ أَنْ يُقَالَ: وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ؟

قُلْتُ: الرَّحْمَةُ وَالْعِلْمُ هُمَا اللَّذَانِ وَسِعَا كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَعْنَى. وَالْأَصْلُ: وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَتُكَ وَعِلْمُكَ، وَلَكِنْ أُزِيلَ الْكَلَامُ عَنْ أَصْلِهِ بِأَنْ أَسْنَدَ الْفِعْلَ إِلَى صَاحِبِ الرَّحْمَةِ وَالْعِلْمِ، وَأُخْرِجَا مَنْصُوبَيْنِ عَلَى التَّمْيِيزِ لِلْإِغْرَاقِ فِي وَصْفِهِ بِالرَّحْمَةِ وَالْعِلْمِ، كَأَنَّ ذَاتَهُ رَحْمَةٌ وَعِلْمٌ وَاسِعَانِ كُلَّ شَيْءٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ ذَكَرَ الرَّحْمَةَ وَالْعِلْمَ؛ فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ مَا بَعْدَ الْفَاءِ مُشْتَمِلًا عَلَى حَدِيثِهِمَا جَمِيعًا، وَمَا ذَكَرَ إِلَّا الْغُفْرَانَ وَحْدَهُ؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: فَاغْفِرْ لِلَّذِينِ عَلِمْتَ مِنْهُمُ التَّوْبَةَ وَاتِّبَاعَ سَبِيلِكَ. وَسَبِيلُ اللَّهِ: سَبِيلُ الْحَقِّ الَّتِي نَهَجَهَا لِعِبَادِهِ وَدَعَا إِلَيْهَا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[3]، أَيِ: الْمَلِكُ الَّذِي لَا يَغْلِبُ، وَأَنْتَ مَعَ مُلْكِكَ وَعِزَّتِكَ لَا تَفْعَلُ شَيْئًا إِلَّا بِدَاعِي الْحِكْمَةِ، وَمُوجِبِ حِكْمَتِكَ أَنْ تَفِي بِوَعْدِكَ، ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾[4]، أَيِ: الْعُقُوبَاتُ، أَوْ جَزَاءَ السَّيِّئَاتِ. فَحَذَفَ الْمُضَافَ عَلَى أَنَّ السَّيِّئَاتِ، هِيَ الصَّغَائِرُ أَوِ الْكَبَائِرُ الْمَتُوبُ عَنْهَا. وَالْوِقَايَةُ مِنْهَا: التَّكْفِيرُ أَوْ قَبُولُ التَّوْبَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْفَائِدَةُ فِي اسْتِغْفَارِهِمْ لَهُمْ وَهُمْ تَائِبُونَ صَالِحُونَ مَوْعُودُونَ الْمَغْفِرَةِ وَاللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ؟

قُلْتُ: هَذَا بِمَنْزِلَةِ الشَّفَاعَةِ، وَفَائِدَتُهُ زِيَادَةُ الْكَرَامَةِ وَالثَّوَابِ. وَقُرِئَ: (جَنَّةَ عَدْنٍ) وَ(صُلُحَ) بِضَمِّ اللَّامِ، وَالْفَتْحُ أَفْصَحُ. يُقَالُ: صَلَحَ، فَهُوَ صَالِحٌ؛ وَصَلَحَ، فَهُوَ صَلِيحٌ، وَ(ذُرِّيَّتَهُمْ).

---

[1] سورة الشُّورَى، الآية 5.

[2] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

[3] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

[4] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾[1]

أَيْ: يُنَادُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فيقَالُ لَهُمْ: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[2]، وَالتَّقْدِيرِ: لَمَقْتُ اللَّهِ أَنْفُسَكُمْ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ، فَاسْتَغْنَى بِذِكْرِهَا مَرَّةً.

وَ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾[3] مَنْصُوبٌ بِالْمَقْتِ الْأَوَّلِ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: كَأَنَّ اللَّهَ يَمْقُتُ أَنْفُسَكُمُ الْأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ وَالْكُفْرِ، حِينَ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ يَدْعُونَكُمْ إِلَى الْإِيمَانِ، فَتَأْبَوْنَ قَبُولَهُ وَتَخْتَارُونَ عَلَيْهِ الْكُفْرَ أَشَدَّ مِمَّا تَمْقُتُونَهُنَّ الْيَوْمَ وَأَنْتُمْ فِي النَّارِ إِذَا أَوْقَعَتْكُمْ فيها بِاتِّبَاعِكُمْ هَوَاهُنَّ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: لَمَّا رَأَوْا أَعْمَالَهُمُ الْخَبِيثَةَ مَقَتُوا أَنْفُسَهُمْ، فَنُودُوا لَمَقْتُ اللَّهِ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: لَمَقْتُ اللَّهِ إِيَّاكُمُ الْآنَ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾[4].

وَ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾[5]: تَعْلِيلٌ، وَالْمَقْتُ: أَشَدُّ الْبُغْضِ، فَوُضِعَ فِي مَوْضِعٍ أَبْلَغَ الْإِنْكَارَ وَأَشَدَّهُ.

﴿اثْنَتَيْنِ﴾[6] إِمَاتَتَيْنِ وَإِحْيَاءَتَيْنِ، أَوْ مَوْتَتَيْنِ وَحَيَاتَيْنِ، وَأَرَادَ بِالْإِمَاتَتَيْنِ: خَلَقَهُمْ أَمْوَاتًا أَوَّلًا، وَإِمَاتَتَهُمْ عِنْدَ انْقِضَاءِ آجَالِهِمْ، وَبِالْإِحْيَاءَةِ الْإِحْيَاءَةُ الْأُولَى وَإِحْيَاءَةُ الْبَعْثِ. وَنَاهِيكَ تَفْسِيرًا لِذَلِكَ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[7].

وَكَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-.

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

4 سورة الْعَنْكَبُوت، الآية 25.

5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

7 سورة الْبَقَرَة، الآية 28.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ صَحَّ أَنْ يُسَمَّى خَلْقَهُمْ أَمْوَاتًا: إِمَاتَةً؟

قُلْتُ: كَمَا صَحَّ أَنْ تَقُولَ: سُبْحَانَ مَنْ صَغَّرَ جِسْمَ الْبَعُوضَةِ وَكَبَّرَ جِسْمَ الْفِيلِ! وَقَوْلُكَ لِلْحَفَّارِ: ضَيِّقْ فَمَ الرَّكِيَّةِ وَوَسِّعْ أَسْفَلَهَا، وَلَيْسَ ثَمَّ نَقْلٌ مِنْ كِبَرٍ إِلَى صِغَرٍ وَلَا مِنْ صِغَرٍ إِلَى كِبَرٍ، وَلَا مِنْ ضَيِّقٍ إِلَى سِعَةٍ، وَلَا مِنْ سِعَةٍ إِلَى ضَيِّقٍ، وَإِنَّمَا أَرَدْتُ الْإِنْشَاءَ عَلَى تِلْكَ الصِّفَاتِ، وَالسَّبَبُ فِي صِحَّتِهِ أَنَّ الصِّغَرَ وَالْكِبَرَ جَائِزٌ مَعًا عَلَى الْمَصْنُوعِ الْوَاحِدِ، مِنْ غَيْرِ تَرَجُّحٍ لِأَحَدِهِمَا، وَكَذَلِكَ الضِّيقُ وَالسِّعَةُ.

فَإِذَا اخْتَارَ الصَّانِعُ أَحَدَ الْجَائِزَيْنِ، وَهُوَ مُتَمَكِّنٌ مِنْهُمَا عَلَى السَّوَاءِ فَقَدْ صَرَفَ الْمَصْنُوعَ عَنِ الْجَائِزِ الْآخَرِ، فَجَعَلَ صَرْفَهُ عَنْهُ كَنَقْلِهِ مِنْهُ، وَمَنْ جَعَلَ الْإِمَاتَتَيْنِ الَّتِي بَعْدَ حَيَاةِ الدُّنْيَا وَالَّتِي بَعْدَ حَيَاةِ الْقَبْرِ لَزِمَهُ ثَلَاثُ إِحْيَاآتٍ، وَهُوَ خِلَافُ مَا فِي الْقُرْآنِ، إِلَّا أَنْ يَتَمَحَّلَ فيجْعَلَ إِحْدَاهَا غَيْرَ مُعْتَدٍّ بِهَا، أَوْ يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– يُحْيِيهِمْ فِي الْقُبُورِ، وَتَسْتَمِرُّ بِهِمْ تِلْكَ الْحَيَاةُ فَلَا يَمُوتُونَ بَعْدَهَا، وَيَعُدُّهُمْ فِي الْمُسْتَثْنَيَيْنِ مِنَ الصَّعْقَةِ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾[1].

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ تُسَبِّبَ هَذَا لِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾[2]؟

قُلْتُ: قَدْ أَنْكَرُوا الْبَعْثَ فَكَفَرُوا، وَتَبِعَ ذَلِكَ مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَا يُحْصَى، لِأَنَّ مَنْ لَمْ يَخْشَ الْعَاقِبَةَ تَخْرُقُ فِي الْمَعَاصِي، فَلَمَّا رَأَوُا الْإِمَاتَةَ وَالْإِحْيَاءَ قَدْ تَكَرَّرَا عَلَيْهِمْ، عَلِمُوا بِأَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ قُدْرَتُهُ عَلَى الْإِنْشَاءِ، فَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمُ الَّتِي اقْتَرَفُوهَا مِنْ إِنْكَارِ الْبَعْثِ وَمَا تَبِعَهُ مِنْ مَعَاصِيهِمْ.

﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ﴾[3]، أَيْ: إِلَى نَوْعٍ مِنَ الْخُرُوجِ سَرِيعٍ أَوْ بَطِيءٍ ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾[4] قَطُّ، أَمِ الْيَأْسُ وَاقِعٌ دُونَ ذَلِكَ، فَلَا خُرُوجَ وَلَا سَبِيلَ إِلَيْهِ. وَهَذَا كَلَامُ مَنْ غُلِبَ عَلَيْهِ الْيَأْسُ وَالْقُنُوطُ، وَإِنَّمَا يَقُولُونَ ذَلِكَ تَعَلُّلًا وَتَحَيُّرًا، وَلِهَذَا جَاءَ الْجَوَابُ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: "ذَلِكُمْ" أَيْ: ذَلِكُمُ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ، وَأَنْ لَا سَبِيلَ لَكُمْ أَيْ خُرُوجٌ قَطُّ بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَإِيمَانِكُمْ بِالْإِشْرَاكِ بِهِ، ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ﴾[5] حَيْثُ حُكِمَ عَلَيْكُمْ بِالْعَذَابِ السَّرْمَدِ.

---

[1] سورة النَّمْلُ، الآية 78.

[2] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[3] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[4] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[5] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

وَقَوْلُهُ: ﴿الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾[1] دَلَالَةٌ عَلَى الْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ، وَعَلَى أَنَّ عِقَابَ مِثْلِهِ لَا يَكُونُ إِلَّا كَذَلِكَ، وَهُوَ الَّذِي يُطَابِقُ كِبْرِيَاءَهُ وَيُنَاسِبُ جَبَرُوتَهُ. وَقِيلَ: كَأَنَّ الْحَرُورِيَّةَ أَخَذُوا قَوْلَهُمْ: لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ، مِنْ هَذَا.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[2]

﴿يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾[3] مِنَ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ وَالرَّعْدِ وَالْبَرْقِ وَالصَّوَاعِقِ وَنَحْوِهَا.

وَالرِّزْقُ: الْمَطَرُ، لِأَنَّهُ سَبَبُهُ.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾[4]: وَمَا يَتَّعِظُ وَمَا يَعْتَبِرُ بِآيَاتِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ يَتُوبُ مِنَ الشِّرْكِ وَيَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ، فَإِنَّ الْمُعَانِدَ لَا سَبِيلَ إِلَى تَذَكُّرِهِ وَاتِّعَاظِهِ، ثُمَّ قَالَ لِلْمُنِيبِينَ: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾[5]، أَيِ: اعْبُدُوهُ ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[6] مِنَ الشِّرْكِ، وَأَنْ غَاظَ ذَلِكَ أَعْدَاءَكُمْ مِمَّنْ لَيْسَ عَلَى دِينِكُمْ.

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ﴾[7] ثَلَاثَةُ أَخْبَارٍ، لِقَوْلِهِ: ﴿هُوَ﴾[8] مُتَرَتِّبَةٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿الَّذِي يُرِيكُمْ﴾[9] أَوْ أَخْبَارُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، وَهِيَ مُخْتَلِفَةٌ تَعْرِيفًا وَتَنْكِيرًا.

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
7 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
8 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
9 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

وَقُرِئَ: (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ) بِالنَّصْبِ عَلَى الْمَدْحِ. وَرَفِيعُ الدَّرَجَاتِ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾[1]، وَهِيَ مَصَاعِدُ الْمَلَائِكَةِ إِلَى أَنْ تَبْلُغَ الْعَرْشَ، وَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى عِزَّتِهِ وَمَلَكُوتِهِ.

وَعَنِ ابْنِ جُبَيْرٍ: سَمَاءٌ فَوْقَ سَمَاءٍ، وَالْعَرْشِ فَوْقَهُنَّ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عِبَارَةً عَنْ رِفْعَةِ شَأْنِهِ وَعُلُوِّ سُلْطَانِهِ، كَمَا أَنَّ ذَا الْعَرْشِ عِبَارَةٌ عَنْ مِلْكِهِ.

وَقِيلَ: هِيَ دَرَجَاتُ ثَوَابِهِ الَّتِي يَنْزِلُهَا أَوْلِيَاءَهُ فِي الْجَنَّةِ.

﴿الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾[2] الَّذِي هُوَ سَبَبُ الْحَيَاةِ مِنْ أَمْرِهِ، يُرِيدُ: الْوَحْيُ الَّذِي هُوَ أَمْرٌ بِالْخَيْرِ وَبَعْثٌ عَلَيْهِ، فَاسْتَعَارَ لَهُ الرُّوحَ، كَمَا قَالَ -تَعَالَى-: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾[3] ﴿لِيُنْذِرَ﴾[4] اللَّهُ. أَوِ الْمُلْقَى عَلَيْهِ: وَهُوَ الرَّسُولُ أَوِ الرُّوحُ. وَقُرِئَ: (لِتُنْذِرَ) أَيْ: لِتُنْذِرَ الرُّوحُ لِأَنَّهَا تُؤَنَّثُ، أَوْ عَلَى خِطَابِ الرَّسُولِ. وَقُرِئَ: (لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ) عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾[5] يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِأَنَّ الْخَلَائِقَ تَلْتَقِي فِيهِ. وَقِيلَ: يَلْتَقِي فِيهِ أَهْلُ السَّمَاءِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ. وَقِيلَ: الْمَعْبُودُ وَالْعَابِدُ.

﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾[6]: ظَاهِرُونَ لَا يَسْتُرُهُمْ شَيْءٌ مِنْ جَبَلٍ أَوْ أَكَمَةٍ أَوْ بِنَاءٍ، لِأَنَّ الْأَرْضَ بَارِزَةٌ قَاعَ صَفْصَفٍ، وَلَا عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ، إِنَّمَا هُمْ عُرَاةٌ مَكْشُوفُونَ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: "يَحْشُرُونَ عُرَاةً حُفَاةً غُرْلًا"، ﴿لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾[7]، أَيْ: أَنَّ أَعْمَالَهُمْ وَأَحْوَالَهُمْ.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: لَا يَخْفى عَلَيْهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ: ﴿لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾[8]: بَيَانٌ وَتَقْرِيرٌ لِبُرُوزِهِمْ، وَاللَّهُ -تَعَالَى- لَا يَخْفى عَلَيْهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ بَرَزُوا أَوْ لَمْ يَبْرُزُوا، فَمَا مَعْنَاهُ؟

---

1 سورة الْمَعَارِجُ، الآية 3.

2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

3 سورة الْأَنْعَامُ، الآية 122.

4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

7 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

8 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَوَهَّمُونَ –فِي الدُّنْيَا إِذَا اسْتَتَرُوا بِالْحِيطَانِ وَالْحُجُبِ– أَنَّ اللَّهَ لَا يَرَاهُمْ وَيَخْفَى عَلَيْهِ أَعْمَالُهُمْ، فَهُمُ الْيَوْمَ صَائِرُونَ مِنَ الْبُرُوزِ وَالِانْكِشَافِ إِلَى حَالٍ لَا يَتَوَهَّمُونَ فِيهَا مِثْلَ مَا كَانُوا يَتَوَهَّمُونَهُ.

قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1]. وَقَالَ –تَعَالَى–: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾[2]، وَذَلِكَ لِعِلْمِهِمْ أَنَّ النَّاسَ يُبْصِرُونَهُمْ، وَظَنِّهِمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يُبْصِرُهُمْ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[3]، ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[4] حِكَايَةٌ لَمَّا يُسْأَلُ عَنْهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلِمَا يُجَابُ بِهِ.

وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ فيقُولُ: لِمَنِ الْمَلِكُ الْيَوْمَ؟ فيجِيبُهُ أَهْلُ الْمَحْشَرِ: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[5].

وَقِيلَ: يَجْمَعُ اللَّهُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ بِأَرْضٍ بَيْضَاءَ كَأَنَّهَا سَبِيكَةُ فِضَّةٍ لَمْ يُعْصَ اللَّهُ فِيهَا قَطُّ، فَأَوَّلُ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ أَنْ يُنَادِيَ مُنَادٍ: "لِمَنِ الْمَلِكُ الْيَوْمَ؟ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ. الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ..." الْآيَةُ.

فَهَذَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْمُنَادِي هُوَ الْمُجِيبُ.

﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[6]

لَمَّا قَرَّرَ أَنَّ الْمُلْكَ لِلَّهِ وَحْدَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَدَّدَ نَتَائِجَ ذَلِكَ، وَهِيَ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ تَجْزِي مَا كَسَبَتْ، وَأَنَّ الظُّلْمَ مَأْمُونٌ، لِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ، وَأَنَّ الْحِسَابَ لَا يُبْطِئُ، لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَشْغَلُهُ حِسَابٌ عَلَى حِسَابٍ، فيحَاسِبُ الْخَلْقَ كُلَّهُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ.

---

1 سورة فَصِّلَتْ، الآية 32.

2 سورة النِّسَاءُ، الآية 108.

3 سورة إِبْرَاهِيمُ، الآية 48.

4 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

5 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

6 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: إِذَا أَخَذَ فِي حِسَابِهِمْ لَمْ يَقِلْ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَّا فيها وَلَا أَهْلُ النَّارِ إِلَّا فيها.

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[1]

الْآزِفَةُ: الْقِيَامَةُ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأُزُوفِهَا، أَيْ: لِقُرْبِهَا.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِـ "يَوْمِ الْآزِفَةِ": وَقْتَ الْخُطَّةِ الْآزِفَةِ، وَهِيَ مُشَارَفَتُهُمْ دُخُولَ النَّارِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَرْتَفِعُ قُلُوبُهُمْ عَنْ مَقَارِّهَا فَتُلْصَقُ بِحَنَاجِرِهِمْ، فَلَا هِيَ تَخْرُجُ فيمُوتُوا، وَلَا تَرْجِعُ إِلَى مَوَاضِعِهَا فيتَنَفَّسُوا وَيَتَرَوَّحُوا، وَلَكِنَّهَا مُعْتَرِضَةٌ كَالشَّجَا، كَمَا قَالَ –تَعَالَى–: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[2].

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿كَاظِمِينَ﴾[3] بِمَا انْتَصَبَ؟

قُلْتُ: هُوَ حَالٌ عَنْ أَصْحَابِ الْقُلُوبِ عَلَى الْمَعْنَى، لِأَنَّ الْمَعْنَى: إِذْ قُلُوبُهُمْ لَدَى حَنَاجِرِهِمْ كَاظِمِينَ عَلَيْهَا.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا عَنِ الْقُلُوبِ، وَأَنَّ الْقُلُوبَ كَاظِمَةٌ عَلَى غَمٍّ وَكَرْبٍ فيها مَعَ بُلُوغِهَا الْحَنَاجِرَ، وَإِنَّمَا جَمْعُ الْكَاظِمِ جَمْعُ السَّلَامَةِ، لِأَنَّهُ وَصَفَهَا بِالْكَظْمِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَفْعَالِ الْعُقَلَاءِ، كَمَا قَالَ –تَعَالَى–: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[4]، وَقَالَ: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[5]، وَتُعَضِّدُهُ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: (كَاظِمُونَ).

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا عَنْ قَوْلِهِ: وَأَنْذِرْهُمْ، أَيْ: وَأَنْذِرْهُمْ مُقَدِّرِينَ أَوْ مُشَارِفِينَ الْكَظْمَ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[6].

---

1 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

2 سورة الْمُلْكُ، الآية 27.

3 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

4 سورة يُوسُفُ، الآية 4.

5 سورة الشُّعَرَاءُ، الآية 4.

6 سورة الزُّمَرُ، الآية 73.

الْحَمِيمُ: الْمُحِبُّ الْمُشْفِقُ. وَالْمُطَاعُ: مَجَازٌ فِي الْمُشَفَّعِ، لِأَنَّ حَقِيقَةَ الطَّاعَةِ نَحْوَ حَقِيقَةِ الْأَمْرِ فِي أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِمَنْ فَوْقَكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[1]؟

قُلْتُ: يُحْتَمَلُ أَنْ يَتَنَاوَلَ النَّفِي الشَّفَاعَةَ وَالطَّاعَةَ مَعًا، وَأَنْ يَتَنَاوَلَ الطَّاعَةَ دُونَ الشَّفَاعَةِ، كَمَا تَقُولُ: مَا عِنْدِي كِتَابٌ يُبَاعُ، فَهُوَ مُحْتَمَلُ نَفِي الْبَيْعِ وَحْدَهُ، وَأَنَّ عِنْدَكَ كِتَابًا إِلَّا أَنَّكَ لَا تَبِيعُهُ، وَنَفِيهُمَا جَمِيعًا، وَأَنْ لَا كِتَابَ عِنْدَكَ، وَلَا كَوْنُهُ مَبِيعًا.

وَنَحْوُهُ:

وَلا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْحَجِرُ

يُرِيدُ: نَفِي الضَّبِّ وَانْحِجَارِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فِعْلُ أَيِّ الِاحْتِمَالَيْنِ يَجِبُ حَمْلُهُ؟

قُلْتُ: عَلَى نَفِي الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا، مِنْ قِبَلِ أَنَّ الشُّفَعَاءَ هُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ، وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا يُحِبُّونَ وَلَا يَرْضَوْنَ إِلَّا مَنْ أَحَبَّهُ اللَّهُ وَرَضِيَهُ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ، فَلَا يُحِبُّونَهُمْ، وَإِذَا لَمْ يُحِبُّوهُمْ لَمْ يَنْصُرُوهُمْ وَلَمْ يَشْفَعُوا لَهُمْ.

قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾[2]، وَقَالَ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[3]، وَلِأَنَّ الشَّفَاعَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا فِي زِيَادَةِ التَّفَضُّلِ، وَأَهْلُ التَّفَضُّلِ وَزِيَادَتُهُ إِنَّمَا هُمْ أَهْلُ الثَّوَابِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾[4].

وَعَنِ الْحَسَنِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: وَاللَّهِ مَا يَكُونُ لَهُمْ شَفِيعٌ الْبَتَّةَ.

فَإِنْ قُلْتَ: الْغَرَضُ حَاصِلٌ بِذِكْرِ الشَّفِيعِ وَنَفِيهِ، فَمَا الْفَائِدَةُ فِي ذِكْرِ هَذِهِ الصِّفَةِ وَنَفِيهَا؟

قُلْتُ: فِي ذِكْرِهَا فَائِدَةٌ جَلِيلَةٌ، وَهِيَ أَنَّهَا ضُمَّتْ إِلَيْهِ، لِيُقَامَ انْتِفَاءُ الْمَوْصُوفِ مَقَامَ الشَّاهِدِ عَلَى انْتِفَاءِ الصِّفَةِ، لِأَنَّ الصِّفَةَ لَا تَتَأَتَّى بِدُونِ مَوْصُوفِهَا، فَيَكُونُ ذَلِكَ إِزَالَةً لِتَوَهُّمِ وُجُودِ الْمَوْصُوفِ.

---

[1] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية 270.

[3] سورة الْأَنْبِيَاء، الآية 28.

[4] سورة النِّسَاء، الآية 174.

بَيَانُهُ: أَنَّكَ إِذَا عُوتِبْتَ عَلَى الْقُعُودِ عَنِ الْغَزْوِ، فَقُلْتَ: مَا لِي فَرَسٌ أَرْكَبُهُ، وَلَا مَعِي سِلَاحٌ أُحَارِبُ بِهِ، فَقَدْ جَعَلْتَ عَدَمَ الْفَرَسِ وَفَقْدَ السِّلَاحِ عِلَّةً مَانِعَةً مِنَ الرُّكُوبِ وَالْمُحَارَبَةِ، كَأَنَّكَ تَقُولُ: كَيْفَ يَتَأَتَّى مِنِّي الرُّكُوبُ وَالْمُحَارَبَةُ وَلَا فَرَسَ لِي وَلَا سِلَاحَ مَعِي؟

فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[1]، مَعْنَاهُ: كَيْفَ يَتَأَتَّى التَّشْفِيعُ وَلَا شَفِيعَ، فَكَانَ ذِكْرُ التَّشْفِيعِ وَالِاسْتِشْهَادِ عَلَى عَدَمٍ تَأْتِيهِ بِعَدَمِ الشَّفِيعِ وَضْعًا لِانْتِفَاءِ الشَّفِيعِ مَوْضِعَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ غَيْرِ الْمُنْكَرِ الَّذِي لَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَوَهَّمَ خِلَافُهُ.

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[2]

الْخَائِنَةُ: صِفَةٌ لِلنَّظْرَةِ، أَوْ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْخِيَانَةِ، كَالْعَافِيَةِ بِمَعْنَى الْمُعَافَاةِ، وَالْمُرَادُ: اسْتِرَاقُ النَّظَرِ إِلَى مَا لَا يَحِلُّ، كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ الرِّيَبِ، وَلَا يَحْسُنُ أَنْ يُرَادَ الْخَائِنَةَ مِنَ الْأَعْيُنِ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[3] لَا يُسَادُ عَلَيْهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ اتَّصَلَ قَوْلُهُ: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ﴾[4]؟

قُلْتُ: هُوَ خَبَرٌ مِنْ أَخْبَارٍ هُوَ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ﴾[5] مِثْلُ ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾[6]، وَلَكِنْ ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾[7] قَدْ عَلَّلَ بِقَوْلِهِ: ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾[8]؛ ثُمَّ اسْتَطْرَدَ ذِكْرَ أَحْوَالِ يَوْمِ التَّلَاقِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[9]، فَبَعُدَ لِذَلِكَ عَنْ أَخَوَاتِهِ.

---

1 سورة الْمُؤْمِنِ ، الآية .
2 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
3 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
4 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
5 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
6 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
7 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
8 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
9 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1]

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾[2]، يَعْنِي: وَالَّذِي هَذِهِ صِفَاتُهُ وَأَحْوَالُهُ لَا يَقْضِي إِلَّا بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، لِاسْتِغْنَائِهِ عَنِ الظُّلْمِ، وَآلِهَتُكُمْ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ. وَهَذَا تَهَكُّمٌ بِهِمْ، لِأَنَّ مَا لَا يُوصَفُ بِالْقُدْرَةِ لَا يُقَالُ فِيهِ: يَقْضِي، أَوْ لَا يَقْضِي.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾: تَقْرِيرٌ لِقَوْلِهِ: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[3]، وَوَعِيدٌ لَهُمْ بِأَنَّهُ يَسْمَعُ مَا يَقُولُونَ وَيُبْصِرُ مَا يَعْمَلُونَ، وَأَنَّهُ يُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهِ وَتَعْرِيضٌ بِمَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَأَنَّهَا لَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ، وَقُرِئَ: (يَدْعُونَ) بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[4]

﴿هُمْ﴾[5] في ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾[6] فَصْلٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: مِنْ حَقِّ الْفَصْلِ أَنْ لَا يَقَعَ إِلَّا بَيْنَ مَعْرِفَتَيْنِ فَمَا بَالُهُ وَاقِعًا بَيْنَ مَعْرِفَةٍ وَغَيْرِ مَعْرِفَةٍ؟ وَهُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ.

قُلْتُ: قَدْ ضَارَعَ الْمَعْرِفَةَ فِي أَنَّهُ لَا تَدْخُلُهُ الْأَلِفُ وَاللَّامُ، فَأُجْرِيَ مَجْرَاهَا. وَقُرِئَ: (مِنْكُمْ) وَهِيَ فِي مَصَاحِفِ أَهْلِ الشَّامِ.

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

﴿وَآثَارًا﴾[1] يُرِيدُ حُصُونَهُمْ وَقُصُورَهُمْ وَعَدَدَهُمْ، وَمَا يُوصَفُ بِالشِّدَّةِ مِنْ آثَارِهِمْ، أَوْ: أَرَادُوا أَكْثَرَ آثَارًا، كَقَوْلِهِ:

مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمْحًا

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾[2]

﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾[3]، وَحُجَّةٌ ظَاهِرَةٌ وَهِيَ الْمُعْجِزَاتُ، فَقَالُوا: هُوَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ، فَسَمَّوُا السُّلْطَانَ الْمُبِينَ سِحْرًا وَكَذَّابًا، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ﴾[4] بِالنُّبُوَّةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَمَا كَانَ قَتْلُ الْأَبْنَاءِ وَاسْتِحْيَاءُ النِّسَاءِ مِنْ قَبْلُ خِيفَةَ أَوْ يُولَدُ الْمَوْلُودُ الَّذِي أَنْذَرَتْهُ الْكَهَنَةُ بِظُهُورِهِ وَزَوَالِ مُلْكِهِ عَلَى يَدِهِ؟

قُلْتُ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ الْقَتْلُ حِينَئِذٍ، وَهَذَا قَتْلٌ آخَرُ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– في قَوْلِهِ: ﴿قَالُوا اقْتُلُوا﴾[5]: أَعِيدُوا عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ كَالَّذِي كَانَ أَوَّلًا، يُرِيدُ: أَنَّ هَذَا قَتْلٌ غَيْرُ الْقَتْلِ الْأَوَّلِ: ﴿فِي ضَلَالٍ﴾[6] في ضَيَاعٍ وَذَهَابٍ، بَاطِلًا لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِمْ، يَعْنِي: أَنَّهُمْ بَاشَرُوا قَتْلَهُمْ أَوَّلًا فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ، وَنَفَّذَ قَضَاءَ اللَّهِ بِإِظْهَارِ مَنْ خَافُوهُ، فَمَا يُغْنِي عَنْهُمْ هَذَا الْقَتْلَ الثَّانِي، وَكَانَ فِرْعَوْنُ قَدْ كَفَّ عَنْ قَتْلِ الْوِلْدَانِ.

فَلَمَّا بَعَثَ مُوسَى وَأَحَسَّ بِأَنَّهُ قَدْ وَقَعَ: أَعَادَهُ عَلَيْهِمْ غَيْظًا وَحَنَقًا، وَظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُ يَصُدُّهُمْ بِذَلِكَ عَنْ مُظَاهَرَةِ مُوسَى، وَمَا عَلِمَ أَنَّ كَيْدَهُ ضَائِعٌ في الْكَرَّتَيْنِ جَمِيعًا.

---

[1] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

[2] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

[3] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

[4] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

[5] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

[6] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[1]

﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾[2] كَانُوا إِذَا هَمَّ بِقَتْلِهِ كَفَوْهُ بِقَوْلِهِمْ: لَيْسَ بِالَّذِي تَخَافُهُ، وَهُوَ أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ وَأَضْعَفُ، وَمَا هُوَ إِلَّا بَعْضُ السَّحَرَةِ، وَمِثْلُهُ لَا يُقَاوِمُ إِلَّا سَاحِرًا مِثْلَهُ، وَيَقُولُونَ: إِذَا قَتَلْتَهُ أَدْخَلْتَ الشُّبْهَةَ عَلَى النَّاسِ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّكَ قَدْ عَجَزْتَ عَنْ مُعَارَضَتِهِ بِالْحُجَّةِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ فِرْعَوْنَ لَعَنَهُ اللَّهِ كَانَ قَدِ اسْتَيْقَنَ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ وَمَا هُوَ بِسِحْرٍ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ كَانَ فِيهِ خِبٌّ وَجَرْبَزَةٌ، وَكَانَ قَتَّالًا سَفَّاكًا لِلدِّمَاءِ فِي أَهْوَنِ شَيْءٍ، فَكَيْفَ لَا يَقْتُلُ مَنْ أَحَسَّ مِنْهُ بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَئِلُ عَرْشَهُ وَيَهْدِمُ مُلْكَهُ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَخَافُ إِنَّ هَمَّ بِقَتْلِهِ أَنْ يُعَاجِلَ بِالْهَلَاكِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾[3] شَاهِدُ صِدْقٍ عَلَى فَرْطِ خَوْفِهِ مِنْهُ وَمِنْ دَعْوَتِهِ رَبَّهُ، وَكَانَ قَوْلُهُ: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾[4] تَمْوِيهًا عَلَى قَوْمِهِ، وَإِيهَامًا أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَكْفُونَهُ، وَمَا كَانَ يَكُفُّهُ إِلَّا مَا فِي نَفْسِهِ مِنْ هَوْلِ الْفَزَعِ.

﴿أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾[5]: أَنْ يُغَيِّرَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَهُ وَيَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾[6]، وَالْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ: التَّفَاتُنُ وَالتَّهَارُجُ الَّذِي يَذْهَبُ مَعَهُ الْأَمْنُ وَتَتَعَطَّلُ الْمَزَارِعُ وَالْمَكَاسِبُ وَالْمَعَايِشُ، وَيَهْلَكُ النَّاسُ قَتْلًا وَضَيَاعًا، كَأَنَّهُ قَالَ: إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُفْسِدَ عَلَيْكُمْ دِينَكُمْ بِدَعْوَتِكُمْ إِلَى دِينِهِ، أَوْ يُفْسِدَ عَلَيْكُمْ دُنْيَاكُمْ بِمَا يُظْهِرُ مِنَ الْفِتَنِ بِسَبَبِهِ.

وَفِي مَصَاحِفِ أَهْلِ الْحِجَازِ: "وَأَنْ يُظْهِرَ" بِالْوَاوِ، وَمَعْنَاهُ: إِنِّي أَخَافُ فَسَادَ دِينِكُمْ وَدُنْيَاكُمْ مَعًا. وَقُرِئَ: (يُظْهِرَ) مِنْ أَظْهَرَ، وَ (الْفَسَادَ) مَنْصُوبٌ، أَيْ: يُظْهِرُ مُوسَى الْفَسَادَ. وَقُرِئَ: (يَظَّهَّرَ) بِتَشْدِيدِ الظَّاءِ وَالْهَاءِ، مِنْ تَظْهَرُ بِمَعْنَى تَظَاهَرَ، أَيْ: تَتَابَعَ وَتَعَاوَنَ .

---

[1] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[2] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[3] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[4] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[5] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[6] سورة الْأَعْرَافُ، الآية 127.

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[1]

لَمَّا سَمِعَ مُوسَى –عَلَيْهِ السَّلَامُ– بِمَا أَجْرَاهُ فِرْعَوْنُ مِنْ حَدِيثِ قَتْلِهِ: قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿إِنِّي عُذْتُ﴾[2] بِاللَّهِ الَّذِي هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَبِّكُمْ﴾[3] فِيهِ بَعْثٌ لَهُمْ عَلَى أَنْ يَقْتَدُوا بِهِ، فيعَوِّذُوا بِاللَّهِ عِيَاذَهُ، وَيَعْتَصِمُوا بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ اعْتِصَامَهُ، وَقَالَ: ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾[4] لِتَشْمَلَ اسْتِعَاذَتَهُ فِرْعَوْنَ وَغَيْرَهُ مِنَ الْجَبَابِرَةِ، وَلِيَكُونَ عَلَى طَرِيقَةِ التَّعْرِيضِ، فيكُونُ أَبْلَغَ، وَأَرَادَ بِالتَّكَبُّرِ: الِاسْتِكْبَارُ عَنِ الْإِذْعَانِ لِلْحَقِّ، وَهُوَ أَقْبَحُ اسْتِكْبَارٍ وَأَدُلُّهُ عَلَى دَنَاءَةِ صَاحِبِهِ وَمَهَانَةِ نَفْسِهِ، وَعَلَى فَرْطِ ظُلْمِهِ وَعَسْفِهِ، وَقَالَ: ﴿لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[5]، لِأَنَّهُ إِذَا اجْتَمَعَ فِي الرَّجُلِ التَّجَبُّرُ وَالتَّكْذِيبُ بِالْجَزَاءِ وَقِلَّةُ الْمُبَالَاةِ بِالْعَاقِبَةِ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ أَسْبَابَ الْقَسْوَةِ وَالْجَرَاءَةِ عَلَى اللَّهِ وَعِبَادِهِ، وَلَمْ يَتْرُكْ عَظِيمَةً إِلَّا ارْتَكَبَهَا.

وَ﴿عُذْتُ﴾[6]: وَلُذْتُ أَخَوَانِ. وَقُرِئَ: (عَتَّ)، بِالْإِدْغَامِ.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[7]

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
7 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

﴿رَجُلٌ مُؤْمِنٌ﴾[1]: وَقُرِئَ: (رَجْلٌ) بِسُكُونِ الْجِيمِ، كَمَا يُقَالُ: عَضَّدَ في عَضُدَ، وَكَانَ قِبْطِيًّا ابْنُ عَمٍّ لِفِرْعَوْنَ، آمَنَ بِمُوسَى سِرًّا، وَقِيلَ: كَانَ إِسْرَائِيلِيًّا.

وَ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾[2] صِفَةٌ لِرَجُلٍ. أَوْ صِلَةٌ لِيَكْتُمَ، أَيْ: يَكْتُمُ إِيمَانَهُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وَاسْمُهُ سَمْعَانُ أَوْ حَبِيبٌ، وَقِيلَ: حِزْبِيلُ أَوْ حَزْبِيلُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ كَانَ مِنْ آلِفِرْعَوْنَ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَقِلُّوا وَلَمْ يَعِزُّوا.

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُ فِرْعَوْنَ: ﴿أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾[3].

وَقَوْلُ الْمُؤْمِنِ: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾[4]. دَلِيلٌ ظَاهِرٌ عَلَى أَنَّهُ يَنْتَصِحُ لِقَوْمِهِ.

﴿ أَنْ يَقُولَ﴾[5]، لِأَنْ يَقُولَ، وَهَذَا إِنْكَارٌ مِنْهُ عَظِيمٌ وَتَبْكِيتٌ شَدِيدٌ، كَأَنَّهُ قَالَ: أَتَرْتَكِبُونَ الْفَعْلَةَ الشَّنْعَاءَ الَّتِي هِيَ قَتْلُ نَفْسٍ مُحَرَّمَةٍ، وَمَا لَكُمْ عِلَّةٌ قَطُّ في ارْتِكَابِهَا إِلَّا كَلِمَةُ الْحَقِّ الَّتِي نَطَقَ بِهَا، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾[6]، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَحْضُرْ لِتَصْحِيحِ قَوْلِهِ بِبَيِّنَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَكِنْ بَيِّنَاتٍ عِدَّةٍ مِنْ عِنْدِ مَنْ نُسِبَ إِلَيْهِ الرُّبُوبِيَّةُ، وَهُوَ رَبُّكُمْ لَا رَبُّهُ وَحْدَهُ، وَهُوَ اسْتِدْرَاجٌ لَهُمْ إِلَى الِاعْتِرَافِ بِهِ، وَلِيَلِينَ بِذَلِكَ جِمَاحُهُمْ وَيَكْسِرَ مِنْ سُورَتِهِمْ، وَلَكَ أَنْ تُقَدِّرَ مُضَافًا مَحْذُوفًا، أَيْ: وَقْتَ أَنْ تَقُولَ.

وَالْمَعْنَى: أَتَقْتُلُونَهُ سَاعَةَ سَمِعْتُمْ مِنْهُ هَذَا الْقَوْلَ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ وَلَا فِكْرٍ في أَمْرِهِ؟

وَقَوْلُهُ: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾[7]، يُرِيدُ: بِالْبَيِّنَاتِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي عَهِدْتُمُوهَا وَشَهِدْتُمُوهَا، ثُمَّ أَخَذَهُمْ بِالِاحْتِجَاجِ عَلَى طَرِيقَةِ التَّقْسِيمِ، فَقَالَ: لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ كَاذِبًا أَوْ صَادِقًا، ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾[8]، أَيْ: يَعُودُ عَلَيْهِ كَذِبُهُ وَلَا يَتَخَطَّاهُ ضَرَرُهُ، ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ﴾[9]: مَا يَعِدُكُمْ إِنْ تَعَرَّضْتُمْ لَهُ.

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
3 سورة غَافِر، الآية 25.
4 سورة غَافِر، الآية 29.
5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
7 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
8 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
9 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قَالَ: بَعْضُ ﴿الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾[1]، وَهُوَ نَبِيٌّ صَادِقٌ، لَا بُدَّ لِمَا بَعْدَهُمْ أَنْ يُصِيبَهُمْ كُلُّهُ لَا بَعْضُهُ؟

قُلْتُ: لِأَنَّهُ احْتَاجَ فِي مُقَاوَلَةِ خُصُومِ مُوسَى وَمِنَّا كَرِيهٌ إِلَى أَنْ يُلَاوِصَهُمْ وَيُدَارِيهِمْ، وَيَسْلُكَ مَعَهُمْ طَرِيقَ الْأَنْصَافِ فِي الْقَوْلِ، وَيَأْتِيهِمْ مِنْ وُجْهَةِ الْمُنَاصَحَةِ، فَجَاءَ بِمَا عَلِمَ أَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى تَسْلِيمِهِمْ لِقَوْلِهِ، وَأَدْخَلُ فِي تَصْدِيقِهِمْ لَهُ وَقَبُولِهِمْ مِنْهُ، فَقَالَ: ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾[2]، وَهُوَ كَلَامُ الْمُنْصِفِ فِي مَقَالِهِ غَيْرِ الْمُشْتَطِّ فِيهِ، لِيَسْمَعُوا مِنْهُ وَلَا يَرُدُّوا عَلَيْهِ.

وَذَلِكَ أَنَّهُ حِينَ فَرَضَهُ صَادِقًا، فَقَدْ أَثْبَتَ أَنَّهُ صَادِقٌ فِي جَمِيعِ مَا يُعَدُّ، وَلَكِنَّهُ أَرْدَفَهُ ﴿يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾[3] لِيَهْضِمَهُ بَعْضَ حَقِّهِ فِي ظَاهِرِ الْكَلَامِ، فيريهِمْ أَنَّهُ لَيْسَ بِكَلَامِ مَنْ أَعْطَاهُ حَقَّهُ وَافيا، فَضْلًا أَنْ يَتَعَصَّبَ لَهُ، أَوْ يَرْمِيَ بِالْحَصَا مِنْ وَرَائِهِ، وَتَقْدِيمُ الْكَاذِبِ عَلَى الصَّادِقِ أَيْضًا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[4].

فَإِنْ قُلْتَ: فَعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ أَنَّهُ فَسَّرَ الْبَعْضَ بِالْكُلِّ، وَأَنْشَدَ بَيْتَ لَبِيدٍ:

تَرَّاكُ أَمْكِنَةٍ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ يَرْتَبِطْ بَعْضُ النُّفُوسِ حِمَامَهَا

قُلْتُ: إِنْ صَحَّتِ الرِّوَايَةُ عَنْهُ، فَقَدْ حَقَّ فِيهِ قَوْلُ الْمَازِنِيِّ فِي مَسْأَلَةِ الْعِلْقِيِّ: كَانَ أَجْفَى مِنْ أَنْ يَفْقَهَ مَا أَقُولُ لَهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾[5] يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مُسْرِفًا كَذَّابًا خَذَلَهُ اللَّهُ وَأَهْلَكَهُ وَلَمْ يَسْتَقِمْ لَهُ أَمْرٌ، فيتَخَلَّصُونَ مِنْهُ، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ مُسْرِفًا كَذَّابًا لَمَّا هَدَاهُ اللَّهُ لِلنُّبُوَّةِ، وَلَمَّا عَضَّدَهُ بِالْبَيِّنَاتِ.

وَقِيلَ: مَا تَوَلَّى أَبُو بَكْرٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ أَشَدَّ مِنْ ذَلِكَ، طَافَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْبَيْتِ، فَلَقُوهُ حِينَ فَرَغَ، فَأَخَذُوا بِمَجَامِعِ رِدَائِهِ فَقَالُوا لَهُ: أَنْتَ الَّذِي تَنْهَانَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، فَقَالَ: أَنَا ذَاكَ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

فَالْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ، وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ، رَافِعًا صَوْتَهُ بِذَلِكَ، وَعَيْنَاهُ تَسْفَحَانِ، حَتَّى أَرْسَلُوهُ.

وَعَنْ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ: أَنَّ مُؤْمِنَ آلِ فِرْعَوْنَ قَالَ ذَلِكَ سِرًّا، وَأَبُو بَكْرٍ قَالَهُ ظَاهِرًا.

﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[1]

﴿ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾[2] فِي أَرْضِ مِصْرَ عَالِينَ فِيهَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، يَعْنِي: أَنَّ لَكُمْ مُلْكَ مِصْرَ، وَقَدْ عَلَوْتُمُ النَّاسَ، وَقَهَرْتُمُوهُمْ، فَلَا تُفْسِدُوا أَمْرَكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَتَعَرَّضُوا لِبَأْسِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ، فَإِنَّهُ لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ إِنْ جَاءَكُمْ، وَلَا يَمْنَعُكُمْ مِنْهُ أَحَدٌ.

وَقَالَ: ﴿يَنْصُرُنَا﴾[3] وَ﴿جَاءَنَا﴾[4]، لِأَنَّهُ مِنْهُمْ فِي الْقَرَابَةِ، وَلِيُعْلِمَهُمْ بِأَنَّ الَّذِي يَنْصَحُهُمْ بِهِ هُوَ مُسَاهِمٌ لَهُمْ فِيهِ.

﴿مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى﴾[5]، أَيْ: مَا أُشِيرَ عَلَيْكُمْ بِرَأْيٍ إِلَّا بِمَا أَرَى مِنْ قَتْلِهِ، يَعْنِي: لَا أَسْتَصْوِبُ إِلَّا قَتْلَهُ، وَهَذَا الَّذِي تَقُولُونَهُ غَيْرُ صَوَابٍ

﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ﴾[6] بِهَذَا الرَّأْيِ ﴿إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[7]، يُرِيدُ: سَبِيلَ الصَّوَابِ وَالصَّلَاحِ. أَوْ مَا أُعْلِمُكُمْ إِلَّا مَا أَعْلَمُ مِنَ الصَّوَابِ، وَلَا أَدَّخِرُ مِنْهُ شَيْئًا، وَلَا أُسِرُّ عَنْكُمْ خِلَافَ مَا أُظْهِرُ، يَعْنِي: أَنَّ لِسَانَهُ وَقَلْبَهُ مُتَوَاطِئَانِ عَلَى مَا يَقُولُ، وَقَدْ كَذَبَ، فَقَدْ كَانَ مُسْتَشْعِرًا لِلْخَوْفِ الشَّدِيدِ مِنْ جِهَةِ مُوسَى، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَتَجَلَّدُ، وَلَوْلَا اسْتِشْعَارُهُ لَمْ يَسْتَشِرْ أَحَدًا وَلَمْ يَقِفِ الْأَمْرُ عَلَى الْإِشَارَةِ.

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
7 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

وَقُرِئَ: (الرَّشَادُ) فَعَالَ مِنْ رَشِدَ بِالْكَسْرِ، كَعَلَّامٍ، أَوْ مِنْ رَشَدَ بِالْفَتْحِ كَعِبَادٍ، وَقِيلَ: هُوَ مِنْ أَرْشَدَ كَجَبَّارٍ مِنْ أَجْبَرَ، وَلَيْسَ بِذَلِكَ، لِأَنَّ فِعَالًا مِنْ أَفْعَلَ لَمْ يَجِيءْ إِلَّا فِي عِدَّةِ أَحْرُفٍ، نَحْوُ: دَرَّاكَ وَسَارَّ وَقَصَّارَ وَحَبَّارَ، وَلَا يَصِحُّ الْقِيَاسُ عَلَى الْقَلِيلِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نِسْبَةً إِلَى الرُّشْدِ، كَعَوَّاجٍ وَبَتَاتٍ، غَيْرَ مَنْظُورٍ فِيهِ إِلَى فِعْلٍ.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾[1]

﴿مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾[2] مِثْلُ أَيَّامِهِمْ، لِأَنَّهُ لَمَّا أَضَافَهُ إِلَى الْأَحْزَابِ وَفَسَّرَهُمْ بِقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ، وَلَمْ يَلْبَسْ أَنَّ كُلَّ حِزْبٍ مِنْهُمْ كَانَ لَهُ يَوْمُ دَمَارٍ، اقْتَصَرَ عَلَى الْوَاحِدِ مِنَ الْجَمْعِ، لِأَنَّ الْمُضَافَ إِلَيْهِ أَغْنَى عَنْ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ:

كُلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمُو تَعِفُّـــوا

وَقَالَ الزَّجَّاجُ: مِثْلَ يَوْمِ حَزَبَ حِزْبٌ، وَدَأَبَ هَؤُلَاءِ: دُؤُوبَهُمْ فِي عَمَلِهِمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ وَسَائِرِ الْمَعَاصِي، وَكَوْنُ ذَلِكَ دَائِبًا دَائِمًا مِنْهُمْ لَا يَفْتَرُونَ عَنْهُ، وَلَا بُدَّ مِنْ حَذْفِ مُضَافٍ، يُرِيدُ: مِثْلَ جَزَاءِ دَأْبِهِمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ انْتَصَبَ ﴿مِثْلَ﴾[3] الثَّانِي؟

قُلْتُ: بِأَنَّهُ عَطْفُ بَيَانٍ لِمِثْلِ الْأَوَّلِ، لِأَنَّ آخِرَ مَا تَنَاوَلَهُ الْإِضَافَةُ قَوْمَ نُوحٍ، وَلَوْ قُلْتَ: أَهْلَكَ اللَّهُ الْأَحْزَابَ: قَوْمَ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ، لَمْ يَكُنْ إِلَّا عَطْفَ بَيَانٍ لِإِضَافَةِ قَوْمٍ إِلَى أَعْلَامٍ، فَسَرَى ذَلِكَ الْحُكْمُ إِلَى أَوَّلِ مَا تَنَاوَلَتْهُ الْإِضَافَةُ.

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾[4]، يَعْنِي: أَنَّ تَدْمِيرَهُمْ كَانَ عَدْلًا وَقِسْطًا، لِأَنَّهُمُ اسْتَوْجَبُوهُ بِأَعْمَالِهِمْ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[5]]فُصِّلَتْ: 46] حَيْثُ

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

5 سورة فُصِّلَتْ، الآية 46.

جَعَلَ الْمَنْفى إِرَادَةَ الظُّلْمِ، لِأَنَّ مَنْ كَانَ عَنْ أَرَادَةِ الظُّلْمِ بَعِيدًا، كَانَ عَنِ الظُّلْمِ أَبْعَدُ. وَحَيْثُ نَكَّرَ الظُّلْمَ، كَأَنَّهُ نَفى أَنْ يُرِيدَ ظُلْمًا مَا لِعِبَادِهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ كَمَعْنَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾[1]، أَيْ: لَا يُرِيدُ لَهُمْ أَنْ يَظْلِمُوا، يَعْنِي أَنَّهُ دَمَّرَهُمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ.

﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[2]

"التَّنَادِي": مَا حَكَى اللَّهُ –تَعَالَى– فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾[3]، ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾[4].

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَصَايُحَهُمْ بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ. وَقُرِئَ بِالتَّشْدِيدِ، وَهُوَ أَنْ يَنِدَّ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾[5].

وَعَنِ الضَّحَّاكِ: إِذَا سَمِعُوا زَفِيرَ النَّارِ نَدُّوا هَرَبًا، فَلَا يَأْتُونَ قُطْرًا مِنَ الْأَقْطَارِ إِلَّا وَجَدُوا مَلَائِكَةً صُفُوفًا، فَبَيْنَا هُمْ يَمُوجُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ إِذْ سَمِعُوا مُنَادِيًا: أَقْبِلُوا إِلَى الْحِسَابِ.

﴿ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾[6] عَنْ قَتَادَةَ: مُنْصَرِفِينَ عَنْ مَوْقِفِ الْحِسَابِ إِلَى النَّارِ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: فَارِّينَ عَنِ النَّارِ غَيْرِ مُعْجِزِينَ.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ

---

[1] سورة الزُّمَرُ ، الآية 7.

[2] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[3] سورة الْأَعْرَافُ، الآية 44.

[4] سورة الْأَعْرَافُ، الآية 50.

[5] سورة عَبَسَ، الآية 34.

[6] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

مُرْتَابٌ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[1]

هُوَ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ –عَلَيْهِمَا السَّلَامُ–.

وَقِيلَ: هُوَ يُوسُفُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ يُوسُفَ بْنِ يَعْقُوبَ: أَقَامَ فِيهِمْ نَبِيًّا عِشْرِينَ سَنَةً. وَقِيلَ: إِنَّ فِرْعَوْنَ مُوسَهُوَ فِرْعَوْنُ يُوسُفَ، عَمَّرَ إِلَى زَمَنِهِ،

وَقِيلَ: هُوَ فِرْعَوْنُ آخَرُ. وَبَّخَهُمْ بِأَنْ يُوسُفَ أَتَاكُمْ بِالْمُعْجِزَاتِ فَشَكَكْتُمْ فِيهَا وَلَمْ تَزَالُوا شَاكِّينَ كَافِرِينَ.

﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ﴾[2]: قُبِضَ، ﴿قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولا﴾[3]: حَكَمًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ مِنْ غَيْرِ بُرْهَانٍ وَتَقْدِمَةِ عَزْمٍ مِنْكُمْ عَلَى تَكْذِيبِ الرُّسُلِ، فَإِذَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ جَحَدْتُمْ وَكَذَّبْتُمْ بِنَاءً عَلَى حُكْمِكُمُ الْبَاطِلِ الَّذِي أَسَّسْتُمُوهُ، وَلَيْسَ قَوْلُهُمْ: ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولا﴾[4] بِتَصْدِيقٍ لِرِسَالَةِ يُوسُفَ، وَكَيْفَ وَقَدْ شَكُّوا فِيهَا وَكَفَرُوا بِهَا، وَإِنَّمَا هُوَ تَكْذِيبٌ لِرِسَالَةِ مَنْ بَعْدَهُ مَضْمُومٌ إِلَى تَكْذِيبِ رِسَالَتِهِ؟

وَقُرِئَ: (أَلَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ) عَلَى إِدْخَالِ هَمْزَةِ الِاسْتِفْهَامِ عَلَى حَرْفِ النَّفْيِ، كَأَنَّ بَعْضَهُمْ يُقَرِّرُ بَعْضًا بِنَفْيِ الْبَعْثِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ﴾[5]، أَيْ: مِثْلُ هَذَا الْخُذْلَانِ الْمُبِينِ يَخْذُلُ اللَّهُ كُلَّ مُسْرِفٍ فِي عِصْيَانِهِ مُرْتَابٍ فِي دِينِهِ.

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾[6] بَدَلٌ مِنْ ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾[7].

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جَازَ إِبْدَالُهُ مِنْهُ وَهُوَ جَمْعٌ وَذَاكَ مُوَحَّدٌ؟

قُلْتُ: لِأَنَّهُ لَا يُرِيدُ مُسْرِفًا وَاحِدًا، فَكَأَنَّهُ قَالَ: كُلُّ مُسْرِفٍ.

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

7 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا فَاعِلُ ﴿كَبُرَ﴾[1]؟

قُلْتُ: ضَمِيرُ ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾[2].

فَإِنْ قُلْتَ: أَمَا قُلْتَ: هُوَ جَمْعٌ، وَلِهَذَا أُبْدِلَتْ مِنْهُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ؟

قُلْتُ: بَلَى هُوَ جَمْعٌ في الْمَعْنَى.

وَأَمَّا اللَّفْظُ فَمُوَحَّدٌ، فَحَمَلَ الْبَدَلَ عَلَى أَنَّ مَعْنَاهُ، وَالضَّمِيرُ الرَّاجِعُ إِلَيْهِ عَلَى لَفْظِهِ، وَلَيْسَ بِبِدْعٍ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى اللَّفْظِ تَارَةً وَعَلَى الْمَعْنَى أُخْرَى، وَلَهُ نَظَائِرُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَرْفَعَ ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾[3] عَلَى الِابْتِدَاءِ، وَلَا بُدَّ في هَذَا الْوَجْهِ مِنْ حَذْفِ مُضَافٍ يَرْجِعُ إِلَيْهِ الضَّمِيرُ في كَبُرَ، تَقْدِيرُهُ: جِدَالُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ كَبُرَ مَقْتًا.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾[4] مُبْتَدَأً، وَ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾[5] خَبَرًا، وَفَاعِلُ كَبُرَ قَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ﴾[6]، أَيْ: كَبُرَ مَقْتًا مِثْلُ ذَلِكَ الْجِدَالِ، وَ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ﴾[7] كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ، وَمَنْ قَالَ: كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ جِدَالُهُمْ، فَقَدْ حَذَفَ الْفَاعِلَ، وَالْفَاعِلُ لَا يَصِحُّ حَذْفُهُ.

وَفِي ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾[8]: ضَرْبٌ مِنَ التَّعَجُّبِ وَالِاسْتِعْظَامِ لِجِدَالِهِمْ، وَالشَّهَادَةُ عَلَى خُرُوجِهِ مِنْ حَدِّ إِشْكَالِهِ مِنَ الْكَبَائِرِ. وَقُرِئَ: (سُلُطَانُ) بِضَمِّ اللَّامِ.

وَقُرِئَ: (قَلْبٍ) بِالتَّنْوِينِ، وَوَصَفَ الْقَلْبَ بِالتَّكَبُّرِ وَالتَّجَبُّرِ، لِأَنَّهُ مَرْكَزُهُمَا وَمَنْبَعُهُمَا، كَمَا تَقُولُ: رَأَتِ الْعَيْنُ، وَسَمِعَتِ الْأُذُنُ.

وَنَحْوُهُ: قَوْلُهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾[9]، وَإِنْ كَانَ الْآثِمُ هُوَ الْجُمْلَةُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ، أَيْ: عَلَى كُلِّ ذِي قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ، تَجْعَلُ الصِّفَةَ لِصَاحِبِ الْقَلْبِ.

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

7 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

8 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

9 سورة الْبَقَرَة، الآية 283.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾[1]

قِيلَ: الصَّرْحُ: الْبِنَاءُ الظَّاهِرُ الَّذِي لَا يَخْفى عَلَى النَّاظِرِ وَإِنَّ بَعُدَ، اشْتَقُّوهُ مِنْ صَرْحِ الشَّيْءِ إِذَا ظَهَرَ، وَ﴿أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾[2] طُرُقُهَا وَأَبْوَابُهَا وَمَا يُؤَدِّي إِلَيْهَا، وَكُلُّ مَا أَدَّاكَ إِلَى شَيْءٍ فَهُوَ سَبَبٌ إِلَيْهِ، كَالرِّشَاءِ وَنَحْوِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا فَائِدَةُ هَذَا التَّكْرِيرِ، وَلَوْ قِيلَ: لَعَلِّي أَبْلُغُ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ لَأَجْزَأَ؟

قُلْتُ: إِذَا أَبْهَمَ الشَّيْءَ ثُمَّ أَوْضَحَ كَانَ تَفْخِيمًا لِشَأْنِهِ، فَلَمَّا أَرَادَ تَفْخِيمَ مَا أَمَلَ بُلُوغَهُ مِنْ أَسْبَابِ السَّمَاوَاتِ أَبْهَمَهَا ثُمَّ أَوْضَحَهَا، وَلِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ بُلُوغُهَا أَمْرًا عَجِيبًا أَرَادَ أَنْ يُورِدَهُ عَلَى نَفْسٍ مُتَشَوِّقَةٍ إِلَيْهِ، لِيُعْطِيَهُ السَّامِعُ حَقَّهُ مِنَ التَّعَجُّبِ، فَأَبْهَمَهُ لِيَشُوفَ إِلَيْهِ نَفْسُ هَامَانَ، ثُمَّ أَوْضَحَهُ. وَقُرِئَ: (فَأَطَّلِعَ) بِالنَّصْبِ عَلَى جَوَابِ التَّرَجِّي، تَشَبُّهًا لِلتَّرَجِّي بِالتَّمَنِّي.

وَمِثْلُ ذَلِكَ التَّزْيِينِ وَذَلِكَ الصَّدِّ ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾[3]، وَالْمُزَيِّنُ: إِمَّا الشَّيْطَانُ بِوَسْوَسَتِهِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾[4] أَوِ اللَّهُ –تَعَالَى– عَلَى وَجْهِ التَّسْبِيبِ، لِأَنَّهُ مَكَّنَ الشَّيْطَانَ وَأَمْهَلَهُ. وَمِثْلُهُ: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾[5].

وَقُرِئَ: (وَزُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ عَمَلِهِ) عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْفِعْلُ لِلَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ–، دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾[6] وَصَدَّ، بِفَتْحِ الصَّادِ وَضَمِّهَا وَكَسْرِهَا، عَلَى نَقْلِ حَرَكَةِ الْعَيْنِ إِلَى الْفَاءِ، كَمَا قِيلَ: قِيلَ. وَالتَّبَابُ: الْخُسْرَانُ وَالْهَلَاكُ. وَصَدٌّ: مَصْدَرٌ مَعْطُوفٌ عَلَى سُوءِ عَمَلِهِ وَصَدُّوا هُوَ وَقَوْمُهُ.

---

1 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

2 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

3 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

4 سورة النَّمْلُ، الآية 34.

5 سورة النَّمْلُ، الآية 44.

6 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾[1]

قَالَ: ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[2]، فَأَجْمَلَ لَهُمْ، ثُمَّ فَسَّرَ فَافْتُتِحَ بِذَمِّ الدُّنْيَا وَتَصْغِيرِ شَأْنِهَا، لِأَنَّ الْإِخْلَادَ إِلَيْهَا هُوَ أَصْلُ الشَّرِّ كُلِّهِ، وَمِنْهُ يَتَشَعَّبُ جَمِيعُ مَا يُؤَدِّي إِلَى سَخَطِ اللَّهِ وَيَجْلِبُ الشَّقَاوَةَ فِي الْعَاقِبَةِ.

وَثَنَّى بِتَعْظِيمِ الْآخِرَةِ وَالِاطِّلَاعِ عَلَى حَقِيقَتِهَا، وَأَنَّهَا هِيَ الْوَطَنُ وَالْمُسْتَقَرُّ. وَذِكْرُ الْأَعْمَالِ سَيِّئِهَا وَحَسَنِهَا وَعَاقِبَةِ كُلٍّ مِنْهُمَا، لِيُغَبِّطَ عَمَّا يَتْلَفُ وَيَنْشَطُ لِمَا يَزْلُفُ، ثُمَّ وَازَنَ بَيْنَ الدَّعْوَتَيْنِ: دَعْوَةٍ إِلَى دِينِ اللَّهِ الَّذِي ثَمَرَتُهُ النَّجَاةُ، وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى اتِّخَاذِ الْأَنْدَادِ الَّذِي عَاقِبَتُهُ النَّارُ، وَحَذَّرَ وَأَنْذَرَ، وَاجْتَهَدَ فِي ذَلِكَ وَاحْتَشَدَ، لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ اسْتَثْنَاهُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وَجَعَلَهُ حُجَّةً عَلَيْهِمْ وَعِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ، وَهُوَ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾[3].

وَفِي هَذَا أَيْضًا دَلِيلٌ بَيِّنٌ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ. وَالرَّشَادُ نَقِيضُ الْغَيِّ. وَفِيهِ تَعْرِيضٌ شَبِيهٌ بِالتَّصْرِيحِ أَنَّ مَا عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ هُوَ سَبِيلُ الْغَيِّ.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مَنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[4]

﴿فَلا يُجْزَى إِلّا مِثْلَهَا﴾[5]، لِأَنَّ الزِّيَادَةَ عَلَى مِقْدَارِ جَزَاءِ السَّيِّئَةِ قَبِيحَةٌ، لِأَنَّهَا ظُلْمٌ.

وَأَمَّا الزِّيَادَةُ عَلَى مِقْدَارِ جَزَاءِ الْحَسَنَةِ، فَحَسَنَةٌ، لِأَنَّهَا فَضْلٌ.

قُرِئَ: (يَدْخُلُونَ) وَيُدْخَلُونَ.

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1] وَاقِعٌ في مُقَابَلَةٍ إِلَّا مِثْلِهَا، يَعْنِي: أَنَّ جَزَاءَ السَّيِّئَةِ لَهَا حِسَابٌ وَتَقْدِيرٌ، لِئَلَّا يَزِيدَ عَلَى الِاسْتِحْقَاقِ، فَأَمَّا جَزَاءُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فَبِغَيْرِ تَقْدِيرٍ وَحِسَابٍ، بَلْ مَا شِئْتَ مِنَ الزِّيَادَةِ عَلَى الْحَقِّ وَالْكَثْرَةِ وَالسِّعَةِ.

﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾[2]

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ كَرَّرَ نِدَاءَ قَوْمِهِ؟ وَلِمَ جَاءَ بِالْوَاوِ في النِّدَاءِ الثَّالِثِ دُونَ الثَّانِي؟ قُلْتُ: أَمَّا تَكْرِيرُ النِّدَاءِ فَفِيهِ زِيَادَةُ تَنْبِيهٍ لَهُمْ وَإِيقَاظٍ عَنْ سَنَةِ الْغَفْلَةِ. وَفِيهِ: أَنَّهُمْ قَوْمُهُ وَعَشِيرَتُهُ وَهُمْ فِيمَا يُوبِقُهُمْ، وَهُوَ يَعْلَمُ وَجْهَ خَلَاصِهِمْ، وَنَصِيحَتُهُمْ عَلَيْهِ وَاجِبَةٌ، فَهُوَ يَتَحَزَّنُ لَهُمْ وَيَتَلَطَّفُ بِهِمْ، وَيَسْتَدْعِي بِذَلِكَ أَنْ لَا يَتَّهِمُوهُ، فَإِنَّ سُرُورَهُمْ سُرُورُهُ، وَغَمَّهُمْ غَمُّهُ، وَيَنْزِلُوا عَلَى تَنْصِيحِهِ لَهُمْ، كَمَا كَرَّرَ إِبْرَاهِيمُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– في نَصِيحَةِ أَبِيهِ: "يَا أَبَتِ".

وَأَمَّا الْمَجِيءُ بِالْوَاوِ الْعَاطِفَةِ، فَلِأَنَّ الثَّانِي دَاخِلٌ عَلَى كَلَامٍ، وَهُوَ بَيَانٌ لِلْمُجْمَلِ وَتَفْسِيرٌ لَهُ، فَأَعْطَى الدَّاخِلُ عَلَيْهِ حُكْمَهُ في امْتِنَاعِ دُخُولِ الْوَاوِ، وَأَمَّا الثَّالِثُ: فَدَاخِلٌ عَلَى كَلَامٍ لَيْسَ بِتِلْكَ الْمَثَابَةِ. يُقَالُ: دَعَاهُ إِلَى كَذَا وَدَعَاهُ لَهُ، كَمَا تَقُولُ: هَدَاهُ إِلَى الطَّرِيقِ وَهِدَاهُ لَهُ.

﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾[3]، أَيْ: بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَالْمُرَادُ بِنَفي الْعِلْمِ: نَفي الْمَعْلُومِ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَأُشْرِكُ بِهِ مَا لَيْسَ بِإِلَهٍ، وَمَا لَيْسَ بِإِلَهٍ كَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَعْلَمَ إِلَهًا.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[4]

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

﴿لَا جَرَمَ" سِيَاقُهُ عَلَى مَذْهَبِ الْبَصْرِيِّينَ: أَنْ يَجْعَلَ "لَا" رَدًّا لِمَا دَعَاهُ إِلَيْهِ قَوْمُهُ. وَجَرَمَ: فِعْلٌ بِمَعْنَى حُقَّ، وَأَنَّ مَعَ مَا فِي حَيِّزِهِ فَاعِلِهِ، أَيْ: حَقٌّ وَوَجَبَ بُطْلَانُ دَعْوَتِهِ، أَوْ بِمَعْنَى: كَسَبَ، مِنْ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾[1]، أَيْ: كَسَبَ ذَلِكَ الدُّعَاءُ إِلَيْهِ بُطْلَانَ دَعْوَتِهِ، عَلَى مَعْنَى أَنَّهُ مَا حَصَلَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا ظُهُورُ بُطْلَانِ دَعْوَتِهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: أَنَّ لَا جَرَمَ، نَظِيرُ: لَا بُدَّ، فِعْلٌ مِنَ الْجَرْمِ، وَهُوَ الْقَطْعُ، كَمَا أَنَّ بُدًّا فِعْلٌ مِنَ التَّبْدِيدِ وَهُوَ التَّفْرِيقُ، فَكَمَا أَنَّ مَعْنَى: لَا بُدَّ أَنَّكَ تَفْعَلُ كَذَا، بِمَعْنَى: لَا بُعْدَ لَكَ مِنْ فِعْلِهِ، فَكَذَلِكَ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ، أَيْ: لَا قَطْعَ لِذَلِكَ، بِمَعْنَى أَنَّهُمْ أَبَدًا يَسْتَحِقُّونَ النَّارَ لَا انْقِطَاعَ لِاسْتِحْقَاقِهِمْ وَلَا قَطْعَ، لِبُطْلَانِ دَعْوَةِ الْأَصْنَامِ، أَيْ: لَا تَزَالُ بَاطِلَةً لَا يَنْقَطِعُ ذَلِكَ فَيَنْقَلِبُ حَقًّا.

وَرُوِيَ عَنِ الْعَرَبِ: لَا جَرَمَ أَنَّهُ يَفْعَلُ بِضَمِّ الْجِيمِ وَسُكُونِ الرَّاءِ، بِزِنَةِ بُدٍّ، وَفَعَلَ وَفُعْلَ: أَخَوَانِ. كَرَشَدَ وَرُشْدَ، وَعَدَمَ وَعُدْمَ.

﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾[2]، مَعْنَاهُ: أَنَّ مَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ إِلَى نَفْسِهِ قَطُّ، أَيْ: مِنْ حَقِّ الْمَعْبُودِ بِالْحَقِّ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى طَاعَتِهِ، ثُمَّ يَدْعُو الْعِبَادَ إِلَيْهَا إِظْهَارًا لِدَعْوَةِ رَبِّهِمْ وَمَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ وَإِلَى عِبَادَتِهِ، لَا يَدْعُو هُوَ إِلَى ذَلِكَ وَلَا يَدَّعِي الرُّبُوبِيَّةَ، وَلَوْ كَانَ حَيَوَانًا نَاطِقًا لَضَجَّ مِنْ دُعَائِكُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ﴾[3]، يَعْنِي أَنَّهُ فِي الدُّنْيَا جَمَادٌ لَا يَسْتَطِيعُ شَيْئًا مِنْ دُعَاءِ غَيْرِهِ، وَفِي الْآخِرَةِ: إِذَا أَنْشَأَهُ اللَّهُ حَيَوَانًا، تَبَرَّأَ مِنَ الدُّعَاةِ إِلَيْهِ وَمِنْ عِبَادَتِهِ .

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ لَيْسَ لَهُ اسْتِجَابَةُ دَعْوَةٍ تَنْفَعُ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ. أَوْ دَعْوَةٍ مُسْتَجَابَةٍ، جَعَلَتِ الدَّعْوَةَ الَّتِي لَا اسْتِجَابَةَ لَهَا وَلَا مَنْفَعَةَ فِيهَا كَلَا دَعْوَةَ، أَوْ سُمِّيَتِ الِاسْتِجَابَةُ بِاسْمِ الدَّعْوَةِ، كَمَا سَمَّى الْفِعْلَ الْمُجَازِيَّ عَلَيْهِ بِاسْمِ الْجَزَاءِ فِي قَوْلِهِمْ: كَمَا تَدِينُ تُدَانُ. قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾[4].

---

[1] سورة الْمَائِدَةُ، الآية 22.

[2] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[3] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[4] سورة الرَّعْدُ، الآية 14.

﴿الْمُسْرِفِينَ﴾[1] عَنْ قَتَادَةَ: الْمُشْرِكِينَ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: السَّفَّاكِينَ لِلدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَلِّهَا.

وَقِيلَ: الَّذِينَ غَلَبَ شَرُّهُمْ خَيْرَهُمْ هُمُ الْمُسْرِفُونَ.

وَقُرِئَ: (فَسَتَذْكُرُونَ). أَيْ: فَسَيَذْكُرُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا.

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾[2]، لِأَنَّهُمْ تَوَعَّدُوهُ.

﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[3]

﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾[4] شَدَائِدَ مَكْرِهِمْ وَمَا هَمُّوا بِهِ مِنْ إِلْحَاقِ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ بِمَنْ خَالَفَهُمْ. وَقِيلَ: نَجَا مَعَ مُوسَى، ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ﴾[5] مَا هَمُّوا بِهِ مِنْ تَعْذِيبِ الْمُسْلِمِينَ، وَرَجَعَ عَلَيْهِمْ كَيْدُهُمْ.

﴿النَّارُ﴾[6] بَدَلٌ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ. أَوْ خَبَرٌ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، كَأَنَّ قَائِلًا قَالَ: مَا سِوَى الْعَذَابِ؟ فَقِيلَ: هُوَ النَّارُ. أَوْ مُبْتَدَأٌ خَبَرِهِ ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾[7].

وَفِي هَذَا الْوَجْهِ تَعْظِيمٌ لِلنَّارِ وَتَهْوِيلٌ مِنْ عَذَابِهَا، وَعَرْضِهِمْ عَلَيْهَا: إِحْرَاقُهُمْ بِهَا. يُقَالُ: عَرَضَ الْإِمَامُ الْأَسَارَى عَلَى السَّيْفِ إِذَا قَتَلَهُمْ بِهِ، وَقُرِئَ: (النَّارَ) بِالنَّصْبِ، وَهِيَ تُعَضِّدُ الْوَجْهَ الْأَخِيرَ. وَتَقْدِيرُهُ: يَدْخُلُونَ النَّارَ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا، وَيَجُوزُ أَنْ يَنْتَصِبَ عَلَى الِاخْتِصَاصِ.

﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[8] فِي هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ يُعَذَّبُونَ بِالنَّارِ، وَفِي مَا بَيْنَ ذَلِكَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِحَالِهِمْ، فَإِمَّا أَنْ يُعَذَّبُوا بِجِنْسٍ آخَرَ مِنَ الْعَذَابِ، أَوْ يُنَفَّسَ عَنْهُمْ.

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

7 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

8 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[1] عِبَارَةٌ عَنِ الدَّوَامِ، هَذَا مَا دَامَتِ الدُّنْيَا، فَإِذَا قَامَتِ السَّاعَةُ قِيلَ لَهُمْ: "ادْخُلُوا" يَا ﴿آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ﴾[2] عَذَابَ جَهَنَّمَ. وَقُرِئَ: (أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ) أَيْ: يُقَالُ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ: أَدْخِلُوهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾[3]، مَعْنَاهُ: أَنَّهُ رَجَعَ عَلَيْهِمْ مَا هَمُّوا بِهِ مِنَ الْمَكْرِ بِالْمُسْلِمِينَ، كَقَوْلِ الْعَرَبِ: مِنْ حَفَرٍ لِأَخِيهِ جُبًّا وَقَعَ فيهِ مُنْكَبًّا، فَإِذَا فَسَّرَ سُوءَ الْعَذَابِ بِنَارِ جَهَنَّمَ؛ لَمْ يَكُنْ مَكْرُهُمْ رَاجِعًا عَلَيْهِمْ، لِأَنَّهُمْ لَا يُعَذَّبُونَ بِجَهَنَّمَ.

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يَهِمَّ الْإِنْسَانُ بِأَنْ يُغْرِقَ قَوْمًا فيحْرَقُ بِالنَّارِ، وَيُسَمَّى ذَلِكَ حَيْقًا، لِأَنَّهُ هَمَّ بِسُوءٍ فَأَصَابَهُ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ السُّوءِ. وَلَا يُشْتَرَطُ في الْحَيْقِ أَنْ يَكُونَ الْحَائِقُ ذَلِكَ السُّوءَ بِعَيْنِهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَهِمَّ فِرْعَوْنُ –لَمَّا سَمِعَ إِنْذَارَ الْمُسْلِمِينَ بِالنَّارِ، وَقَوْلُ الْمُؤْمِنِ: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾[4]، فيفْعَلُ نَحْوَ مَا فَعَلَ نَمْرُودُ وَيُعَذِّبُهُمْ بِالنَّارِ، فَحَاقَ بِهِ مِثْلَ مَا أَضْمَرَهُ بِفِعْلِهِ. وَيُسْتَدَلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى إِثْبَاتِ عَذَابِ الْقَبْرِ.

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾[5]

وَاذْكُرْ وَقْتَ يَتَحَاجُّونَ "تَبَعًا" تِبَاعًا، كَخَدَمٍ في جَمْعِ خَادِمٍ، أَوْ ذَوِي تَبَعٍ، أَيْ: أَتْبَاعٍ، أَوْ وَصْفًا بِالْمَصْدَرِ.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾[6]

---

[1] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[2] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[3] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[4] سورة غَافِرُ، الآية 43.

[5] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[6] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

وَقُرِئَ: (كُلًّا) عَلَى التَّأْكِيدِ لِاسْمِ إِنَّ، وَهُوَ مَعْرِفَةٌ، وَالتَّنْوِينُ عِوَضٌ مِنَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، يُرِيدُ: إِنَّا كُلَّنَا، أَوْ كُلُّنَا فيها.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ "كُلًّا" حَالًا قَدْ عَمِلَ ﴿فيها﴾[1] فيها؟

قُلْتُ: لَا لِأَنَّ الظَّرْفَ لَا يَعْمَلُ فِي الْحَالِ مُتَقَدِّمَةً كَمَا يَعْمَلُ فِي الظَّرْفِ مُتَقَدِّمًا تَقُولُ: كُلُّ يَوْمٍ لَكَ ثَوْبٌ، وَلَا تَقُولُ: قَائِمًا فِي الدَّارِ زَيْدٌ.

﴿قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾[2] قَضَى بَيْنَهُمْ وَفَصَلَ بِأَنْ أُدْخِلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾[3]

﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾[4] لِلْقُوَّامِ بِتَعْذِيبِ أَهْلِهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ: الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِهَا؟

قُلْتُ: لِأَنَّ فِي ذِكْرِ جَهَنَّمَ تَهْوِيلًا وَتَفْظِيعًا، وَيُحْتَمَلُ أَنَّ جَهَنَّمَ هِيَ أَبْعَدُ النَّارِ قَعْرًا، مِنْ قَوْلِهِمْ: بِئْرٌ جِهْنَامَ بَعِيدَةُ الْقَعْرِ، وَقَوْلُهُمْ فِي النَّابِغَةِ: جِهْنَامُ، تَسْمِيَةٌ بِهَا، لِزَعْمِهِمْ أَنَّهُ يُلْقِي الشِّعْرَ عَلَى لِسَانِ الْمُنْتَسِبِ إِلَيْهِ، فَهُوَ بَعِيدُ الْغَوْرِ فِي عِلْمِهِ بِالشِّعْرِ، كَمَا قَالَ أَبُو نُوَاسٍ فِي خَلَفٍ الْأَحْمَرِ:

قُلَيْذَمٌ مِنَ الْعَيَالِيمِ الْخُسُـــــفْ

وَفِيهَا أَعْتَى الْكُفَّارِ وَأَطْغَاهُمْ، فَلَعَلَّ الْمَلَائِكَةَ الْمُوَكَّلِينَ بِعَذَابِ أُولَئِكَ أَجْوَبُ دَعْوَةً لِزِيَادَةِ قُرْبِهِمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَلِهَذَا تَعَمَّدَهُمْ أَهْلُ النَّارِ بِطَلَبِ الدَّعْوَةِ مِنْهُمْ.

---

1 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

2 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

3 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

4 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

﴿أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ﴾[1] إِلْزَامٌ لِلْحُجَّةِ وَتَوْبِيخٌ، وَأَنَّهُمْ خَلَّفُوا وَرَاءَهُمْ أَوْقَاتَ الدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ، وَعَطَّلُوا الْأَسْبَابَ الَّتِي يَسْتَجِيبُ اللَّهُ لَهَا الدَّعَوَاتِ.

﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾[2] أَنْتُمْ، فَإِنَّا لَا نَجْتَرِئُ عَلَى ذَلِكَ وَلَا نَشْفَعُ إِلَّا بِشَرْطَيْنِ: كَوْنُ الْمَشْفُوعِ لَهُ غَيْرَ ظَالِمٍ، وَالْإِذْنُ فِي الشَّفَاعَةِ مَعَ مُرَاعَاةِ وَقْتِهَا، وَذَلِكَ قَبْلَ الْحُكْمِ الْفَاصِلِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَلَيْسَ قَوْلُهُمْ "فَادْعُواْ" لِرَجَاءِ الْمَنْفَعَةِ، وَلَكِنْ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْخَيْبَةِ، فَإِنَّ الْمَلِكَ الْمُقَرَّبَ إِذَا لَمْ يُسْمَعْ دُعَاؤُهُ، فَكَيْفَ يُسْمَعُ دُعَاءُ الْكَافِرِ.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[3]

﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾[4]، أَيْ: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، يَعْنِي: أَنَّهُ يَغْلِبُهُمْ فِي الدَّارَيْنِ جَمِيعًا بِالْحُجَّةِ وَالظَّفَرِ عَلَى مُخَالِفِيهِمْ، وَإِنْ غَلَبُوا فِي الدُّنْيَا فِي بَعْضِ الْأَحَايِينِ امْتِحَانًا مِنَ اللَّهِ، فَالْعَاقِبَةُ لَهُمْ، وَيُتِيحُ اللَّهُ مَنْ يَقْتَصُّ مِنْ أَعْدَائِهِمْ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ.

وَالْأَشْهَادُ: جَمْعُ شَاهِدٍ، كَصَاحِبٍ وَأَصْحَابٍ، يُرِيدُ: الْحَفَظَةَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[5].

وَالْيَوْمُ الثَّانِي بَدَلٌ مِنَ الْأَوَّلِ، يُحْتَمَلُ أَنَّهُمْ يَعْتَذِرُونَ بِمَعْذِرَةٍ وَلَكِنَّهَا لَا تَنْفَعُ لِأَنَّهَا بَاطِلَةٌ، وَأَنَّهُمْ لَوْ جَاءُوا بِمَعْذِرَةٍ لَمْ تَكُنْ مَقْبُولَةً لِقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[6]، ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾[7] الْبُعْدُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ.

﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[8]، أَيْ: سُوءُ دَارِ الْآخِرَةِ، وَهُوَ عَذَابُهَا.

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
5 سورة الْبَقَرَة، الآية 143.
6 سورة الْمُرْسَلَات، الآية 36.
7 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
8 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

وَقُرِئَ: (تَقُومُ)، وَ(لَا تَنْفَعُ)، بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ هُدًى وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ﴾[1]

يُرِيدُ بِالْهُدَى: جَمِيعُ مَا آتَاهُ فِي بَابِ الدِّينِ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ وَالتَّوْرَاةِ وَالشَّرَائِعِ. "وَأَوْرَثْنَا" وَتَرَكْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ "الْكِتَابِ" أَيِ: التَّوْرَاةُ.

﴿هُدًى وَذِكْرَى﴾[2] إِرْشَادًا وَتَذْكِرَةً، وَانْتِصَابُهُمَا عَلَى الْمَفْعُولِ لَهُ أَوْ عَلَى الْحَالِ.

وَأُولُو الْأَلْبَابِ: الْمُؤْمِنُونَ بِهِ الْعَامِلُونَ بِمَا فِيهِ.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾[3]

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾[4]، يَعْنِي أَنَّ نُصْرَةَ الرُّسُلِ فِي ضَمَانِ اللَّهِ، وَضَمَانِ اللَّهِ لَا يُخْلَفُ، وَاسْتَشْهَدَ بِمُوسَى وَمَا آتَاهُ مِنْ أَسْبَابِ الْهُدَى وَالنُّصْرَةِ عَلَى فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ، وَإِبْقَاءِ آثَارِ هُدَاهُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَاللَّهُ نَاصِرُكَ كَمَا نَصَرَهُمْ، وَمُظْهِرُكَ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَمَبْلَغُ مُلْكِ أُمَّتِكَ مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا، فَاصْبِرْ عَلَى مَا يُجَرِّعُكَ قَوْمُكَ مِنَ الْغَصَصِ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لَكَ، وَمَا سَبَقَ بِهِ وَعْدِيَ مِنْ نُصْرَتِكَ وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِكَ حَقٌّ، وَأَقْبَلَ عَلَى التَّقْوَى وَاسْتَدْرَكَ الْفُرُطَاتِ بِالِاسْتِغْفَارِ، وَدُمْ عَلَى عِبَادَةِ رَبِّكَ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ﴿ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾[5]، وَقِيلَ: هُمَا صَلَاتَا الْعَصْرِ وَالْفَجْرِ.

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

3 سورة الْمُؤْمِن ، الآية .

4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1]

﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلا كِبْرٌ﴾[2] إِلَّا تَكَبُّرٌ وَتَعَظُّمٌ، وَهُوَ إِرَادَةُ التَّقَدُّمِ وَالرِّيَاسَةِ، وَأَنْ لَا يَكُونُ أَحَدٌ فَوْقَهُمْ، وَلِذَلِكَ عَادُوكَ وَدَفَعُوا آيَاتِكَ خِيفَةَ أَنْ تَتَقَدَّمَهُمْ وَيَكُونُوا تَحْتَ يَدِكَ وَأَمْرِكَ وَنَهْيِكَ، لِأَنَّ النُّبُوَّةَ تَحْتَهَا كُلُّ مَلِكٍ وَرِيَاسَةٍ، أَوْ إِرَادَةِ أَنْ تَكُونَ لَهُمُ النُّبُوَّةُ دُونَكَ حَسَدًا وَبَغْيًا.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾[3] أَوْ إِرَادَةُ دَفْعِ الْآيَاتِ بِالْجِدَالِ، ﴿مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾[4]، أَيْ: بِبَالِغِي مُوجِبَ الْكِبَرِ وَمُقْتَضِيهِ، وَهُوَ مُتَعَلِّقُ إِرَادَتِهِمْ مِنَ الرِّيَاسَةِ أَوِ النُّبُوَّةِ أَوْ دَفْعِ الْآيَاتِ.

وَقِيلَ: الْمُجَادِلُونَ هُمُ الْيَهُودُ، وَكَانُوا يَقُولُونَ: يَخْرُجُ صَاحِبُنَا الْمَسِيحُ بْنُ دَاوُدَ، يُرِيدُونَ الدَّجَّالَ، وَيَبْلُغُ سُلْطَانُهُ الْبَرَّ وَالْبَحْرَ، وَتَسِيرُ مَعَهُ الْأَنْهَارُ، وَهُوَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، فَيَرْجِعُ إِلَيْنَا الْمُلْكُ، فَسَمَّى اللَّهُ تَمَنِّيَهُمْ ذَلِكَ كِبْرًا، وَنَفَى أَنْ يَبْلُغُوا مُتَمَنَّاهُمْ.

﴿أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ﴾[5]، فَالْتَجَأَ إِلَيْهِ مِنْ كَيْدِ مَنْ يَحْسُدُكَ وَيَبْغِي عَلَيْكَ.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾[6] لِمَا تَقُولُ، وَيَقُولُونَ: ﴿الْبَصِيرُ﴾[7] بِمَا تَعْمَلُ وَيَعْمَلُونَ، فَهُوَ نَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ وَعَاصِمُكَ مِنْ شَرِّهِمْ.

﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[8]

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

3 سورة الْأَحْقَاف، الآية 11.

4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

7 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

8 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ اتَّصَلَ قَوْلُهُ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1] بِمَا قَبْلَهُ؟

قُلْتُ: إِنَّ مُجَادَلَتَهُمْ في آيَاتِ اللَّهِ كَانَتْ مُشْتَمِلَةً عَلَى إِنْكَارِ الْبَعْثِ، وَهُوَ أَصْلُ الْمُجَادَلَةِ وَمَدَارُهَا، فَحَجُّوا بِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُقِرِّينَ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُهَا وَبِأَنَّهَا خُلُقٌ عَظِيمٌ لَا يُقَادِرُ قَدْرَهُ، وَخَلْقُ النَّاسِ بِالْقِيَاسِ إِلَيْهِ شَيْءٌ قَلِيلٌ مُهِينٌ، فَمَنْ قَدَرَ عَلَى خَلْقِهَا مَعَ عِظَمِهَا كَانَ عَلَى خَلْقِ الْإِنْسَانِ مَعَ مَهَانَتِهِ أَقْدَرُ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنَ الِاسْتِشْهَادِ بِخَلْقِ مِثْلِهِ، ﴿لا يَعْلَمُونَ﴾[2]، لِأَنَّهُمْ لَا يَنْظُرُونَ وَلَا يَتَأَمَّلُونَ لِغَلَبَةِ الْغَفْلَةِ عَلَيْهِمْ وَاتِّبَاعِهِمْ أَهْوَاءَهُمْ.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[3]

ضَرَبَ الْأَعْمَى وَالْبَصِيرَ مَثَلًا لِلْمُحْسِنِ وَالْمُسِيءِ.

وَقُرِئَ: (يَتَذَكَّرُونَ) بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ، وَالتَّاءُ أَعَمُّ.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾[4]

﴿[5]لا رَيْبَ فِيهَا﴾[6] لَا بُدَّ مِنْ مَجِيئِهَا وَلَا مَحَالَةَ، وَلَيْسَ بِمُرْتَابٍ فيها، لِأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ جَزَاءٍ.

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

﴿لا يُؤْمِنُونَ﴾[1] لَا يُصَدِّقُونَ بِهَا.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[2]

﴿ادْعُونِي﴾[3]: اعْبُدُونِي، وَالدُّعَاءُ بِمَعْنَى الْعِبَادَةِ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾[4]، وَالِاسْتِجَابَةُ: الْإِثَابَةُ، وَفِي تَفْسِيرِ مُجَاهِدٍ: اعْبُدُونِي أُثِبْكُمْ.

وَعَنِ الْحَسَنِ –وَقَدْ سُئِلَ عَنْهَا–: اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّهُ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْتَجِيبَ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ.

وَعَنِ الثَّوْرِيِّ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: ادْعُ اللَّهَ، فَقَالَ: إِنَّ تَرْكَ الذُّنُوبِ هُوَ الدُّعَاءُ.

وَفِي الْحَدِيثِ: "إِذَا شَغَلَ عَبْدِي طَاعَتِي عَنِ الدُّعَاءِ، أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ".

وَرَوَى النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ"، وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ الدُّعَاءَ وَالِاسْتِجَابَةَ عَلَى ظَاهِرِهِمَا، وَيُرِيدُ بِعِبَادَتِي: دُعَائِي، لِأَنَّ الدُّعَاءَ بَابٌ مِنَ الْعِبَادَةِ وَمِنْ أَفْضَلِ أَبْوَابِهَا، يُصَدِّقُهُ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ الدُّعَاءُ.

وَعَنْ كَعْبٍ: أَعْطَى اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ ثَلَاثَ خِلَالٍ لَمْ يُعْطَهُنَّ إِلَّا نَبِيًّا مُرْسَلًا كَانَ يَقُولُ لِكُلِّ نَبِيٍّ: أَنْتَ شَاهِدِي عَلَى خَلْقِي، وَقَالَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[5]، وَكَانَ

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

5 سورة الْبَقَرَة، الآية **143**.

يَقُولُ: مَا عَلَيْكَ مِنْ حَرَجٍ، وَقَالَ لَنَا: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾[1]، وَكَانَ يَقُولُ: أُدْعُنِي أَسْتَجِبْ لَكَ، وَقَالَ لَنَا: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[2].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَحِّدُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، وَهَذَا تَفْسِيرٌ لِلدُّعَاءِ بِالْعِبَادَةِ، ثُمَّ لِلْعِبَادَةِ بِالتَّوْحِيدِ.

﴿دَاخِرِينَ﴾[3]: صَاغِرِينَ.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[4]

﴿مُبْصِرًا﴾[5] مِنَ الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ، لِأَنَّ الْإِبْصَارَ فِي الْحَقِيقَةِ لِأَهْلِ النَّهَارِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قُرِنَ اللَّيْلُ بِالْمَفْعُولِ لَهُ، وَالنَّهَارُ بِالْحَالِ؟ وَهَلَّا كَانَا حَالَيْنِ أَوْ مَفْعُولًا لَهُمَا فيرَاعِي حَقَّ الْمُقَابَلَةِ؟

قُلْتُ: هُمَا مُتَقَابِلَانِ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى، لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يُؤَدِّي مُؤَدَّى الْآخَرِ، لِأَنَّهُ لَوْ قِيلَ: لِتُبْصِرُوا فيهِ، فَاتَتِ الْفَصَاحَةُ الَّتِي فِي الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ، وَلَوْ قِيلَ: سَاكِنًا –وَاللَّيْلُ يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ بِالسُّكُونِ عَلَى الْحَقِيقَةِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِمْ: لَيْلٌ سَاجٍ، وَسَاكِنٌ لَا رِيحَ فيهِ– لَمْ تَتَمَيَّزِ الْحَقِيقَةُ مِنَ الْمَجَازِ؟

فَإِنْ قُلْتَ: فَهَلَّا قِيلَ: لِمُفَضَّلٍ، أَوْ لِمُتَفَضِّلٍ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ الْغَرَضَ تَنْكِيرُ الْفَضْلِ، وَأَنْ يَجْعَلَ فَضْلًا لَا يُوَازِيهِ فَضْلٌ، وَذَلِكَ إِنَّمَا يَسْتَوِي بِالْإِضَافَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَلَوْ قِيلَ: وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ، فَلَا يَتَكَرَّرُ ذِكْرُ النَّاسِ؟

قُلْتُ: فِي هَذَا التَّكْرِيرِ تَخْصِيصٌ لِكُفْرَانِ النِّعْمَةِ بِهِمْ، وَأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ فَضْلَ اللَّهِ وَلَا يَشْكُرُونَهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾[6]، ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾[7]، ﴿إِنَّ

---

1 سورة الْمَائِدَةُ، الآية 6.

2 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

3 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

4 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

5 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

6 سورة الزُّخْرُفُ، الآية 15.

الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[1].

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[2]

﴿ذَلِكُمُ﴾[3] الْمَعْلُومُ الْمُتَمَيِّزُ بِالْأَفْعَالِ الْخَاصَّةِ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فيها أَحَدٌ هُوَ ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلّا هُوَ﴾[4] أَخْبَارٌ مُتَرَادِفَةٌ، أَيْ: هُوَ الْجَامِعُ لِهَذِهِ الْأَوْصَافِ مِنَ الْإِلَاهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ وَخَلْقِ كُلِّ شَيْءٍ، وَإِنْشَائِهِ لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَالْوَحْدَانِيَّةُ: لَا ثَانِيَ لَهُ.

﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[5]: فَكَيْفَ وَمِنْ أَيِّ وَجْهٍ تُصْرَفُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ.

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ كُلَّ مَنْ جَحَدَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَلَمْ يَتَأَمَّلْهَا، وَلَمْ يَكُنْ فيهِ هِمَّةُ طَلَبِ الْحَقِّ وَخَشْيَةُ الْعَاقِبَةِ أَفِكَ كَمَا أَفِكُوا.

وَقُرِئَ: (خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) نَصْبًا عَلَى الِاخْتِصَاصِ.

وَتُؤْفَكُونَ: بِالتَّاء وَالْيَاءِ.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[6]

سورة الْحَجُّ، الآية 66.

[7] سورة الْعَادِيَّاتُ، الآية 6.

[1] سورة إِبْرَاهِيمُ، الآية 34.

[2] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[3] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[4] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[5] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[6] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

هَذِهِ أَيْضًا دَلَالَةٌ أُخْرَى عَلَى تَمْيِيزِهِ بِأَفْعَالٍ خَاصَّةٍ، وَهِيَ أَنَّهُ جَعَلَ الْأَرْضَ مُسْتَقَرًّا ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾[1] ، أَيْ: قُبَّةً. وَمِنْهُ: أَبْنِيَةُ الْعَرَبِ لِمَضَارِبِهِمْ، لِأَنَّ السَّمَاءَ فِي مَنْظَرِ الْعَيْنِ كَقُبَّةٍ مَضْرُوبَةٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[2].

وَقُرِئَ: بِكَسْرِ الصَّادِ، وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ.

قِيلَ: لَمْ يَخْلُقْ حَيَوَانًا أَحْسَنَ صُورَةً مِنَ الْإِنْسَانِ.

وَقِيلَ: لَمْ يَخْلُقْهُمْ مَنْكُوسِينَ كَالْبَهَائِمِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[3]]التِّينُ: 44].

"فَادْعُوهُ" فَاعْبُدُوهُ ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[4]، أَيِ: الطَّاعَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَالرِّيَاءِ، قَائِلِينَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[5].]الْفَاتِحَةُ: 2]

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَلْيَقُلْ عَلَى أَثَرِهَا: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[6]

فَإِنْ قُلْتَ: أَمَا نَهَى رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ بِأَدِلَّةِ الْعَقْلِ حَتَّى جَاءَتْهُ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّهِ؟

قُلْتُ: بَلَى، وَلَكِنَّ الْبَيِّنَاتِ لَمَّا كَانَتْ مُقَوِّيَةً لِأَدِلَّةِ الْعَقْلِ وَمُؤَكِّدَةً لَهَا وَمُضَمِّنَةً ذِكْرَهَا، نَحْوَ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[7]،]الصَّافَّاتُ: 95– 966 [وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ مِنَ التَّنْبِيهِ عَلَى أَدِلَّةِ الْعَقْلِ كَانَ ذِكْرُ

---

1 سورة الْبَقَرَة، الآية 2.

2 سورة التَّغَابُن، الآية 3.

3 سورة ، الآية .

4 سورة ، الآية .

5 سورة ، الآية .

6 سورة ، الآية .

7 سورة ، الآية .

الْبَيِّنَاتِ ذِكْرًا لِأَدِلَّةِ الْعَقْلِ وَالسَّمْعِ جَمِيعًا، وَإِنَّمَا ذَكَرَ مَا يَدُلُّ عَلَى الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا، لِأَنَّ ذِكْرَ تَنَاصُرِ الْأَدِلَّةِ الْعَقْلِ وَأَدِلَّةِ السَّمْعِ أَقْوَى في إِبْطَالِ مَذْهَبِهِمْ وَإِنْ كَانَتْ أَدِلَّةُ الْعَقْلِ وَحْدَهَا كَافِيةً.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مِنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1]

﴿لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾[2] مُتَعَلِّقٌ بِفِعْلٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: ثُمَّ يُبْقِيكُمْ لِتَبْلُغُوا. وَكَذَلِكَ لِتَكُونُوا.

وَأَمَّا ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلا مُسَمًّى﴾[3]، فَمَعْنَاهُ: وَنَفْعَلُ ذَلِكَ لِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى، وَهُوَ وَقْتُ الْمَوْتِ.

وَقِيلَ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ. وَقُرِئَ: (شِيُوخًا) بِكَسْرِ الشِّينِ. وَشَيْخًا، عَلَى التَّوْحِيدِ، كَقَوْلِهِ: ﴿طِفْلًا﴾[4]، [الْحَجُّ: 5] وَالْمَعْنَى: كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ. أَوِ اقْتَصَرَ عَلَى الْوَاحِدِ، لِأَنَّ الْغَرَضَ بَيَانُ الْجِنْسِ.

﴿مِنْ قَبْلُ﴾[5] مِنْ قَبْلِ الشَّيْخُوخَةِ أَوْ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ إِذَا خَرَجَ سَقْطًا.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[6] مَا في ذَلِكَ في الْعِبَرِ وَالْحُجَجِ.

﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[7]

---

1 سورة ، الآية .
2 سورة ، الآية .
3 سورة ، الآية .
4 سورة ، الآية .
5 سورة ، الآية .
6 سورة ، الآية .
7 سورة ، الآية .

﴿فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا﴾[1] يُكَوِّنُهُ مِنْ غَيْرِ كُلْفَةٍ وَلَا مُعَانَاةَ.

جَعَلَ هَذَا نَتِيجَةً مِنْ قُدْرَتِهِ عَلَى الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ، وَسَائِرِ مَا ذَكَرَ مِنْ أَفْعَالِهِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ مَقْدُورًا لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ، كَأَنَّهُ قَالَ: فَلِذَلِكَ مِنَ الِاقْتِدَارِ إِذَا قَضَى أَمْرًا كَانَ أَهْوَنَ شَيْءٍ وَأَسْرَعَهُ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾[2]

﴿بِالْكِتَابِ﴾[3] بِالْقُرْآنِ ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾[4] مِنَ الْكُتُبِ.

فَإِنْ قُلْتَ: وَهَلْ قَوْلُهُ: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾[5] إِلَى مِثْلِ قَوْلِكَ: سَوْفَ أَصُومُ أَمْسُ؟

قُلْتُ: الْمَعْنَى عَلَى إِذَا: إِلَّا أَنَّ الْأُمُورَ الْمُسْتَقْبَلَةَ لَمَّا كَانَتْ فِي أَخْبَارِ اللَّهِ تَعَالَى مُتَيَقَّنَةً مَقْطُوعًا بِهَا: عَبَّرَ عَنْهَا بِلَفْظِ مَا كَانَ وَوُجِدَ، وَالْمَعْنَى عَلَى الِاسْتِقْبَالِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ بِالنَّصْبِ وَفَتْحِ الْيَاءِ عَلَى عَطْفِ الْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ عَلَى الِاسْمِيَّةِ. وَعَنْهُ: وَالسَّلَاسِلُ يَسْحَبُونَ بِحَرِّ السَّلَاسِلِ.

وَوَجْهُهُ أَنَّهُ لَوْ قِيلَ: إِذَا أَعْنَاقُهُمْ فِي الْأَغْلَالِ مَكَانُ قَوْلِهِ: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾[6]، لَكَانَ صَحِيحًا مُسْتَقِيمًا.

---

1 سورة ، الآية .

2 سورة ، الآية .

3 سورة ، الآية .

4 سورة ، الآية .

5 سورة ، الآية .

6 سورة ، الآية .

فَلَمَّا كَانَتَا عِبَارَتَيْنِ مُعْتَقِبَتَيْنِ: حَمَلَ قَوْلَهُ: ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾[1] عَلَى الْعِبَارَةِ الْأُخْرَى.

وَنَظِيرُهُ:

مَشَائِيمُ لَيْسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً وَلا نَاعِبٍ إِلَّا بِبَيْنٍ غُرَابِهَا

كَأَنَّهُ قِيلَ: بِمُصْلِحِينَ.

وَقُرِئَ: (وَبِالسَّلَاسِلِ يُسْحَبُونَ) ﴿فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾[2] مِنْ سَجْرِ التَّنُّورِ إِذَا مَلَأَهُ بِالْوَقُودِ. وَمِنْهُ: السَّجِيرُ، كَأَنَّهُ سَجَّرَ بِالْحُبِّ، أَيْ: مَلِيءٌ.

وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُمْ فِي النَّارِ فَهِيَ مُحِيطَةٌ بِهِمْ، وَهُمْ مَسْجُورُونَ بِالنَّارِ مَمْلُوءَةٌ بِهَا أَجْوَافُهُمْ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾[3].]الْهُمَزَةُ: 6– 7]

اللَّهُمَّ أَجِرْنَا مِنْ نَارِكَ فَإِنَّا عَائِذُونَ بِجِوَارِكَ.

﴿ ضَلُّوا عَنَّا﴾[4]: غَابُوا عَنْ عُيُونِنَا، فَلَا نَرَاهُمْ وَلَا نَنْتَفِعُ بِهِمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَمَا ذَكَرْتَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[5]]الْأَنْبِيَاءُ: 988]: أَنَّهُمْ مَقْرُونُونَ بِآلِهَتِهِمْ، فَكَيْفَ يَكُونُونَ مَعَهُمْ وَقَدْ ضَلُّوا عَنْهُمْ؟

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يَضِلُّوا عَنْهُمْ إِذَا وُبِّخُوا وَقِيلَ لَهُمْ: أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فيغِيثُوكُمْ وَيَشْفَعُوا لَكُمْ، وَأَنْ يَكُونُوا مَعَهُمْ فِي سَائِرِ الْأَوْقَاتِ، وَأَنْ يَكُونُوا مَعَهُمْ فِي جَمِيعِ أَوْقَاتِهِمْ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمَّا لَمْ يَنْفَعُوهُمْ فَكَأَنَّهُمْ ضَالُّونَ عَنْهُمْ.

﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾[6]، أَيْ: تَبَيَّنَ لَنَا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا شَيْئًا، وَمَا كَانَ نَعْبُدُ بِعِبَادَتِهِمْ شَيْئًا كَمَا تَقُولُ: حَسِبْتَ أَنَّ فُلَانًا شَيْءٍ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ بِشَيْءٍ إِذَا خَبَّرْتَهُ فَلَمْ تَرَ عِنْدَهُ خَيْرًا.

---

1 سورة ، الآية .

2 سورة ، الآية .

3 سورة ، الآية .

4 سورة ، الآية .

5 سورة ، الآية .

6 سورة ، الآية .

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾[1] مِثْلُ ضَلَالِ آلِهَتِهِمْ عَنْهُمْ يُضِلُّهُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ، حَتَّى لَوْ طَلَبُوا الْآلِهَةَ أَوْ طَلَبَتْهُمُ الْآلِهَةُ لَمْ يَتَصَادَفُوا.

"ذَلِكُمْ" الْإِضْلَالُ بِسَبَبِ مَا كَانَ لَكُمْ مِنَ الْفَرَحِ وَالْمَرَحِ

﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[2]، وَهُوَ الشِّرْكُ وَعِبَادَةُ الْأَوْثَانِ.

﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾[3] السَّبْعَةُ الْمَقْسُومَةُ لَكُمْ. قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾[4]]الْحِجْرُ: 44].

﴿خَالِدِينَ﴾[5]: مُقَدِّرِينَ لِخُلُودِ، ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾[6] عَنِ الْحَقِّ الْمُسْتَخِفِينَ بِهِ مَثْوَاكُمْ أَوْ جَهَنَّمُ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَلَيْسَ قِيَاسُ النَّظْمِ أَنْ يُقَالَ: فَبِئْسَ مَدْخَلُ الْمُتَكَبِّرِينَ، كَمَا تَقُولُ: زُرْ بَيْتَ اللَّهِ فَنِعْمَ الْمَزَارِ، وَصَلِّ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَنِعْمَ الْمُصَلَّى؟

قُلْتُ: الدُّخُولُ الْمُؤَقَّتُ بِالْخُلُودِ فِي مَعْنَى الثَّوَاءِ.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾[7]

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾[8] أَصْلُهُ: فَإِنْ نَرَكَ.

وَ"مَا" مَزِيدَةٌ لِتَأْكِيدِ مَعْنَى الشَّرْطِ، وَلِذَلِكَ أُلْحِقَتِ النُّونُ بِالْفِعْلِ.

أَلَا تَرَاكَ لَا تَقُولُ: إِنْ تُكْرِمْنِي أُكْرِمْكَ، وَلَكِنْ: إِمَّا تُكْرِمْنِي أُكْرِمْكَ.

---

1 سورة ، الآية .

2 سورة ، الآية .

3 سورة ، الآية .

4 سورة ، الآية .

5 سورة ، الآية .

6 سورة ، الآية .

7 سورة ، الآية .

8 سورة ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ تَعْطِفَ ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾[1] عَلَى ﴿نُرِيَنَّكَ﴾[2] وَتُشْرِكُهُمَا فِي جَزَاءٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾[3]؛ فَقَوْلُكَ: فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ: غَيْرُ صَحِيحٍ؛ وَإِنْ جَعَلْتَ: ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾[4] مُخْتَصًّا بِالْمَعْطُوفِ الَّذِي هُوَ نَتَوَفَّيَنَّكَ، بَقِيَ الْمَعْطُوفُ عَلَيْهِ بِغَيْرِ جَزَاءٍ.

قُلْتُ: ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾[5] مُتَعَلِّقٌ بِنَتَوَفَّيَنَّكَ، وَجَزَاءُ ﴿نُرِيَنَّكَ﴾[6] مَحْذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَهُوَ الْقَتْلُ وَالْأَسْرُ يَوْمَ بَدْرٍ فَذَاكَ، أَوْ أَنْ نَتَوَفَّيَنَّكَ قَبْلَ يَوْمِ بَدْرٍ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَنَنْتَقِمُ مِنْهُمْ أَشَدَّ الِانْتِقَامِ. وَنَحْوَهُ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾[7]]الزُّخْرُفُ: 41- 42 .[

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾[8]

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[9]، قِيلَ: بَعَثَ اللَّهُ ثَمَانِيَةَ آلَافِ نَبِيٍّ: أَرْبَعَةُ آلَافٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَرْبَعَةُ آلَافٍ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ.

وَعَنْ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: أَنَّ اللَّهَ -تَعَالَى- بَعَثَ نَبِيًّا أَسْوَدَ، فَهُوَ مِمَّنْ لَمْ يَقْصُصْ عَلَيْهِ.

---

1 سورة ، الآية .
2 سورة ، الآية .
3 سورة ، الآية .
4 سورة ، الآية .
5 سورة ، الآية .
6 سورة ، الآية .
7 سورة ، الآية .
8 سورة ، الآية .
9 سورة ، الآية .

وَهَذَا فِي اقْتِرَاحِهِمُ الْآيَاتِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عِنَادًا، يَعْنِي: إِنَّا قَدْ أَرْسَلْنَا كَثِيرًا مِنَ الرُّسُلِ، وَمَا كَانَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ ﴿أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[1]؛ فَمَنْ لِي بِأَنْ آتِيَ بِآيَةٍ مِمَّا تَقْتَرِحُونَهُ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَيَأْذَنَ فِي الْإِتْيَانِ بِهَا.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾[2]: وَعِيدٌ وَرَدٌّ عُقَيْبَ اقْتِرَاحِ الْآيَاتِ.

وَأَمْرُ اللَّهِ: الْقِيَامَةُ.

﴿الْمُبْطِلُونَ﴾[3] هُمُ الْمُعَانِدُونَ الَّذِينَ اقْتَرَحُوا الْآيَاتِ، وَقَدِ أَتَتْهُمُ الْآيَاتُ، فَأَنْكَرُوهَا وَسَمُّوهَا سِحْرًا.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾[4]

الْأَنْعَامُ: الْإِبِلُ خَاصَّةً.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قَالَ: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾[5] وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا، وَلَمْ يَقُلْ: لِتَأْكُلُوا مِنْهَا، وَلِتَصِلُوا إِلَى مَنَافِعَ؟ أَوْ هَلَّا قَالَ: مِنْهَا تَرْكَبُونَ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَتَبْلُغُونَ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ؟

قُلْتُ فِي الرُّكُوبِ: الرُّكُوبُ فِي الْحَجِّ وَالْغَزْوِ، وَفِي بُلُوغِ الْحَاجَةِ: الْهِجْرَةُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ لِإِقَامَةِ دِينٍ أَوْ طَلَبِ عِلْمٍ، وَهَذِهِ أَغْرَاضٌ دِينِيَّةٌ إِمَّا وَاجِبَةٌ أَوْ مَنْدُوبٌ إِلَيْهَا مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهِ إِرَادَةُ الْحَكِيمِ. وَأَمَّا الْأَكْلُ وَإِصَابَةُ الْمَنَافِعِ: فَمِنْ جِنْسِ الْمُبَاحِ الَّذِي لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ إِرَادَتُهُ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾[6] وَعَلَى الْأَنْعَامِ وَحْدَهَا لَا تَحْمِلُونَ، وَلَكِنَّ عَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ.

---

1 سورة ، الآية .

2 سورة ، الآية .

3 سورة ، الآية .

4 سورة ، الآية .

5 سورة ، الآية .

6 سورة ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ: وَفِي الْفُلْكِ، كَمَا قَالَ: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾[1]؟ [هُودٌ: 40]

قُلْتُ: مَعْنَى الْإِيعَاءِ وَمَعْنَى الِاسْتِعْلَاءِ: كِلَاهُمَا مُسْتَقِيمٌ، لِأَنَّ الْفُلْكَ وِعَاءٌ لِمَنْ يَكُونُ فيها حُمُولَةً لَهُ يَسْتَعْلِيهَا، فَلَمَّا صَحَّ الْمَعْنَيَانِ صَحَّتِ الْعِبَارَتَانِ.

وَأَيْضًا، فَلْيُطَابِقْ قَوْلُهُ: ﴿وَعَلَيْهَا﴾[2] وَيُزَاوِجُهُ ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ﴾[3] جَاءَتْ عَلَى اللُّغَةِ الْمُسْتَفِيضَةِ.

وَقَوْلُكَ: فَأَيَّةُ آيَاتِ اللَّهِ قَلِيلٌ، لِأَنَّ التَّفْرِقَةَ بَيْنَ الْمُذَكَّرِ وَالْمُؤَنَّثِ فِي الْأَسْمَاءِ غَيْرِ الصِّفَاتِ نَحْوَ حِمَارٍ وَحِمَارَةٍ غَرِيبٍ. وَهِيَ فِي "أَيٍّ" أَغْرَبُ لِإِبْهَامِهِ.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[4]

﴿وَآثَارًا﴾[5] قُصُورُهُمْ وَمَصَانِعُهُمْ. وَقِيلَ: مَشْيُهُمْ بِأَرْجُلِهِمْ لِعِظَمِ إِجْرَامِهِمْ.

﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾[6] مَا نَافِيَةٌ أَوْ مُضَمِّنَةٌ مَعْنَى الِاسْتِفْهَامِ، وَمَحِلُّهَا النَّصْبُ، وَالثَّانِيَةُ: مَوْصُولَةٌ أَوْ مَصْدَرِيَّةٌ وَمَحِلُّهَا الرَّفْعُ، يَعْنِي أَيَّ شَيْءٍ أَغْنَى عَنْهُمْ مَكْسُوبُهُمْ أَوْ كَسْبُهُمْ.

﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾[7] فيهِ وُجُوهٌ: مِنْهَا أَنَّهُ أَرَادَ الْعِلْمَ الْوَارِدَ عَلَى طَرِيقِ التَّهَكُّمِ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾[8]: وَعِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ أَنَّهُمْ كَانُوا

---

1 سورة ، الآية .
2 سورة ، الآية .
3 سورة ، الآية .
4 سورة ، الآية .
5 سورة ، الآية .
6 سورة ، الآية .
7 سورة ، الآية .
8 سورة النَّمْلُ، الآية 66.

يَقُولُونَ: لَا نُبْعَثُ وَلَا نُعَذَّبُ، ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾[1]، ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾[2]، وَكَانُوا يَفْرَحُونَ بِذَلِكَ وَيَدْفَعُونَ بِهِ الْبَيِّنَاتِ وَعِلْمَ الْأَنْبِيَاءِ، كَمَا قَالَ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[3].

وَمِنْهَا: أَنْ يُرِيدَ عِلْمَ الْفَلَاسِفَةِ وَالدَّهْرِيِّينَ مِنْ بَنِي يُونَانَ، وَكَانُوا إِذْ سَمِعُوا بِوَحْيِ اللَّهِ: دَفَعُوهُ وَصَغَّرُوا عِلْمَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى عِلْمِهِمْ.

وَعَنْ سُقْرَاطَ: أَنَّهُ سَمِعَ بِمُوسَى -صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ-، وَقِيلَ لَهُ: لَوْ هَاجَرْتَ إِلَيْهِ فَقَالَ: نَحْنُ قَوْمٌ مُهَذَّبُونَ فَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى مَنْ يُهَذِّبُنَا.

وَمِنْهَا: أَنْ يُوضَعَ قَوْلُهُ: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾[4]، وَلَا عِلْمَ عِنْدِهِمُ الْبَتَّةَ، مَوْضِعَ قَوْلِهِ: لَمْ يَفْرَحُوا بِمَا جَاءَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ، مُبَالَغَةً فِي نَفْيِ فَرَحِهِمْ بِالْوَحْيِ الْمُوجِبِ لِأَقْصَى الْفَرَحِ وَالْمَسَرَّةِ، مَعَ تَهَكُّمٍ بِفَرْطِ جَهْلِهِمْ وَخُلُوِّهِمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ. وَمِنْهَا أَنْ يُرَادَ: فَرِحُوا بِمَا عِنْدَ الرُّسُلِ مِنَ الْعِلْمِ فَرَحَ ضَحِكٍ مِنْهُ وَاسْتِهْزَاءٍ بِهِ، كَأَنَّهُ قَالَ: اسْتَهْزِءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَبِمَا جَاءُوا بِهِ مِنْ عِلْمِ الْوَحْيِ فَرِحِينَ مَرِحِينَ.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[5].

وَمِنْهَا: أَنْ يَجْعَلَ الْفَرَحَ لِلرُّسُلِ. وَمَعْنَاهُ: أَنَّ الرُّسُلَ لَمَّا رَأَوْا جَهْلَهُمُ الْمُتَمَادِيَ وَاسْتِهْزَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَعَلِمُوا سُوءَ عَاقِبَتِهِمْ وَمَا يَلْحَقُهُمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ عَلَى جَهْلِهِمْ وَاسْتِهْزَائِهِمْ: فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا مِنَ الْعِلْمِ وَشَكَرُوا اللَّهَ عَلَيْهِ. وَحَاقَ بِالْكَافِرِينَ جَزَاءَ جَهْلِهِمْ وَاسْتِهْزَائِهِمْ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِمَا فَرِحُوا بِهِ مِنَ الْعِلْمِ: عِلْمُهُمْ بِأُمُورِ الدُّنْيَا وَمَعْرِفَتُهُمْ بِتَدْبِيرِهَا، كَمَا قَالَ -تَعَالَى-: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[6]، ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾[7].

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية 50.

2 سورة الْكَهْفُ، الآية 36.

3 سورة الرُّومُ، الآية 32.

4 سورة غَافِرُ، الآية 83.

5 سورة ، الآية .

6 سورة الرُّومُ، الآية 7.

7 سورة النَّجْمُ، الآية 30.

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الرُّسُلُ بِعُلُومِ الدِّيَانَاتِ –وَهِيَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِمْ لِبَعْثِهَا عَلَى رَفْضِ الدُّنْيَا وَالظَّلْفِ عَنِ الْمَلَاذِ وَالشَّهَوَاتِ– لَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهَا وَصَغِرُوهَا وَاسْتَهْزَءُوا بِهَا، وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ لَا عِلْمَ أَنْفَعُ وَأَجْلَبُ لِلْفَوَائِدِ مِنْ عِلْمِهِمْ، فَفَرِحُوا بِهِ.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾[1]

الْبَأْسُ: شِدَّةُ الْعَذَابِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾[2].

فَإِنْ قُلْتَ: أَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ﴾[3] وَبَيْنَهُ لَوْ قِيلَ: فَلِمَ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ؟

قُلْتُ: هُوَ مَنْ كَانَ فِي نَحْوِ قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾[4]، وَالْمَعْنَى: فَلَمْ يَصِحَّ وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَنْ يَنْفَعَهُمْ إِيمَانُهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ تَرَادَفَتْ هَذِهِ الْفَاآتُ؟

قُلْتُ: أَمَّا قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾[5]، فَهُوَ نَتِيجَةُ قَوْلِهِ: ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾[6].

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾[7]، فَجَارٍ مَجْرَى الْبَيَانِ وَالتَّفْسِيرِ، لِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾[8]، كَقَوْلِكَ: رُزِقَ زَيْدٌ الْمَالَ فَمَنَعَ الْمَعْرُوفَ فَلَمْ يُحْسِنْ إِلَى الْفُقَرَاءِ.

---

1 سورة ، الآية .
2 سورة الْأَعْرَافُ، الآية 165.
3 سورة ، الآية .
4 سورة مَرْيَمُ، الآية 35.
5 سورة غَافِرُ، الآية 82.
6 سورة غَافِرُ، الآية 82.
7 سورة غَافِرُ، الآية 82.
8 سورة غَافِرُ، الآية 82.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾[1] تَابِعٌ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ﴾[2]، كَأَنَّهُ قَالَ: فَكَفَرُوا فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا آمَنُوا، وَكَذَلِكَ: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ﴾[3] تَابِعٌ لِإِيمَانِهِمْ لَمَّا رَأَوْا بِأْسَ اللَّهِ.

﴿سُنَّتَ اللَّهِ﴾[4] بِمَنْزِلَةِ ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾[5]، وَمَا أَشْبَهَهُ مِنَ الْمَصَادِرِ الْمُؤَكَّدَةِ.

وَ﴿هُنَالِكَ﴾[6] مَكَانٌ مُسْتَعَارٌ لِلزَّمَانِ، أَيْ: وَخَسِرُوا وَقْتَ رُؤْيَةِ الْبَأْسِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾[7] بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾[8]، أَيْ: وَخَسِرُوا وَقْتَ مَجِيءِ أَمْرِ اللَّهِ، أَوْ وَقْتَ الْقَضَاءِ بِالْحَقِّ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمُؤْمِنِ لَمْ يُبْقِ رُوحُ نَبِيٍّ وَلَا صَدِيقٍ وَلَا شَهِيدٍ وَلَا مُؤْمِنٍ إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ وَاسْتَغْفَرَ لَهُ".

---

[1] سورة غَافِرٍ، الآية 83.

[2] سورة غَافِرٍ، الآية 83.

[3] سورة غَافِرٍ، الآية .

[4] سورة غَافِرٍ، الآية .

[5] سورة غَافِرٍ، الآية .

[6] سورة غَافِرٍ، الآية .

[7] سورة غَافِرٍ، الآية 78.

[8] سورة غَافِرٍ، الآية 78.

سورة فصلت

وتسمى السجدة

سورة فصلت ومكية وهي الثلاثون

عدد آياتها: 53 آية، عدد كلماتها: 354، عدد حروفها: [غير معروف]

بين يدي السورة

﴿حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾[1]

إِنْ جَعَلْتَ ﴿حم﴾[2] اسْمًا لِلسُّورَةِ كَانَتْ في مَوْضِعِ الْمُبْتَدَأِ. وَ﴿تَنْزِيلُ﴾[3] خَبَرُهُ. وَإِنْ جَعَلْتَهَا تَعْدِيدًا لِلْحُرُوفِ، وَكَانَ ﴿تَنْزِيلُ﴾[4] خَبَرًا لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ وَ﴿كِتَابٌ﴾[5] بَدَلٌ مِنْ تَنْزِيلٍ، أَوْ خَبَرٌ بَعْدَ خَبَرٍ، أَوْ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، وَجَوَّزَ الزَّجَّاجُ أَنْ يَكُونَ "تَنْزِيلُ" مُبْتَدَأً، وَ﴿كِتَابٌ﴾[6] خَبَرُهُ. وَوَجْهُهُ أَنَّ تَنْزِيلًا تَخَصَّصَ بِالصِّفَةِ فَسَاغَ وُقُوعُهُ مُبْتَدَأً.

﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾[7] مَيَّزَتْ تَفَاصِيلَ في مَعَانٍ مُخْتَلِفَةٍ: مِنْ أَحْكَامٍ وَأَمْثَالٍ وَمَوَاعِظَ، وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَقُرِئَ: (فَصَّلَتْ)، أَيْ: فَرَّقَتْ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، أَوْ فَصَّلَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ بِاخْتِلَافِ مَعَانِيهَا، مِنْ قَوْلِكَ: فَصَلَ مِنَ الْبَلَدِ.

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
5 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
6 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
7 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[1] نُصِبَ عَلَى الِاخْتِصَاصِ وَالْمَدْحِ، أَيْ: أُرِيدَ بِهَذَا الْكِتَابِ الْمُفَصَّلِ قُرْآنًا مِنْ صِفَتِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ. وَقِيلَ: هُوَ نُصِبَ عَلَى الْحَالِ، أَيْ: فُصِّلَتْ آيَاتُهُ في حَالِ كَوْنِهِ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[2]، أَيْ: لِقَوْمٍ عَرَبٍ يَعْلَمُونَ مَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْآيَاتِ الْمُفَصَّلَةِ الْمُبَيِّنَةِ بِلِسَانِهِمُ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ، لَا يَلْتَبِسُ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِنْهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ يَتَعَلَّقُ قَوْلُهُ: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[3]؟

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِتَنْزِيلٍ أَوْ بِفُصِّلَتْ، أَيْ: تَنْزِيلٌ مِنَ اللَّهِ لِأَجْلِهِمْ، أَوْ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ لَهُمْ. وَالْأَجْوَدُ أَنْ يَكُونَ صِفَةً مِثْلَ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ، أَيْ: قُرْآنًا عَرَبِيًّا كَائِنًا لِقَوْمٍ عَرَبٍ، لِئَلَّا يُفَرِّقُ بَيْنَ الصِّلَاتِ وَالصِّفَاتِ. وَقُرِئَ: (بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ) صِفَةٌ لِلْكِتَابِ، أَوْ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ.

﴿فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾[4] لَا يَقْبَلُونَ وَلَا يُطِيعُونَ، وَمِنْ قَوْلِكَ: تَسَمَّعْتُ إِلَى فُلَانٍ فَلَمْ يَسْمَعْ قَوْلِي، وَلَقَدْ سَمِعَهُ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا لَمْ يَقْبَلْهُ وَلَمْ يَعْمَلْ بِمُقْتَضَاهُ، فَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهُ.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾[5]

وَالْأَكِنَّةُ: جَمْعُ كَنَانٍ. وَهُوَ الْغِطَاءُ، وَ"الْوَقْرَ" بِالْفَتْحِ: الثِّقْلُ. وَقُرِئَ: بِالْكَسْرِ. وَهَذِهِ تَمْثِيلَاتٌ لِنُبُوِّ قُلُوبِهِمْ عَنْ تَقَبُّلِ الْحَقِّ وَاعْتِقَادِهِ، كَأَنَّهَا في غُلْفٍ وَأَغْطِيَةٌ تَمْنَعُ مِنْ نُفُوذِهِ فيها، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾[6]، وَمَجَّ أَسْمَاعُهُمْ لَهُ كَأَنَّ بِهَا صَمَمًا عَنْهُ، وَلِتُبَاعِدِ الْمَذْهَبَيْنِ وَالدِّينَيْنِ كَأَنَّ بَيْنَهُمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ، وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَمَا هُوَ عَلَيْهِ: حِجَابًا سَاتِرًا وَحَاجِزًا مَنِيعًا مِنْ جَبَلٍ أَوْ نَحْوِهِ، فَلَا تَلَاقِيَ وَلَا تَرَائِيَ.

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

5 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

6 سورة الْبَقَرَةُ، الآية 88.

﴿فَاعْمَلْ﴾[1] عَلَى دِينِكَ ﴿إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾[2] عَلَى دِينِنَا، أَوْ فَاعْمَلْ فِي إِبْطَالِ أَمْرِنَا، إِنَّنَا عَامِلُونَ فِي إِبْطَالِ أَمْرِكَ. وَقُرِئَ: (إِنَّا عَامِلُونَ).

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ لِزِيَادَةِ "مِنْ" فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[3] فَائِدَةٌ؟

قُلْتُ: نَعَمْ، لِأَنَّهُ لَوْ قِيلَ: وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ: لَكَانَ الْمَعْنَى: أَنْ حِجَابًا حَاصِلًا وَسَطَ الْجِهَتَيْنِ، وَأَمَّا بِزِيَادَةِ "مِنْ" فَالْمَعْنَى: أَنَّ حِجَابًا ابْتَدَأَ مِنَّا وَابْتَدَأَ مِنْكَ، فَالْمَسَافَةُ الْمُتَوَسِّطَةُ لِجِهَتِنَا وَجِهَتِكَ مُسْتَوْعِبَةٌ بِالْحِجَابِ لَا فَرَاغَ فيها.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ: عَلَى قُلُوبِنَا أَكِنَّةٌ، كَمَا قِيلَ: وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ، لِيَكُونَ الْكَلَامُ عَلَى نَمَطٍ وَاحِدٍ؟

قُلْتُ: هُوَ عَلَى نَمَطٍ وَاحِدٍ، لِأَنَّهُ لَا فَرْقَ فِي الْمَعْنَى بَيْنَ قَوْلِكَ: قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ. وَعَلَى قُلُوبِنَا أَكِنَّةٍ. وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾[4].

وَلَوْ قِيلَ: إِنَّا جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ فِي أَكِنَّةٍ: لَمْ يَخْتَلِفِ الْمَعْنَى، وَتَرَى الْمَطَابِيعَ مِنْهُمْ لَا يُرَاعُونَ الطِّبَاقَ وَالْمُلَاحَظَةَ إِلَّا فِي الْمَعَانِي.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾[5]

فَإِنْ قُلْتَ: مِنْ أَيْنَ كَانَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾[6] جَوَابًا لِقَوْلِهِمْ: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾[7]؟

قُلْتُ: مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ: إِنِّي لَسْتُ بِمَلَكٍ، وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، وَقَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ دُونَكُمْ فَصِحْتُ –بِالْوَحْيِ إِلَيَّ وَأَنَا بَشَرٌ– نُبُوَّتِي، وَإِذَا صَحَّتْ نُبُوَّتِي وَجَبَ عَلَيْكُمُ

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
5 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
6 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
7 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

اتِّبَاعِي، وَفِيمَا يُوحَى إِلَيَّ: أَنَّ إِلَهَكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾[1] فَاسْتَوُوا إِلَيْهِ بِالتَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ غَيْرِ ذَاهِبِينَ يَمِينًا وَشِمَالًا، وَلَا مُلْتَفِتِينَ إِلَى مَا يُسَوِّلُ لَكُمُ الشَّيْطَانُ مِنَ اتِّخَاذِ الْأَوْلِيَاءِ وَالشُّفَعَاءِ، وَتُوبُوا إِلَيْهِ مِمَّا سَبَقَ لَكُمْ مِنَ الشِّرْكِ، ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾[2]. وَقُرِئَ: (قَالَ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ).

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ خَصَّ مِنْ بَيْنِ أَوْصَافِ الْمُشْرِكِينَ مَنْعَ الزَّكَاةِ مَقْرُونًا بِالْكُفْرِ بِالْآخِرَةِ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ أَحَبَّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَالُهُ، وَهُوَ شَقِيقُ رُوحِهِ، فَإِذَا بَذَلَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَذَلِكَ أَقْوَى دَلِيلٍ عَلَى ثَبَاتِهِ وَاسْتِقَامَتِهِ وَصِدْقِ نِيَّتِهِ وَنُصُوعِ طَوِيَّتِهِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾[3]، أَيْ: يُثْبِتُونَ أَنْفُسَهُمْ وَيَدُلُّونَ عَلَى ثَبَاتِهَا بِإِنْفَاقِ الْأَمْوَالِ، وَمَا خَدَعَ الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ إِلَّا بِلَمْظَةٍ مِنَ الدُّنْيَا فَقَرَّتْ عَصَبِيَّتُهُمْ وَلَانَتْ شَكِيمَتُهُمْ، وَأَهْلُ الرِّدَّةِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَا تَظَاهَرُوا إِلَّا بِمَنْعِ الزَّكَاةِ، فَنَصَبَتْ لَهُمُ الْحَرْبَ، وَجُوهِدُوا. وَفِيهِ بَعَثَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَدَاءِ الزَّكَاةِ، وَتَخْوِيفٍ شَدِيدٍ مِنْ مَنْعِهَا، حَيْثُ جَعَلَ الْمَنْعَ مِنْ أَوْصَافِ الْمُشْرِكِينَ، وَقَرَنَ بِالْكُفْرِ بِالْآخِرَةِ.

وَقِيلَ: كَانَتْ قُرَيْشٌ يُطَعِّمُونَ الْحَاجَّ، وَيُحْرِمُونَ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. وَقِيلَ: لَا يَفْعَلُونَ مَا يَكُونُونَ بِهِ أَزْكِيَاءَ، وَهُوَ الْإِيمَانُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[4]

الْمَمْنُونُ: الْمَقْطُوعُ. وَقِيلَ: لَا يَمُنُّ عَلَيْهِمْ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَمُنُّ التَّفَضُّلَ. فَأَمَّا الْأَجْرُ فَحَقَّ أَدَاؤُهُ. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي الْمَرْضَى وَالزَّمْنَى وَالْهَرْمَى: إِذَا عَجَزُوا عَنِ الطَّاعَةِ كَتَبَ لَهُمُ الْأَجْرَ، كَأَصَحِّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

---

[1] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[2] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[3] سورة فُصِّلَتْالْبَقَرَةُ، الآية 265.

[4] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

﴿قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[1]

"أَئِنَّكُمْ" بِهَمْزَتَيْنِ: الثَّانِيَةُ بَيْنَ بَيْنَ. وَ"آئِنَّكُمْ" بِأَلِفٍ وَبَيْنَ هَمْزَتَيْنِ.

﴿ذَلِكَ﴾[2] الَّذِي قَدَرَ عَلَى خَلْقِ الْأَرْضِ فِي مُدَّةِ يَوْمَيْنِ، وَهُوَ ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[3].

﴿رَوَاسِيَ﴾[4] جِبَالًا ثَوَابِتَ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿مِنْ فَوْقِهَا﴾[5]؟ وَهَلِ اخْتَصَرَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾[6] كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾[7]، ﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾[8]، ﴿لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ﴾[9] ؟

قُلْتُ: لَوْ كَانَتْ تَحْتَهَا كَالْأَسَاطِينِ لَهَا تَسْتَقِرُّ عَلَيْهَا، أَوْ مَرْكُوزَةً فيها كَالْمَسَامِيرِ: لَمَنَعَتْ مِنَ الْمَيْدَانِ أَيْضًا، وَإِنَّمَا اخْتَارَ إِرْسَاءَهَا فَوْقَ الْأَرْضِ، لِتَكُونَ الْمَنَافِعُ في الْجِبَالِ مُعَرَّضَةً لِطَالِبِيهَا، حَاضِرَةً لِمُحَصِّلِيهَا، وَلِيُبْصِرَ أَنَّ الْأَرْضَ وَالْجِبَالَ أَثْقَالٌ عَلَى أَثْقَالٍ، كُلُّهَا مُفْتَقِرَةٌ إِلَى مُمْسِكٍ لَا بُدَّ لَهَا مِنْهُ، وَهُوَ مُمْسِكُهَا عَزَّ وَعَلَا بِقُدْرَتِهِ.

﴿ وَبَارَكَ فِيهَا﴾[10]: وَأَكْثَرُ خَيْرِهَا وَأَنْمَاهُ.

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

5 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

6 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

7 سورة الْمُرْسَلَات، الآية 27.

8 سورة الْأَنْبِيَاء، الآية 31.

9 سورة النَّمْل، الآية 61.

10 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾[1] أَرْزَاقُ أَهْلِهَا وَمَعَايِشُهُمْ وَمَا يُصْلِحُهُمْ. وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: وَقَسَّمَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً﴾[2] فَذْلَكَةٌ لِمُدَّةِ خَلْقِ اللَّهِ الْأَرْضِ وَمَا فِيهَا، كَأَنَّهُ قَالَ: كُلُّ ذَلِكَ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ كَامِلَةٍ مُسْتَوِيَةٍ بِلَا زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانَ.

قِيلَ: خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ فِي يَوْمِ الْأَحَدِ وَيَوْمَ الْإِثْنَيْنِ، وَمَا فِيهَا يَوْمُ الثُّلَاثَاءِ وَيَوْمُ الْأَرْبِعَاءِ.

وَقَالَ الزَّجَّاجُ: فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ فِي تَتِمَّةِ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ، يُرِيدُ بِالتَّتِمَّةِ الْيَوْمَيْنِ.

وَقُرِئَ: (سَوَاءً) بِالْحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ: الْجَرُّ عَلَى الْوَصْفِ وَالنَّصْبُ عَلَى: اسْتَوَتْ سَوَاءً، أَيِ: اسْتِوَاءً: الرَّفْعُ عَلَى: هِيَ سَوَاءٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ تَعَلَّقَ قَوْلُهُ" :لِلسَّائِلِينَ"؟

قُلْتُ: بِمَحْذُوفٍ، كَأَنَّهُ قِيلَ: هَذَا الْحَصْرُ لِأَجْلِ مَنْ سَأَلَ: فِي كَمْ خُلِقَتِ الْأَرْضُ وَمَا فِيهَا؟ أَوْ يَقْدِرُ: أَيْ: قُدِّرَ فِيهَا الْأَقْوَاتُ لِأَجْلِ الطَّالِبِينَ لَهَا الْمُحْتَاجِينَ إِلَيْهَا مِنَ الْمُقْتَاتِينَ.

وَهَذَا الْوَجْهُ الْأَخِيرُ لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا عَلَى تَفْسِيرِ الزَّجَّاجِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ فِي يَوْمَيْنِ؟ وَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي هَذِهِ الْفَذْلَكَةِ؟

قُلْتُ: إِذَا قَالَ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ وَقَدْ ذَكَرَ أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ فِي يَوْمَيْنِ، عَلِمَ أَنَّ مَا فِيهَا خُلِقَ فِي يَوْمَيْنِ، فَبَقِيَتِ الْمُخَايَرَةُ بَيْنَ أَنْ تَقُولَ: فِي يَوْمَيْنِ، وَأَنْ تَقُولَ: فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً، فَكَانَتْ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً فَائِدَةً لَيْسَتْ فِي يَوْمَيْنِ، وَهِيَ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ أَيَّامًا كَامِلَةً بِغَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ.

وَلَوْ قَالَ: فِي يَوْمَيْنِ –وَقَدْ يُطْلَقُ الْيَوْمَانِ عَلَى أَكْثَرِهِمَا– لَكَانَ يَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِالْيَوْمَيْنِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ أَكْثَرُهُمَا، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾[3] مِنْ قَوْلِكَ: اسْتَوَى إِلَى مَكَانِ كَذَا، إِذَا تَوَجَّهَ إِلَيْهِ تَوَجُّهًا لَا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ، وَهُوَ مِنَ الِاسْتِوَاءِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الِاعْوِجَاجِ، وَنَحْوُهُ قَوْلُهُمُ: اسْتَقَامَ إِلَيْهِ وَامْتَدَّ إِلَيْهِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾[4]؛ وَالْمَعْنَى: ثُمَّ دَعَاهُ دَاعِي الْحِكْمَةِ إِلَى خَلْقِ السَّمَاءِ بَعْدَ خَلْقِ الْأَرْضِ وَمَا فِيهَا مِنْ غَيْرِ صَارِفٍ يَصْرِفُهُ عَنْ ذَلِكَ. قِيلَ: كَانَ عَرْشُهُ

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

4 سورة فُصِّلَتْ، الآية 66.

قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَى الْمَاءِ، فَأَخْرَجَ مِنَ الْمَاءِ دُخَانًا، فَارْتَفَعَ فَوْقَ الْمَاءِ وَعَلَا عَلَيْهِ، فَأَيْبَسَ الْمَاءَ فَجَعَلَهُ أَرْضًا وَاحِدَةً، ثُمَّ فَتَقَهَا فَجَعَلَهَا أَرْضِينَ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاءَ مِنَ الدُّخَّانِ الْمُرْتَفِعِ.

وَمَعْنَى أَمَرَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ بِالْإِتْيَانِ وَامْتِثَالِهِمَا: أَنَّهُ أَرَادَ تَكْوِينَهُمَا فَلَمَّا يَمْتَنِعَا عَلَيْهِ، وَوُجِدَتَا كَمَا أَرَادَهُمَا، وَكَانَتَا فِي ذَلِكَ كَالْمَأْمُورِ الْمُطِيعِ إِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ فِعْلُ الْأَمْرِ الْمُطَاعِ، وَهُوَ مِنَ الْمَجَازِ الَّذِي يُسَمَّى التَّمْثِيلُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَخْيِيلًا وَيُبْنَى الْأَمْرُ فِيهِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَلَّمَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَقَالَ لَهُمَا: ائْتِيَا شِئْتُمَا ذَلِكَ أَوْ أَبَيْتُمَاهُ، فَقَالَتَا: أَتَيْنَا عَلَى الطَّوْعِ لَا عَلَى الْكُرْهِ. وَالْغَرَضُ تَصْوِيرُ أَثَرِ قُدْرَتِهِ فِي الْمَقْدُورَاتِ لَا غَيْرُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُحَقِّقَ شَيْءٌ مِنَ الْخِطَابِ وَالْجَوَابُ.

وَنَحْوُهُ قَوْلُ الْقَائِلِ: قَالَ الْجِدَارُ لِلْوَتَدِ: لِمَ تُشْقِنِي؟ قَالَ الْوَتَدُ: اسْأَلْ مَنْ يَدُقُّنِي، فَلَمْ يَتْرُكْنِي وَرَائِي الْحَجَرُ الَّذِي وَرَائِي.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ ذَكَرَ الْأَرْضَ مَعَ السَّمَاءِ وَانْتَظَمَهَا فِي الْأَمْرِ بِالْإِتْيَانِ، وَالْأَرْضُ مَخْلُوقَةٌ قَبْلَ السَّمَاءِ بِيَوْمَيْنِ؟

قُلْتُ: قَدْ خَلَقَ جِرْمَ الْأَرْضِ أَوْ لَا غَيْرَ مَدْحُوَّةٌ، ثُمَّ دَحَاهَا بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاءِ، كَمَا قَالَ –تَعَالَى–: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾[1].

فَالْمَعْنَى: ائْتِيَا عَلَى مَا يَنْبَغِي أَنْ تَأْتِيَا عَلَيْهِ مِنَ الشَّكْلِ وَالْوَصْفِ: ائْتِي يَا أَرْضُ مَدْحُوَّةً قَرَارًا وَمِهَادًا لِأَهْلِكَ، وَائْتِي يَا سَمَاءُ مُقَبَّبَةً سَقْفًا لَهُمْ.

وَمَعْنَى الْإِتْيَانِ: الْحُصُولُ وَالْوُقُوعُ، كَمَا تَقُولُ: أَتَى عَمَلَهُ مَرْضِيًّا، وَجَاءَ مَقْبُولًا. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: لِتَأْتِ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا صَاحِبَتُهَا الْإِتْيَانُ الَّذِي أُرِيدُهُ وَتَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ وَالتَّدْبِيرُ: مِنْ كَوْنِ الْأَرْضِ قَرَارًا لِلسَّمَاءِ، وَكَوْنُ السَّمَاءِ سَقْفًا لِلْأَرْضِ. وَتَنْصُرُهُ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: (آتِيًا) وَآتَيْنَا: مِنَ الْمُؤَاتَاةِ وَهِيَ الْمُوَافَقَةُ: أَيْ: لِتُوَاتِ كُلَّ وَاحِدَةٍ أُخْتَهَا وَلِتُوَافِقَهَا. قَالَتَا: وَافَقْنَا وَسَاعَدْنَا. وَيُحْتَمَلُ وَافِقًا أَمْرِي وَمَشِيئَتِي وَلَا تَمْتَنِعَا.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى طَوْعًا أَوْ كَرْهًا؟

---

[1] سورة النَّازِعَات، الآية 30.

قُلْتُ: هُوَ مَثَلٌ لِلُزُومِ وَتَأْثِيرِ قُدْرَتِهِ فيهِمَا، وَأَنَّ امْتِنَاعَهُمَا مِنْ تَأْثِيرِ قُدْرَتِهِ مُحَالٌ، كَمَا يَقُولُ الْجَبَّارُ لِمَنْ تَحْتَ يَدِهِ: لِتَفْعَلَنَّ هَذَا شِئْتَ أَوْ أَبَيْتَ، وَلَتَفْعَلَنَّهُ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا. وَانْتِصَابُهُمَا عَلَى الْحَالِ، بِمَعْنَى: طَائِعَتَيْنِ أَوْ مُكْرَهَتَيْنِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ: طَائِعَتَيْنِ عَلَى اللَّفْظِ؟ أَوْ طَائِعَاتٍ عَلَى الْمَعْنَى؟ لِأَنَّهَا سَمَاوَاتٌ وَأَرْضُونَ.

قُلْتُ: لَمَّا جُعِلْنَ مُخَاطَبَاتٍ وَمُجِيبَاتٍ، وَوُصِفْنَ بِالطَّوْعِ وَالْكُرْهِ قِيلَ: طَائِعِينَ، في مَوْضِعِ: طَائِعَاتٍ. نَحْوُ قَوْلِهِ: "سَاجِدِينَ".

﴿فَقَضَاهُنَّ﴾[1] يَجُوزُ أَنْ يَرْجِعَ الضَّمِيرُ فيهِ إِلَى السَّمَاءِ عَلَى الْمَعْنَى كَمَا قَالَ: ﴿طَائِعِينَ﴾[2]، وَنَحْوُهُ: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[3]، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ضَمِيرًا مُبْهَمًا مُفَسَّرًا بِسَبْعِ سَمَوَاتٍ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ النَّصْبَيْنِ أَنَّ أَحَدَهُمَا عَلَى الْحَالِ، وَالثَّانِي: عَلَى التَّمْيِيزِ.

قِيلَ: خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَمَا فيها في يَوْمَيْنِ: في يَوْمِ الْخَمِيسِ وَالْجُمُعَةِ، وَفَرَغَ في آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَخَلَقَ آدَمَ وَهِيَ السَّاعَةُ الَّتِي تَقُومُ فيها الْقِيَامَةُ.

وَفى هَذَا دَلِيلٌ عَلَى مَا ذَكَرْتُ، مِنْ أَنَّهُ لَوْ قِيلَ: في يَوْمَيْنِ في مَوْضِعِ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً، لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُمَا يَوْمَانِ كَامِلَانِ أَوْ نَاقِصَانِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَلَوْ قِيلَ: خَلَقَ الْأَرْضَ في يَوْمَيْنِ كَامِلَيْنِ وَقَدَّرَ فيها أَقْوَاتَهَا في يَوْمَيْنِ كَامِلَيْنِ، أَوْ قِيلَ: بَعْدَ ذِكْرِ الْيَوْمَيْنِ: تِلْكَ أَرْبَعَةٌ سَوَاءٌ؟

قُلْتُ: الَّذِي أَوْرَدَهُ –سُبْحَانَهُ– أَخْصَرُ وَأَفْصَحُ وَأَحْسَنُ طِبَاقًا لِمَا عَلَيْهِ التَّنْزِيلُ مِنْ مُغَاصَاةِ الْقَرَائِحِ وَمَصَاكِّ الرُّكْبِ، لِيَتَمَيَّزَ الْفَاضِلُ مِنَ النَّاقِصِ، وَالْمُتَقَدِّمُ مِنَ النَّاكِصِ، وَتَرْتَفِعُ الدَّرَجَاتُ، وَيَتَضَاعَفُ الثَّوَابُ.

﴿أَمْرُهَا﴾[4]: مَا أَمَرَ بِهِ فيها وَدَبَّرَهُ مِنْ خَلْقِ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّيِّرَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، أَوْ شَأْنَهَا وَمَا يُصْلِحُهَا.

﴿وَحِفْظًا﴾[5]: وَحَفِظْنَاهَا حِفْظًا، يَعْنِي مِنَ الْمُسْتَرِقَةِ بِالثَّوَاقِبِ.

---

[1] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[2] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[3] سورة الْحَاقَّةُ، الآية 7.

[4] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[5] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا لَهُ عَلَى الْمَعْنَى، كَأَنَّهُ قَالَ: وَخَلَقْنَا الْمَصَابِيحَ زِينَةً وَحِفْظًا.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾[1]

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾[2] بَعْدَ مَا تَتْلُو عَلَيْهِمْ مِنْ هَذِهِ الْحُجَجِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ، فَحَذَّرَهُمْ أَنْ تُصِيبَهُمْ صَاعِقَةٌ، أَيْ: عَذَابٌ شَدِيدُ الْوَقْعِ كَأَنَّهُ صَاعِقَةٌ. وَقُرِئَ: (صَعْقَةٌ) مِثْلُ صَعْقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ :وَهِيَ الْمَرَّةُ مِنَ الصَّعْقِ أَوِ الصُّعْقِ. يُقَالُ: صَعَقَتْهُ الصَّاعِقَةُ صَعْقًا فَصُعِقَ صَعْقًا، وَهُوَ مِنْ بَابِ: فَعَلْتُهُ فَفَعَلَ.

﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾[3]، أَيْ: أَتَوْهُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَاجْتَهَدُوا بِهِمْ وَأَعْمَلُوا فِيهِمْ كُلَّ حِيلَةٍ، فَلَمْ يَرَوْا مِنْهُمْ إِلَّا الْعُتُوَّ وَالْإِعْرَاضَ، كَمَا حَكَى اللَّهُ –تَعَالَى– عَنِ الشَّيْطَانِ: ﴿لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾[4]، يَعْنِي لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، وَلَأَعْمَلَنَّ فِيهِمْ كُلَّ حِيلَةٍ، وَتَقُولُ: اسْتَدَرْتُ بِفُلَانٍ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَلَمْ يَكُنْ لِي فِيهِ حِيلَةٌ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: أَنْذِرُوهُمْ مِنْ وَقَائِعِ اللَّهِ فِيمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ وَعَذَابِ الْآخِرَةِ، لِأَنَّهُمْ إِذَا حَذَّرُوهُمْ ذَلِكَ فَقَدْ جَاؤُهُمْ بِالْوَعْظِ مِنْ جِهَةِ الزَّمَنِ الْمَاضِي وَمَا جَرَى فِيهِ عَلَى الْكُفَّارِ، وَمِنْ جِهَةِ الْمُسْتَقْبَلِ وَمَا سَيَجْرِي عَلَيْهِمْ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: إِذَا جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مَنْ قَبْلِهِمْ وَمِنْ بَعْدِهِمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: الرُّسُلُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمِنْ بَعْدِهِمْ كَيْفَ يُوصَفُونَ بِأَنَّهُمْ جَاءُوهُمْ، وَكَيْفَ يُخَاطِبُونَهُمْ بِقَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾[5]؟

---

[1] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[2] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[3] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[4] سورة الْأَعْرَاف، الآية 17.

[5] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

قُلْتُ: قَدْ جَاءَهُمْ هُودٌ وَصَالِحٌ دَاعِيَيْنِ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِمَا وَبِجَمِيعِ الرُّسُلِ مِمَّنْ جَاءَ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ، أَيْ: مَنْ قَبْلِهِمْ وَمِمَّنْ يَجِيءُ مِنْ خَلْفِهِمْ، أَيْ: مِنْ بَعْدِهِمْ، فَكَانَ الرُّسُلُ جَمِيعًا قَدْ جَاءُوهُمْ.

وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾[1]: خِطَابٌ مِنْهُمْ لِهُودٍ وَصَالِحٍ وَلِسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ دَعَوْا إِلَى الْإِيمَانِ بِهِمْ.

"أَنْ" في ﴿أَلا تَعْبُدُوا﴾[2] بِمَعْنَى أَيْ، أَوْ مُخَفَّفَةً مِنَ الثَّقِيلَةِ، أَصْلُهُ: بِأَنَّهُ لَا تَعْبُدُوا، أَيْ: بِأَنَّ الشَّأْنَ وَالْحَدِيثَ قَوْلُنَا لَكُمْ: لَا تَعْبُدُوا، وَمَفْعُولُ شَاءَ مَحْذُوفٌ، أَيْ: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا﴾[3] إِرْسَالُ الرُّسُلِ: ﴿لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾[4]، مَعْنَاهُ: فَإِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ وَلَسْتُمْ بِمَلَائِكَةٍ، فَإِنَّا لَا نُؤْمِنُ بِكُمْ وَبِمَا جِئْتُمْ بِهِ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾[5] لَيْسَ بِإِقْرَارٍ بِالْإِرْسَالِ، وَإِنَّمَا هُوَ عَلَى كَلَامِ الرُّسُلِ، وَفِيهِ تَهَكُّمٌ، كَمَا قَالَ فِرْعَوْنُ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[6].

رُوِيَ: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ فِي مَلَأٍ مِنْ قُرَيْشٍ :قَدِ الْتَبَسَ عَلَيْنَا أَمْرُ مُحَمَّدٍ، فَلَوِ الْتَمَسْتُمْ لَنَا رَجُلًا عَالِمًا بِالشِّعْرِ وَالْكَهَانَةِ وَالسِّحْرِ فَكَلَّمَهُ ثُمَّ أَتَانَا بِبَيَانٍ عَنْ أَمْرِهِ، فَقَالَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ :وَاللَّهُ لَقَدْ سَمِعْتُ الشِّعْرَ وَالْكَهَانَةَ وَالسِّحْرَ وَعَلِمْتُ مِنْ ذَلِكَ عِلْمًا، وَمَا يَخْفى عَلَيَّ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ: أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ خَيْرٌ أَمْ هَاشِمٌ؟ أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ؟ أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عَبْدُ اللَّهِ ؟ فَبِمَ تَشْتُمُ آلِهَتَنَا وَتُضَلِّلُنَا، فَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الرِّيَاسَةَ عَقَدْنَا لَكَ اللِّوَاءَ فَكُنْتَ رَئِيسَنَا، وَإِنْ تَكُ بِكَ الْبَاءَةُ زَوَّجْنَاكَ عَشْرَ نِسْوَةٍ تَخْتَارُ مِنْ أَيِّ بَنَاتِ قُرَيْشٍ شِئْتَ، وَإِنْ كَانَ بِكَ الْمَالُ جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا تَسْتَغْنِي بِهِ، وَرَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– سَاكِتٌ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿حم﴾[7] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
5 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
6 سورة الشُّعَرَاءُ، الآية 27.
7 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

وَثَمُودَ﴾[1]، فَأَمْسَكَ عُتْبَةُ عَلَى فيهِ وَنَاشَدَهُ بِالرَّحِمِ، وَرَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ وَلَمْ يَخْرُجْ إِلَى قُرَيْشٍ فَلَمَّا احْتَبَسَ عَنْهُمْ قَالُوا: مَا نَرَى عُتْبَةَ إِلَّا قَدْ صَبَأَ، فَانْطَلَقُوا إِلَيْهِ وَقَالُوا: يَا عُتْبَةَ مَا حَبَسَكَ عَنَّا إِلَّا أَنَّكَ قَدْ صَبَأْتَ، فَغَضِبَ وَأَقْسَمَ لَا يُكَلِّمُ مُحَمَّدًا أَبَدًا، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ كَلَّمْتُهُ، فَأَجَابَنِي بِشَيْءٍ مِنَ اللَّهِ مَا هُوَ بِشِعْرٍ وَلَا كَهَانَةَ وَلَا سِحْرٍ، وَلَمَّا بَلَغَ صَاعِقَةَ عَادٍ وَثَمُودَ :أَمْسَكْتُ بِفيهِ وَنَاشَدْتُهُ بِالرَّحِمِ أَنْ يَكُفَّ، وَقَدْ عَلَّمْتُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا إِذَا قَالَ شَيْئًا لَمْ يَكْذِبْ، فَخِفْتُ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمُ الْعَذَابُ.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ﴾[2]

﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ﴾[3]، أَيْ: تُعَظِّمُوا فيها عَلَى أَهْلِهَا بِمَا لَا يَسْتَحِقُّونَ بِهِ التَّعْظِيمَ وَهُوَ الْقُوَّةُ وَعَظُمَ الْإِجْرَامِ، أَوِ اسْتَعْلَوْا في الْأَرْضِ وَاسْتَوْلَوْا عَلَى أَهْلِهَا بِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ لِلْوِلَايَةِ.

﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[4] كَانُوا ذَوِي أَجْسَامٍ طِوَالٍ وَخُلُقٍ عَظِيمٍ، وَبَلَّغَ مِنْ قُوَّتِهِمْ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَنْزِعُ الصَّخْرَةَ مِنَ الْجَبَلِ فيقْتَلِعُهَا بِيَدِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: الْقُوَّةُ هِيَ الشِّدَّةُ وَالصَّلَابَةُ في الْبِنْيَةِ، وَهِيَ نَقِيضَةُ الضَّعْفِ.

وَأَمَّا الْقُدْرَةُ، فَمَا لِأَجْلِهِ يَصِحُّ الْفِعْلُ مِنَ الْفَاعِلِ مِنْ تَمَيُّزٍ بِذَاتٍ أَوْ بِصِحَّةِ بَنِيهِ، وَهِيَ نَقِيضَةُ الْعَجْزِ، وَاللَّهُ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– لَا يُوصَفُ بِالْقُوَّةِ إِلَّا عَلَى مَعْنَى الْقُدْرَةِ، فَكَيْفَ صَحَّ قَوْلُهُ: ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾[5]، وَإِنَّمَا يَصِحُّ إِذَا أُرِيدَ بِالْقُوَّةِ في الْمَوْضِعَيْنِ شَيْءٌ وَاحِدٌ؟

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية 13.

2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

5 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

قُلْتُ: الْقُدْرَةُ في الْإِنْسَانِ هِيَ صِحَّةُ الْبِنْيَةِ وَالِاعْتِدَالُ وَالْقُوَّةُ وَالشِّدَّةُ وَالصَّلَابَةُ في الْبِنْيَةِ، وَحَقِيقَتُهَا: زِيَادَةُ الْقُدْرَةِ، فَكَمَا صَحَّ أَنْ يُقَالَ: اللَّهُ أَقْدَرُ مِنْهُمْ، جَازَ أَنْ يُقَالَ أَقْوَى مِنْهُمْ، عَلَى مَعْنَى: أَنَّهُ يَقْدِرُ لِذَاتِهِ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ بِازْدِيَادِ قَدْرِهِمْ.

﴿يَجْحَدُونَ﴾[1] كَانُوا يَعْرِفُونَ أَنَّهَا حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ جَحَدُوهَا كَمَا يَجْحَدُ الْمُودِعُ الْوَدِيعَةَ، وَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى فَاسْتَكْبَرُوا، أَيْ: كَانُوا كَفَرَةً فَسَقَةً. الصَّرْصَرُ: الْعَاصِفَةُ الَّتِي تُصَرْصِرُ، أَيْ: تَصَوَّتُ في هُبُوبِهَا.

وَقِيلَ: الْبَارِدَةُ الَّتِي تُحْرِقُ بِشِدَّةِ بَرْدِهَا، تَكْرِيرٌ لِبِنَاءِ الصَّرِّ وَهُوَ الْبَرْدُ الَّذِي يُصِرُّ، أَيْ: يَجْمَعُ وَيَقْبِضُ (نَحِسَاتٍ)، قُرِئَ بِكَسْرِ الْحَاءِ وَسُكُونِهَا. وَنُحِسُّ نَحْسًا: نَقِيضُ سَعِدَ سَعْدًا، وَهُوَ نَحْسٌ.

وَأَمَّا نَحْسٌ، فَإِمَّا مُخَفَّفُ نَحْسٍ، أَوْ صِفَةٌ عَلَى فِعْلٍ، كَالضَّخْمِ وَشَبَهِهِ، أَوْ وَصْفٍ بِمَصْدَرٍ. وَقُرِئَ: (لِنُذِيقَهُمْ) عَلَى أَنَّ الْإِذَاقَةَ لِلرِّيحِ أَوْ لِلْأَيَّامِ النَّحِسَاتِ.

وَأَضَافَ الْعَذَابَ إِلَى الْخِزْيِ، وَهُوَ الذُّلُّ وَالِاسْتِكَانَةُ عَلَى أَنَّهُ وَصْفٌ لِلْعَذَابِ، كَأَنَّهُ قَالَ: عَذَابُ خِزْيٍ، كَمَا تَقُولُ: فَعَلَ السُّوءَ، تُرِيدُ: الْفِعْلَ السَّيِّئَ.

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ: قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى﴾[2]، وَهُوَ مِنَ الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ، وَوَصْفُ الْعَذَابِ بِالْخِزْيِ: أَبْلَغُ مِنْ وَصْفِهِمْ بِهِ.

أَلَا تَرَى إِلَى الْبَوْنِ بَيْنَ قَوْلَيْكَ: هُوَ شَاعِرٌ، وَلَهُ شِعْرُ شَاعِرٍ؟!

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[3]

وَقُرِئَ: (ثَمُودُ) بِالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ مُنَوَّنًا وَغَيْرَ مُنَوَّنٍ، وَالرَّفْعُ أَفْصَحُ لِوُقُوعِهِ بَعْدَ حَرْفِ الِابْتِدَاءِ.

---

[1] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[2] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[3] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

وَقُرِئَ بِضَمِّ الثَّاءِ. "فَهَدَيْنَاهُمْ" فَدَلَلْنَاهُمْ عَلَى طَرِيقَيِ الضَّلَالَةِ وَالرُّشْدِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى- ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[1].

﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾[2]، فَاخْتَارُوا الدُّخُولَ فِي الضَّلَالَةِ عَلَى الدُّخُولِ فِي الرُّشْدِ.

فَإِنْ قُلْتُ: أَلَيْسَ مَعْنَى هَدِيَّتِهِ: حَصَلَتْ فِيهِ الْهُدَى، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُكَ: هَدِيَّتُهُ فَاهْتَدَى، بِمَعْنَى: تَحْصِيلُ الْبُغْيَةِ وَحُصُولُهَا، كَمَا تَقُولُ: رَدَعْتُهُ فَارْتَدَعَ، فَكَيْفَ سَاغَ اسْتِعْمَالُهُ فِي الدَّلَالَةِ الْمُجَرَّدَةِ؟

قُلْتُ: لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ مَكَّنَهُمْ وَأَزَاحَ عِلَلَهُمْ وَلَمْ يُبْقِ لَهُ عُذْرًا وَلَا عِلَّةً، فَكَأَنَّهُ حَصَلَ الْبُغْيَةَ فِيهِمْ بِتَحْصِيلِ مَا يُوجِبُهَا وَيَقْتَضِيهَا.

﴿صَاعِقَةُ الْعَذَابِ﴾[3] دَاهِيَةُ الْعَذَابِ وَقَارِعَةُ الْعَذَابِ.

وَ﴿الْهُونِ﴾[4] الْهَوَانِ، وَصَفَ بِهِ الْعَذَابَ مُبَالَغَةً، أَوْ أَبْدَلَهُ مِنْهُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْقُرْآنِ حُجَّةٌ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ هُمْ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِشَهَادَةِ نَبِيِّهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَفَى بِهِ شَاهِدًا إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ، لَكَفَى بِهَا حُجَّةً.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[5]

قُرِئَ: (يَحْشُرُ) عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ.

وَنَحْشُرُ بِالنُّونِ وَضَمِّ الشِّينِ وَكَسْرِهَا، وَيَحْشُرُ: عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ، أَيْ: يَحْشُرُ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- ﴿أَعْدَاءُ اللَّهِ﴾[6] الْكَفَّارَ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ.

---

[1] سورة الْبَلَد، الآية 10.

[2] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[3] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[4] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[5] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[6] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

﴿يُوزَعُونَ﴾[1]، أَيْ: يَحْبِسُ أَوَّلُهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ، أَيْ: يَسْتَوْقِفُ سَوَابِقُهُمْ حَتَّى يَلْحَقَ بِهِمْ تُوَالِيهِمْ، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ كَثْرَةِ أَهْلِ النَّارِ، نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُجِيرَنَا مِنْهَا بِسِعَةِ رَحْمَتِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿مَا﴾[2] في قَوْلِهِ: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾[3] مَا هِيَ؟

قُلْتُ: مَزِيدَةٌ لِلتَّأْكِيدِ، وَمَعْنَى التَّأْكِيدِ فيها: أَنَّ وَقْتَ مَجِيئِهِمُ النَّارَ لَا مَحَالَةَ أَنْ يَكُونَ وَقْتَ الشَّهَادَةِ عَلَيْهِمْ، وَلَا وَجْهَ لِأَنْ يَخْلُوَ مِنْهَا.

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾[4]، أَيْ: لَا بُدَّ لِوَقْتِ وُقُوعِهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ وَقْتَ إِيمَانِهِمْ بِهِ شَهَادَةُ الْجُلُودِ بِالْمُلَامَسَةِ لِلْحَرَامِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِمَّا يُفْضِي إِلَيْهَا مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَعْضَاؤُهُمْ وَكَيْفَ تَنْطِقُ؟

قُلْتُ: اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ– يَنْطِقُهَا كَمَا أَنْطَقَ الشَّجَرَةَ بِأَنْ يَخْلُقَ فيها كَلَامًا. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْجُلُودِ: الْجَوَارِحُ.

وَقِيلَ: هِيَ كِنَايَةٌ عَنِ الْفُرُوجِ، أَرَادَ بِكُلِّ شَيْءٍ: كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْحَيَوَانِ، كَمَا أَرَادَ بِهِ في قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[5]: كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْمَقْدُورَاتِ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ نُطْقَنَا لَيْسَ بِعَجَبٍ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ الَّذِي قَدَرَ عَلَى إِنْطَاقِ كُلِّ حَيَوَانٍ، وَعَلَى خَلْقِكُمْ وَإِنْشَائِكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَعَلَى إِعَادَتِكُمْ وَرَجْعِكُمْ إِلَى جَزَائِهِ.

وَإِنَّمَا قَالُوا لَهُمْ: ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾[6] لَمَّا تَعَاظَمَهُمْ مِنْ شَهَادَتِهَا وَكَبُرَ عَلَيْهِمْ مِنَ الِافْتِضَاحِ عَلَى أَلْسِنَةِ جَوَارِحِهِمْ.

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ

---

[1] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[2] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[3] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[4] سورة يُونُس، الآية 51.

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية 284.

[6] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1]

وَالْمَعْنَى: أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ بِالْحِيطَانِ وَالْحَجْبُ عِنْدَ ارْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ، وَمَا كَانَ اسْتِتَارُكُمْ ذَلِكَ خِيفَةَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ جَوَارِحُكُمْ، لِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ غَيْرَ عَامِلِينَ بِشَهَادَتِهَا عَلَيْكُمْ، بَلْ كُنْتُمْ جَاحِدِينَ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ أَصْلًا، وَلَكِنَّكُمْ إِنَّمَا اسْتَتَرْتُمْ لِظَنِّكُمْ ﴿أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا﴾[2] كُنْتُمْ ﴿تَعْمَلُونَ﴾[3]، وَهُوَ الْخِفيات مِنْ أَعْمَالِكُمْ، وَذَلِكَ الظَّنُّ هُوَ الَّذِي أَهْلَكَكُمْ.

وَفِي هَذَا تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ مِنْ حَقِّ الْمُؤْمِنِ أَنْ لَا يَذْهَبَ عَنْهُ، وَلَا يَزَلْ عَنْ ذِهْنِهِ أَنَّ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ عَيْنًا كَالِئَةً وَرَقِيبًا مُهَيْمِنًا، حَتَّى يَكُونَ فِي أَوْقَاتِ خَلَوَاتِهِ مِنْ رَبِّهِ أَهْيَبُ وَأَحْسَنُ احْتِشَامًا وَأَوْفَرُ تَحَفُّظًا وَتَصَوُّنًا مِنْهُ مَعَ الْمَلَإِ، وَلَا يَتَبَسَّطُ فِي سِرِّهِ مُرَاقَبَةً مِنَ التَّشَبُّهِ بِهَؤُلَاءِ الظَّانِّينَ.

وَقُرِئَ: (وَلَكِنْ زَعَمْتُمْ) ﴿وَذَلِكُمْ﴾[4] رَفْعٌ بِالِابْتِدَاءِ، و﴿ظَنُّكُمُ﴾[5] وَ﴿أَرْدَاكُمْ﴾[6] خَبَرَانِ؛ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿ظَنُّكُمُ﴾[7] بَدَلًا مِنْ ﴿وَذَلِكُمْ﴾ وَ﴿أَرْدَاكُمْ﴾[8] الْخَبَرُ.

﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾[9]

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
5 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
6 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
7 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
8 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
9 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا﴾[1] لَمْ يَنْفَعْهُمُ الصَّبْرُ، وَلَمْ يَنْفَكُّوا بِهِ مِنَ الثَّوَاءِ فِي النَّارِ، ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا﴾[2]: وَإِنْ يَسْأَلُوا الْعُتْبَى وَهِيَ الرُّجُوعُ لَهُمْ إِلَى مَا يُحِبُّونَ جَزَعًا مِمَّا هُمْ فِيهِ: لَمْ يَعْتِبُوا: لَمْ يُعْطُوا الْعُتْبَى وَلَمْ يُجَابُوا إِلَيْهَا، وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ –عَزَّ وَعَلَا–: ﴿أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾[3].

وَقُرِئَ: (وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ)، أَيْ: إِنْ سَأَلُوا أَنْ يَرْضَوْا رَبَّهُمْ فَمَا هُمْ فَاعِلُونَ، أَيْ: لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى ذَلِكَ.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾[4]: وَقَدَّرْنَا لَهُمْ، يَعْنِي لِمُشْرِكِي مَكَّةَ، يُقَالُ: هَذَانَ ثَوْبَانِ قَيِّضَانِ: إِذَا كَانَا مُتَكَافِئَيْنِ. وَالْمُقَايَضَةُ: الْمُعَاوَضَةُ.

﴿قُرَنَاءَ﴾[5] أَخْدَانًا مِنَ الشَّيَاطِينِ جَمْعُ قَرِينٍ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[6].

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جَازَ أَنْ يُقَيِّضَ لَهُمُ الْقُرَنَاءُ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَهُوَ يَنْهَاهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ خُطُوَاتِهِمْ؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ أَنَّهُ خَذَلَهُمْ وَمَنَعَهُمُ التَّوْفِيقَ، لِتَصْمِيمِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ قُرَنَاءُ سِوَى الشَّيَاطِينِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ: ﴿وَمَنْ يَعْشُ﴾[7] نَقِيضُ.

﴿أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾[8] مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَمَا هُمْ عَازِمُونَ عَلَيْهَا، أَوْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ، وَمَا خَلْفَهُمْ: مِنْ أَمْرِ الْعَاقِبَةِ، وَأَنْ لَا بَعْثَ وَلَا حِسَابَ.

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾[9]، يَعْنِي كَلِمَةَ الْعَذَابِ ﴿فِي أُمَمٍ﴾[10] فِي جُمْلَةِ أُمَمٍ.

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
3 سورة إِبْرَاهِيم، الآية 21.
4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
5 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
6 سورة الزُّخْرُف، الآية 36.
7 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
8 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
9 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
10 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

وَمَثَّلَ في هَذِهِ مَا في قَوْلِهِ:

إِنْ تَكُ عَنْ أَحْسَنِ الصَّنِيعَةِ مَأْ فُوكًا فَفِي آخَرِينَ قَدْ أُفِكُوا

يُرِيدُ: فَأَنْتَ في جُمْلَةِ آخَرِينَ، وَأَنْتَ في عِدَادِ آخَرِينَ لَسْتَ في ذَلِكَ بِأَوْحَدَ. فَإِنْ قُلْتَ: "فِي أُمَمٍ" مَا مَحِلُّهُ؟ قُلْتُ: مَحِلُّهُ النَّصْبُ عَلَى الْحَالِ مِنَ الضَّمِيرِ في ﴿عَلَيْهِمْ﴾[1] أَيْ: حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ كَائِنِينَ في جُمْلَةِ أُمَمٍ.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾[2]: تَعْلِيلٌ لِاسْتِحْقَاقِهِمُ الْعَذَابَ.

وَالضَّمِيرُ: لَهُمْ وَلِلْأُمَمِ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[3]

قُرِئَ: (وَالْغُوا فيهِ) بِفَتْحِ الْغَيْنِ وَضَمِّهَا. وَيُقَالُ: لَغَى يَلْغَى، وَلَغَا يَلْغُو: السَّاقِطُ مِنَ الْكَلَامِ الَّذِي لَا طَائِلَ تَحْتَهُ. قَالَ: مِنَ اللَّغَا وَرَفْثِ التَّكَلُّمِ.

وَالْمَعْنَى: لَا تَسْمَعُوا لَهُ إِذَا قُرِئَ، وَتَشَاغَلُوا عِنْدَ قِرَاءَتِهِ بِرَفْعِ الْأَصْوَاتِ بِالْخُرَافَاتِ وَالْهَذَيَانِ وَالزَّمْلِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، حَتَّى تَخْلِطُوا عَلَى الْقَارِئِ وَتُشَوِّشُوا عَلَيْهِ وَتَغْلِبُوهُ عَلَى قِرَاءَتِهِ. كَانَتْ قُرَيْشٌ يُوصِي بِذَلِكَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[4] يَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِالَّذِينِ كَفَرُوا: هَؤُلَاءِ اللَّاغِينَ وَالْآمِرِينَ لَهُمْ بِاللَّغْوِ خَاصَّةً، وَأَنْ يَذْكُرَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَامَّةً لِيَنْطَوُوا تَحْتَ ذِكْرِهِمْ. قَدْ ذَكَرْنَا إِضَافَةَ أَسْوَأَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾[5] يَوْمَ بَدْرٍ.

---

[1] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[2] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[3] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[4] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[5] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

وَ﴿أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1] فِي الْآخِرَةِ.

﴿ذَلِكَ﴾[2] إِشَارَةٌ إِلَى الْأَسْوَأِ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ: أَسْوَأُ جَزَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ، حَتَّى تَسْتَقِيمَ هَذِهِ الْإِشَارَةُ.

وَ﴿النَّارِ﴾[3] عَطْفُ بَيَانٍ لِلْجَزَاءِ، أَوْ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾[4]؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ أَنَّ النَّارَ فِي نَفْسِهَا دَارُ الْخُلْدِ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[5].

وَالْمَعْنَى: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، وَتَقُولُ: لَكَ فِي هَذِهِ الدَّارِ دَارُ السُّرُورِ. وَأَنْتَ تَعْنِي الدَّارَ بِعَيْنِهَا ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[6]، أَيْ: جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَلْغُونَ فيها، فَذَكَرَ الْجَحُودَ الَّذِي سَبَّبَ اللَّغْوَ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾[7]

﴿اللَّذَيْنِ أَضَلانَا﴾[8]، أَيِ: الشَّيْطَانَيْنِ اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ﴾[9]، لِأَنَّ الشَّيْطَانَ عَلَى ضَرْبَيْنِ: جَنِّيٌّ وَإِنْسِيٌّ.

قَالَ اللَّهُ -تَعَالَى-: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾[10]، وَقَالَ -تَعَالَى-: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾[11].

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

5 سورة الْأَحْزَاب، الآية 21.

6 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

7 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

8 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

9 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

10 سورة الْأَنْعَام، الآية 112.

وَقِيلَ: هُمَا إِبْلِيسُ وَقَابِيلُ، لِأَنَّهُمَا سَنَّا الْكُفْرَ وَالْقَتْلَ بِغَيْرِ حَقٍّ. وَقُرِئَ: (أَرِنَا) بِسُكُونِ الرَّاءِ لِثِقَلِ الْكَسْرَةِ، كَمَا قَالُوا في فَخْذٌ: فَخِذٌ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَعْطِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا.

وَحَكَوْا عَنِ الْخَلِيلِ: أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: أَرِنِي ثَوْبَكَ بِالْكَسْرِ، فَالْمَعْنَى: بَصِّرْنِيهِ. وَإِذَا قُلْتَهُ بِالسُّكُونِ، فَهُوَ اسْتِعْطَاءٌ، مَعْنَاهُ: أَعْطِنِي ثَوْبَكَ، وَنَظِيرُهُ: اشْتِهَارُ الْإِيتَاءِ في مَعْنَى الْإِعْطَاءِ، وَأَصْلُهُ: الْإِحْضَارُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾[1]

﴿ثُمَّ﴾[2] لِتَرَاخِي الِاسْتِقَامَةِ عَنِ الْإِقْرَارِ في الْمَرْتَبَةِ. وَفَضَّلَهَا عَلَيْهِ، لِأَنَّ الِاسْتِقَامَةَ لَهَا الشَّأْنُ كُلُّهُ.

وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾[3].

وَالْمَعْنَى: ثُمَّ ثَبَتُوا عَلَى الْإِقْرَارِ وَمُقْتَضَيَاتِهِ.

وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: اسْتَقَامُوا فِعْلًا كَمَا اسْتَقَامُوا قَوْلًا. وَعَنْهُ: أَنَّهُ تَلَاهَا ثُمَّ قَالَ: مَا تَقُولُونَ فيها؟ قَالُوا: لَمْ يُذْنِبُوا. قَالَ: حَمَلْتُمُ الْأَمْرَ عَلَى أَشُدِّهِ. قَالُوا: فَمَا تَقُولُ؟ قَالَ: لَمْ يَرْجِعُوا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ.

وَعَنْ عُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَمْ يَرُوغُوا رَوَغَانَ الثَّعَالِبِ.

وَعَنْ عُثْمَانَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: أَخْلَصُوا الْعَمَلَ.

وَعَنْ عَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: أَدُّوا الْفَرَائِضَ.

وَقَالَ سُفيانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفى –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ. قَالَ: "قُلْ رَبِّيَ اللَّهُ، ثُمَّ اسْتَقِمْ" قَالَ: فَقُلْتُ: مَا أَخْوَفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟

---

11 سورة النَّاس، الآيتان 5 – 6.

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

3 سورة الْحُجُرَات، الآية 15.

فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِلِسَانِ نَفْسِهِ فَقَالَ: "هَذَا ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾[1] عِنْدَ الْمَوْتِ بِالْبُشْرَى".

وَقِيلَ: الْبُشْرَى فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ: عِنْدَ الْمَوْتِ، وَفِي الْقَبْرِ، وَإِذَا قَامُوا مِنْ قُبُورِهِمْ، ﴿أَلَا تَخَافُوا﴾[2] "أَنْ" بِمَعْنَى أَيْ، أَوْ مُخَفَّفَةً مِنَ الثَّقِيلَةِ. وَأَصْلُهُ: بِأَنَّهُ لَا تَخَافُوا، وَالْهَاءُ ضَمِيرُ الشَّأْنِ.

وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: لَا تَخَافُوا، أَيْ: يَقُولُونَ: لَا تَخَافُوا، وَالْخَوْفُ: غَمٌّ يَلْحَقُ لِتَوَقُّعِ الْمَكْرُوهِ، وَالْحُزْنِ: غَمٌّ يَلْحَقُ لِوُقُوعِهِ، مِنْ فَوَاتِ نَافِعٍ أَوْ حُصُولِ ضَارٍّ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ كَتَبَ لَكُمُ الْأَمْنَ مِنْ كُلِّ غَمٍّ، فَلَنْ تَذُوقُوهُ أَبَدًا. وَقِيلَ: لَا تَخَافُوا مَا تُقْدِمُونَ عَلَيْهِ، وَلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا خُلِّفْتُمْ. كَمَا أَنَّ الشَّيَاطِينَ قُرَنَاءُ الْعُصَاةِ وَإِخْوَانُهُمْ، فَكَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ أَوْلِيَاءُ الْمُتَّقِينَ وَأَحِبَّاؤُهُمْ فِي الدَّارَيْنِ.

﴿تَدْعُونَ﴾[3] تَتَمَنَّوْنَ: وَالنُّزُلُ: رِزْقُ التَّنْزِيلِ وَهُوَ الضَّيْفُ، وَانْتِصَابُهُ عَلَى الْحَالِ .

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[4]

﴿مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾[5] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– دَعَا إِلَى الْإِسْلَامِ.

﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾[6] فيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، وَجَعَلَ الْإِسْلَامَ نِحْلَةً لَهُ.

وَعَنْهُ: أَنَّهُمْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
5 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
6 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

وَعَنْ عَائِشَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا–: مَا كُنَّا نَشُكُّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْمُؤَذِّنِينَ، وَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ هَذِهِ الثَّلَاثِ: أَنْ يَكُونَ مُوَحِّدًا مُعْتَقِدًا لِدِينِ الْإِسْلَامِ، عَامِلًا بِالْخَيْرِ دَاعِيًا إِلَيْهِ، وَمَا هُمْ إِلَّا طَبَقَةُ الْعَالِمِينَ الْعَامِلِينَ مِنْ أَهْلِ الْعَدْلِ وَالتَّوْحِيدِ، الدُّعَاةُ إِلَى دِينِ اللَّهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1] لَيْسَ الْغَرَضُ أَنَّهُ تَكَلَّمَ بِهَذَا الْكَلَامِ، وَلَكِنْ جَعَلَ دِينَ الْإِسْلَامِ مَذْهَبَهُ وَمُعْتَقَدَهُ، كَمَا تَقُولُ: هَذَا قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ، تُرِيدُ مَذْهَبَهُ.

﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[2]

يَعْنِي: أَنَّ الْحَسَنَةَ وَالسَّيِّئَةَ مُتَفَاوِتَتَانِ فِي أَنْفُسِهِمَا فَخُذِ الْحَسَنَةَ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ مِنْ أُخْتِهَا –إِذَا اعْتَرَضَتْكَ حَسَنَتَانِ–، فَادْفَعْ بِهَا السَّيِّئَةَ الَّتِي تُرَدُّ عَلَيْكَ مِنْ بَعْضِ أَعْدَائِكَ.

وَمِثَالُ ذَلِكَ: رَجُلٌ أَسَاءَ إِلَيْكَ إِسَاءَةً، فَالْحَسَنَةُ: أَنْ تَعْفُوَ عَنْهُ، وَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ: أَنْ تُحْسِنَ إِلَيْهِ مَكَانَ إِسَاءَتِهِ إِلَيْكَ، مِثْلَ أَنْ يَذُمَّكَ فَتَمْدَحُهُ وَيَقْتُلُ وَلَدَكَ فَتَفْتَدِي وَلَدَهُ مِنْ يَدِ عَدُوِّهِ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ انْقَلَبَ عَدُوُّكَ الْمُشَاقُّ مِثْلَ الْوَلِيِّ الْحَمِيمِ مُصَافَاةً لَكَ.

ثُمَّ قَالَ: وَمَا يَلْقَى هَذِهِ الْخَلِيقَةَ أَوِ السَّجِيَّةَ الَّتِي هِيَ مُقَابَلَةُ الْإِسَاءَةِ بِالْإِحْسَانِ إِلَّا أَهْلُ الصَّبْرِ، وَإِلَّا رَجُلُ خَيْرٍ وَفِّقَ لِحَظٍّ عَظِيمٍ مِنَ الْخَيْرِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَهَلَّا قِيلَ: فَادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ؟

قُلْتُ: هُوَ عَلَى تَقْدِيرِ قَائِلٍ قَالَ: فَكَيْفَ أَصْنَعُ؟ فَقِيلَ: ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ. وَقِيلَ: "لَا" مَزِيدَةٌ. وَالْمَعْنَى: وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَالسَّيِّئَةُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَكَانَ الْقِيَاسُ عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ أَنْ يُقَالَ: ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ حَسَنَةٌ، قَالَ: أَجَلْ، وَلَكِنْ وَضَعَ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ مَوْضِعَ الْحَسَنَةِ، لِيَكُونَ أَبْلَغَ فِي الدَّفْعِ بِالْحَسَنَةِ، لِأَنَّ مَنْ دَفَعَ بِالْحُسْنَى هَانَ عَلَيْهِ الدَّفْعُ بِمَا هُوَ دُونَهَا.

---

[1] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[2] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1] الصَّبْرُ عِنْدَ الْغَضَبِ، وَالْحُلْمِ عِنْدَ الْجَهْلِ، وَالْعَفْوِ عِنْدَ الْإِسَاءَةِ، وَفَسَّرَ الْحَظَّ بِالثَّوَابِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ –رَحِمَهُ اللَّهُ–: وَاللَّهُ مَا عَظُمَ حَظٌّ دُونَ الْجَنَّةِ.

وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ، وَكَانَ عَدُوًّا مُؤْذِيًا لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَصَارَ وَلِيًّا مُصَافِيًا.

﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2]

النَّزْغَ وَالنَّسْغَ بِمَعْنًى، وَهُوَ شِبْهُ النَّخْسِ. وَالشَّيْطَانُ يَنْزَغُ الْإِنْسَانَ كَأَنَّهُ يَنْخُسُهُ بِبَعْثِهِ عَلَى مَا لَا يَنْبَغِي. وَجَعَلَ النَّزْغَ نَازِغًا، كَمَا قِيلَ: جَدَّ جَدُّهُ.

أَوْ أُرِيدُ: وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ نَازِغٌ وَصْفًا لِلشَّيْطَانِ بِالْمَصْدَرِ، أَوْ لِتَسْوِيلِهِ.

وَالْمَعْنَى: وَإِنْ صَرَفَكَ الشَّيْطَانُ عَمَّا وُصِّيتَ بِهِ مِنَ الدَّفْعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾[3] مِنْ شَرِّهِ، وَامْضِ عَلَى شَأْنِكَ وَلَا تُطِعْهُ.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾[4]

---

[1] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[2] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[3] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[4] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

الضَّمِيرُ في ﴿خَلَقَهُنَّ﴾[1] لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، لِأَنَّ حُكْمَ جَمَاعَةِ مَا لَا يُعْقَلُ حُكْمَ الْأُنْثَى أَوِ الْإِنَاثِ. يُقَالُ: الْأَقْلَامُ بَرَيْتُهَا وَبَرَيْتُهُنَّ، أَوْ لَمَّا قَالَ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾[2] "كُنْ" في مَعْنَى الْآيَاتِ، فَقِيلَ: خَلَقَهُنَّ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَيْنَ مَوْضِعُ السَّجْدَةِ؟

قُلْتُ: عِنْدَ الشَّافِعِيِّ –رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى–: ﴿تَعْبُدُونَ﴾[3]، وَهِيَ رِوَايَةُ مَسْرُوقٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ لِذِكْرِ لَفْظِ السَّجْدَةِ قَبْلَهَا.

وَعِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ –رَحِمَهُ اللَّهُ–: يَسْأَمُونَ، لِأَنَّهَا تَمَامُ الْمَعْنَى، وَهِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ: لَعَلَّ نَاسًا مِنْهُمْ كَانُوا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ كَالصَّابِئِينَ في عِبَادَتِهِمُ الْكَوَاكِبَ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَقْصِدُونَ بِالسُّجُودِ لَهُمَا السُّجُودُ لِلَّهِ، فَنُهُوا عَنْ هَذِهِ الْوَاسِطَةِ، وَأُمِرُوا أَنْ يَقْصِدُوا بِسُجُودِهِمْ وَجْهَ اللَّهِ –تَعَالَى– خَالِصًا، وَإِنْ كَانُوا إِيَّاهُ يَعْبُدُونَ وَكَانُوا مُوَحِّدِينَ غَيْرَ مُشْرِكِينَ.

﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾[4] وَلَمْ يَمْتَثِلُوا مَا أُمِرُوا بِهِ وَأَبَوْا إِلَّا الْوَاسِطَةَ فَدَعْهُمْ وَشَأْنَهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ –عَزَّ سُلْطَانُهُ– لَا يَعْدَمُ عَابِدًا وَلَا سَاجِدًا بِالْإِخْلَاصِ، وَلَهُ الْعِبَادُ الْمُقَرَّبُونَ الَّذِينَ يُنَزِّهُونَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ عَنِ الْأَنْدَادِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾[5] عِبَارَةٌ عَنِ الزُّلْفَى وَالْمَكَانَةِ وَالْكَرَامَةِ. وَقُرِئَ: (لَا يَسْأَمُونَ) بِكَسْرِ الْيَاءِ.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[6]

---

1 سورة ، الآية .

2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

5 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

6 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

الْخُشُوعُ: التَّذَلُّلُ وَالتَّصَاغُرُ، فَاسْتُعِيرَ لِحَالِ الْأَرْضِ إِذَا كَانَتْ قَحْطَةً لَا نَبَاتَ فيها، كَمَا وَصَفَهَا بِالْهُمُودِ في قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً﴾[1]، وَهُوَ خِلَافُ وَصْفِهَا بِالِاهْتِزَازِ وَالرُّبُوِّ، وَهُوَ الِانْتِفَاخُ، إِذَا أَخْصَبَتْ وَتَزَخْرَفَتْ بِالنَّبَاتِ كَأَنَّهَا بِمَنْزِلَةِ الْمُخْتَالِ في زِيِّهِ، وَهِيَ قَبْلَ ذَلِكَ كَالذَّلِيلِ الْكَاسِفِ الْبَالِ في الْأَطْمَارِ الرَّثَّةِ. وَقُرِئَ (وَرَبَأَتْ)، أَيْ ارْتَفَعَتْ، لِأَنَّ النَّبْتَ إِذَا هَمَّ أَنْ يَظْهَرَ ارْتَفَعَتْ لَهُ الْأَرْضُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[2]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[4]

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ اتَّصَلَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾[5]؟

قُلْتُ: هُوَ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾[6].

وَالذِّكْرُ: الْقُرْآنُ، لِأَنَّهُمْ لِكُفْرِهِمْ بِهِ طَعَنُوا فيهِ وَحَرَّفُوا تَأْوِيلَهُ.

---

1 سورة الْحَجُّ، الآية 55.

2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

5 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

6 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾[1]، أَيْ: مَنِيعٌ مُحْمَى بِحِمَايَةِ اللَّهِ –تَعَالَى–، ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾[2]، مَثَلٌ كَأَنَّ الْبَاطِلَ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ وَلَا يَجِدُ إِلَيْهِ سَبِيلًا مِنْ جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهِ وَيَتَعَلَّقَ بِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَمَا طَعَنَ فيهِ الطَّاعِنُونَ، وَتَأَوَّلَهُ الْمُبْطِلُونَ؟

قُلْتُ: بَلَى، وَلَكِنَّ اللَّهَ قَدْ تَقَدَّمَ في حِمَايَتِهِ عَنْ تَعَلُّقِ الْبَاطِلِ بِهِ بِأَنْ قَيَّضَ قَوْمًا عَارَضُوهُمْ بِإِبْطَالِ تَأْوِيلِهِمْ وَإِفْسَادِ أَقَاوِيلِهِمْ، فَلَمْ يَخْلُوا طَعْنُ طَاعِنٍ إِلَّا مَمْحُوقًا، وَلَا قَوْلَ مُبْطِلٍ إِلَّا مُضْمَحِلًّا.

وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[3].

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾[4]

﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾[5]، أَيْ: مَا يَقُولُ لَكَ كُفَّارُ قَوْمِكَ إِلَّا مِثْلَ مَا قَالَ لِلرُّسُلِ كُفَّارُ قَوْمِهِمْ مِنَ الْكَلِمَاتِ الْمُؤْذِيَةِ وَالْمَطَاعِنِ في الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾[6] وَرَحْمَةً لِأَنْبِيَائِهِ ﴿وَذُو عِقَابٍ﴾[7] لِأَعْدَائِهِمْ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ: مَا يَقُولُ لَكَ اللَّهُ إِلَّا مِثْلَ مَا قَالَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ، وَالْمَقُولُ: هُوَ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾[8]، فَمِنْ حَقِّهِ أَنْ يَرْجُوَهُ أَهْلُ طَاعَتِهِ وَيَخَافَهُ أَهْلُ مَعْصِيَتِهِ، وَالْغَرَضُ: تَخْوِيفُ الْعُصَاةِ.

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية 40.
2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
3 سورة الْحِجْر، الآية 9.
4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
5 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
6 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
7 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
8 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾[1]

كَانُوا لِتَعَنُّتِهِمْ يَقُولُونَ: هَلَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلُغَةِ الْعَجَمِ، فَقِيلَ: لَوْ كَانَ كَمَا يَقْتَرِحُونَ لَمْ يَتْرُكُوا الِاعْتِرَاضَ وَالتَّعَنُّتَ. وَقَالُوا: ﴿لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾[2]، أَيْ: بُيِّنَتْ وَلُخِّصَتْ بِلِسَانٍ تَفْقَهُهُ.

﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾[3] الْهَمْزَةُ هَمْزَةُ الْإِنْكَارِ، يَعْنِي: لَأَنْكَرُوا وَقَالُوا: أَقُرْآنٌ أَعْجَمِيٌّ وَرَسُولٌ عَرَبِيٌّ، أَوْ مُرْسَلٌ إِلَيْهِ عَرَبِيٌّ، وَقُرِئَ (أَعْجَمِيٌّ) وَالْأَعْجَمِيُّ: الَّذِي لَا يُفْصِحُ وَلَا يُفْهَمُ كَلَامُهُ مِنْ أَيِّ جِنْسٍ كَانَ، وَالْعَجَمِيُّ: مَنْسُوبٌ إِلَى أُمَّةِ الْعَجَمِ. وَفِي قِرَاءَةِ الْحَسَنِ: (أَعْجَمِيٌّ) بِغَيْرِ هَمْزَةِ الِاسْتِفْهَامِ عَلَى الْإِخْبَارِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ أَعْجَمِيٌّ، وَالْمُرْسَلُ أَوِ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِ عَرَبِيٌّ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ آيَاتِ اللَّهِ عَلَى أَيِّ طَرِيقَةٍ جَاءَتْهُمْ وَجَدُوا فِيهَا مُتَعَنَّتًا، لِأَنَّ الْقَوْمَ غَيْرُ طَالِبِينَ لِلْحَقِّ وَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ.

وَيَجُوزُ فِي قِرَاءَةِ الْحَسَنِ: هَلَّا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ تَفْصِيلًا، فَجَعَلَ بَعْضَهَا بَيَانًا لِلْعَجَمِ، وَبَعْضَهَا بَيَانًا لِلْعَرَبِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يُرَادَ بِالْعَرَبِيِّ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ وَهُمْ أُمَّةُ الْعَرَبِ؟ قُلْتُ: هُوَ عَلَى مَا يَجِبُ أَنْ يَقَعَ فِي إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ لَوْ رَأَى كِتَابًا أَعْجَمِيًّا كُتِبَ إِلَى قَوْمٍ مِنَ الْعَرَبِ يَقُولُ: كِتَابٌ أَعْجَمِيٌّ وَمَكْتُوبٌ إِلَيْهِ عَرَبِيٌّ، وَذَلِكَ لِأَنَّ مَبْنَى الْإِنْكَارِ عَلَى تَنَافُرِ حَالَتَيِ الْكِتَابِ وَالْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ، لَا عَلَى أَنَّ الْمَكْتُوبَ إِلَيْهِ وَاحِدٌ أَوْ جَمَاعَةٌ، فَوَجَبَ أَنْ يُجَرَّدَ لِمَا سِيقَ إِلَيْهِ مِنَ الْغَرَضِ، وَلَا يُوصَلُ بِهِ مَا يُخِلُّ غَرَضًا آخَرَ.

أَلَا تَرَاكَ تَقُولُ –وَقَدْ رَأَيْتُ لِبَاسًا طَوِيلًا عَلَى امْرَأَةٍ قَصِيرَةٍ–: اللِّبَاسُ طَوِيلٌ وَاللَّابِسُ قَصِيرٌ؟

---

[1] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[2] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[3] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

وَلَوْ قُلْتَ: وَاللَّابِسَةُ قَصِيرَةٌ، جِئْتَ بِمَا هُوَ، لُكَنَةً وَفُضُولُ قَوْلٍ، لِأَنَّ الْكَلَامَ لَمْ يَقَعْ فِي ذُكُورَةِ اللَّابِسِ وَأُنُوثَتِهِ، إِنَّمَا وَقَعَ فِي غَرَضٍ وَرَاءَهُ.

﴿هُوَ﴾[1]، أَيِ: الْقُرْآنُ، ﴿هُدًى وَشِفَاءٌ﴾[2]: إِرْشَادٌ إِلَى الْحَقِّ وَشِفَاءٌ، ﴿لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾[3] مِنَ الظَّنِّ وَالشَّكِّ.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾[4] مُنْقَطِعٌ عَنْ ذِكْرِ الْقُرْآنِ، فَمَا وَجْهُ اتِّصَالِهِ بِهِ؟

قُلْتُ: لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ (الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) فِي مَوْضِعِ الْجَرِّ مَعْطُوفًا عَلَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[5] عَلَى مَعْنَى قَوْلِكَ: هُوَ لِلَّذِينِ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ، وَهُوَ لِلَّذِينِ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ، إِلَّا أَنَّ فِيهِ عَطْفًا عَلَى عَامِلِينَ وَإِنْ كَانَ الْأَخْفَشُ يُجِيزُهُ. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مَرْفُوعًا عَلَى تَقْدِيرِ: وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ هُوَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ عَلَى حَذْفِ الْمُتَبَدَأِ، أَوْ فِي آذَانِهِمْ مِنْهُ وَقْرٌ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى.

وَقُرِئَ: (وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمٌّ) (وَعَمًى)، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾[6]، ﴿يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾[7]، يَعْنِي: أَنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَهُ وَلَا يَرْعَوْنَهُ أَسْمَاعَهُمْ؛ فَمَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ مِثْلُ مَنْ يَصِيحُ بِهِ مِنْ مَسَافَةٍ شَاطَّةٍ لَا يَسْمَعُ مِنْ مِثْلِهَا الصَّوْتُ فَلَا يَسْمَعُ النِّدَاءَ.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾[8]

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
5 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
6 سورة هُود، الآية 28.
7 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
8 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾[1]، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ حَقٌّ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ بَاطِلٌ. وَالْكَلِمَةُ السَّابِقَةُ: هِيَ الْعُدَّةُ بِالْقِيَامَةِ، وَأَنَّ الْخُصُومَاتِ تَفْصِلُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَقَضَى بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا.

قَالَ اللَّهُ -تَعَالَى-: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾[2]، وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[3]

﴿فَلِنَفْسِهِ﴾[4]: فَنَفْسُهُ نَفْعٌ.

﴿فَعَلَيْهَا﴾[5]: فَنَفْسُهُ ضُرٌّ.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ﴾[6]، فيعَذِّبُ غَيْرَ الْمُسِيءِ.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾[7]

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾[8]، أَيْ: إِذَا سُئِلَ عَنْهَا قِيلَ: اللَّهُ يَعْلَمُ، أَوْ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ. وَقُرِئَ (مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهِنَّ). وَالْكَمُّ -بِكَسْرِ الْكَافِ- وِعَاءُ الثَّمَرَةِ، كَجَفِّ الطَّلْعَةِ، أَيْ: وَمَا يَحْدُثُ شَيْءٌ مِنْ خُرُوجِ ثَمَرَةٍ وَلَا حَمْلَ حَامِلٍ وَلَا وَضْعَ وَاضِعٍ إِلَّا وَهُوَ عَالِمٌ

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

2 سورة الْقَمَر، الآية 46.

3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

5 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

6 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

7 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

8 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

بِهِ. يَعْلَمُ عَدَدَ أَيَّامِ الْحَمْلِ وَسَاعَاتِهِ وَأَحْوَالِهِ: مِنَ الْخِدَاجِ وَالتَّمَامِ، وَالذُّكُورَةِ وَالْأُنُوثَةِ، وَالْحُسْنِ وَالْقُبْحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾[1] أَضَافَهُمْ إِلَيْهِ -تَعَالَى- عَلَى زَعْمِهِمْ، وَبَيَانِهِ فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[2]، وَفِيهِ تَهَكُّمٌ وَتَقْرِيعٌ.

﴿آذَنَّاكَ﴾: أَعْلَمْنَاكَ ﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾[3]، أَيْ: مَا مِنَّا أَحَدٌ الْيَوْمَ -وَقَدْ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا- يَشْهَدُ بِأَنَّهُمْ شُرَكَاؤُكَ، أَيْ: مَا مِنَّا إِلَّا مَنْ هُوَ مُوَحِّدٌ لَكَ، أَوْ مَا مِنَّا مِنْ أَحَدٍ يُشَاهِدُهُمْ، لِأَنَّهُمْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَضَلَّتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ، لَا يُبْصِرُونَهَا فِي سَاعَةِ التَّوْبِيخِ، وَقِيلَ: هُوَ كَلَامُ الشُّرَكَاءِ، أَيْ: مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ يَشْهَدُ بِمَا أَضَافُوا إِلَيْنَا مِنَ الشَّرِكَةِ.

وَمَعْنَى ضَلَالِهِمْ عَنْهُمْ عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ: أَنَّهُمْ لَا يَنْفَعُونَهُمْ، فَكَأَنَّهُمْ ضَلُّوا عَنْهُمْ "وَظَنُّوا" وَأَيْقَنُوا. وَالْمَحِيصُ: الْمَهْرَبُ.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿آذَنَّاكَ﴾[4] إِخْبَارٌ بِإِيذَانٍ كَانَ مِنْهُمْ، فَإِذْ قَدْ آذَنُوا فَلِمَ سُئِلُوا؟

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يُعَادَ عَلَيْهِمْ: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾[5]؟ إِعَادَةً لِلتَّوْبِيخِ، وَإِعَادَتُهُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى سَبِيلِ الْحِكَايَةِ: دَلِيلٌ عَلَى إِعَادَةِ الْمُحْكَى.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: أَنَّكَ عَلِمْتَ مِنْ قُلُوبِنَا وَعَقَائِدِنَا الْآنَ أَنَّا لَا نَشْهَدُ تِلْكَ الشَّهَادَةَ الْبَاطِلَةَ، لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَهُ مِنْ نُفُوسِهِمْ فَكَأَنَّهُمْ أَعْلَمُوهُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِنْشَاءً لِلْإِيذَانِ وَلَا يَكُونُ إِخْبَارًا بِإِيذَانٍ قَدْ كَانَ، كَمَا تَقُولُ: أَعْلَمُ الْمُلْكَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْأَمْرِ كَيْتُ وَكَيْتُ.

﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا

---

[1] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[2] سورة الْقَصَص، الآية 62.

[3] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[4] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[5] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[1]

﴿مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾[2] مِنْ طَلَبِ السِّعَةِ فِي الْمَالِ وَالنِّعْمَةِ. وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: مِنْ دُعَاءٍ بِالْخَيْرِ.

﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾[3]، أَيِ: الضَّيِّقَةُ وَالْفَقْرُ، ﴿فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾[4] بُولِغَ فِيهِ مِنْ طَرِيقَيْنِ: مِنْ طَرِيقِ بِنَاءِ فَعَوَّلٍ، وَمِنْ طَرِيقِ التَّكْرِيرِ وَالْقُنُوطُ أَنْ يَظْهَرَ عَلَيْهِ أَثَرُ الْيَأْسِ فَيَتَضَاءَلُ وَيَنْكَسِرُ، أَيْ: يَقْطَعُ الرَّجَاءَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَرَوْحِهِ.

وَهَذِهِ صِفَةُ الْكَافِرِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[5].

وَإِذَا فَرَّجْنَا عَنْهُ بِصِحَّةٍ بَعْدَ مَرَضٍ أَوْ سِعَةٍ بَعْدَ ضِيقٍ قَالَ: ﴿هَذَا لِي﴾[6]، أَيْ: هَذَا حَقٌّ وَصَلَ إِلَيَّ، لِأَنِّي اسْتَوْجَبْتُهُ بِمَا عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ وَفَضْلٍ وَأَعْمَالِ بِرٍّ، أَوْ هَذَا لِي لَا يَزُولُ عَنِّي، وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾[7].

وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً إِنْ نَظُنُّ إِلا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[8]، يُرِيدُ: وَمَا أَظُنُّهَا تَكُونُ، فَإِنْ كَانَتْ عَلَى طَرِيقِ التَّوَهُّمِ "إِنَّ لِي" عِنْدَ اللَّهِ الْحَالَةُ الْحُسْنَى مِنَ الْكَرَامَةِ وَالنِّعْمَةِ، قَائِسًا أَمْرَ الْآخِرَةِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا.

وَعَنْ بَعْضِهِمْ: لِلْكَافِرِ أُمْنِيَّتَانِ، يَقُولُ فِي الدُّنْيَا: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾[9]. وَيَقُولُ فِي الْآخِرَةِ: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾[10].

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
5 سورة يُوسُف، الآية 87.
6 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
7 سورة الْأَعْرَاف، الآية 131.
8 سورة الْجَاثِيَة، الآية 32.
9 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
10 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ. فَلْنُخْبِرَنَّهُمْ بِحَقِيقَةِ مَا عَمِلُوا مِنَ الْأَعْمَالِ الْمُوجِبَةِ لِلْعَذَابِ، وَلِنُبْصِرَنَّهُمْ عَكْسَ مَا اعْتَقَدُوا فيها أَنَّهُمْ يَسْتَوْجِبُونَ عَلَيْهَا كَرَامَةً وَقُرْبَةً عِنْدَ اللَّهِ، ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾[1]، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَطَلَبًا لِلافْتِخَارِ وَالِاسْتِكْبَارِ لَا غَيْرُ، وَكَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ سَبَبُ الْغِنَى وَالصِّحَّةِ، وَأَنَّهُمْ مَحْقُوقُونَ بِذَلِكَ.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾[2]

هَذَا أَيْضًا ضَرْبٌ آخَرُ مِنْ طُغْيَانِ الْإِنْسَانِ إِذَا أَصَابَهُ اللَّهُ بِنِعْمَةٍ أَبْطَرَتْهُ النِّعْمَةُ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَلْقَ بُؤْسًا قَطُّ، فَنَسِيَ الْمُنْعِمَ وَأَعْرَضَ عَنْ شُكْرِهِ، ﴿وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾[3]، أَيْ: ذَهَبَ بِنَفْسِهِ وَتَكَبَّرَ وَتَعَظَّمَ. وَإِنَّ مَسَّهُ الضُّرُّ وَالْفَقْرُ: أَقْبَلَ عَلَى دَوَامِ الدُّعَاءِ وَأَخَذَ فِي الِابْتِهَالِ وَالتَّضَرُّعِ. وَقَدِ اسْتُعِيرَ الْعَرَضُ لِكَثْرَةِ الدُّعَاءِ وَدَوَامِهِ، وَهُوَ مِنْ صِفَةِ الْأَجْرَامِ وَيُسْتَعَارُ لَهُ الطَّوِيلُ أَيْضًا كَمَا اسْتُعِيرَ الْغِلَظُ بِشِدَّةِ الْعَذَابِ. وَقُرِئَ (وَنَأَى بِجَانِبِهِ) بِإِمَالَةِ الْأَلِفِ وَكَسْرِ النُّونِ لِلْإِتْبَاعِ. وَنَاءَ عَلَى الْقَلْبِ، كَمَا قَالُوا: رَاءٍ فِي رَأْيٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: حَقَّقَ لِي مَعْنَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾[4].

قُلْتُ: فِيهِ وَجْهَانِ: أَنْ يُوضَعَ جَانِبُهُ مَوْضِعَ نَفْسِهِ كَمَا ذَكَرْنَا فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾[5] أَنَّ مَكَانَ الشَّيْءِ وَجِهَتَهُ يَنْزِلُ مَنْزِلَةَ الشَّيْءِ نَفْسِهِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ:

.....وَتَقَيْتُ عَنْهُ مَقَامَ الذِّئْبِ.

.. ..

يُرِيدُ: وَنَفيتُ عَنْهُ الذِّئْبُ.

---

1 سورة الْفُرْقَان، الآية 23.

2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

5 سورة الزُّمَرُ، الآية 56.

وَمِنْهُ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾[1].

وَمِنْهُ قَوْلُ الْكِتَابِ: حَضَرَتْ فُلَانٌ وَمَجْلِسَهُ، وَكَتَبَتْ إِلَى جِهَتِهِ وَإِلَى جَانِبِهِ الْعَزِيزُ، يُرِيدُونَ نَفْسَهُ وَذَاتَهُ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: وَنَأَى بِنَفْسِهِ، كَقَوْلِهِمْ فِي الْمُتَكَبِّرِ: ذَهَبَ بِنَفْسِهِ، وَذَهَبَتْ بِهِ الْخُيَلَاءُ كُلَّ مَذْهَبٍ، وَعَصَفَتْ بِهِ الْخُيَلَاءُ، وَأَنْ يُرَادَ بِجَانِبِهِ: عَطْفُهُ، وَيَكُونُ عِبَارَةً عَنِ الِانْحِرَافِ وَالِازْوِرَارِ، كَمَا قَالُوا: ثَنَى عِطْفِهِ، وَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[2]

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾[3] أَخْبِرُونِي ﴿إِنْ كَانَ﴾[4] الْقُرْآنُ ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾[5]، يَعْنِي أَنَّ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ إِنْكَارِ الْقُرْآنِ وَتَكْذِيبِهِ لَيْسَ بِأَمْرٍ صَادِرٍ عَنْ حُجَّةٍ قَاطِعَةٍ حَصَلْتُمْ مِنْهَا عَلَى الْيَقِينِ وَثَلْجِ الصُّدُورِ، وَإِنَّمَا هُوَ قَبْلَ النَّظَرِ وَاتِّبَاعُ الدَّلِيلِ أَمْرٌ مُتَحَمِّلٌ، يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَأَنْ لَا يَكُونَ مِنْ عِنْدِهِ، وَأَنْتُمْ لَمْ تَنْظُرُوا وَلَمْ تَفْحَصُوا، فَمَا أَنْكَرْتُمْ أَنْ يَكُونَ حَقًّا وَقَدْ كَفَرْتُمْ بِهِ. فَأَخْبِرُونِي مَنْ أَضَلُّ مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ أَبْعَدْتُمُ الشَّوْطَ فِي مُشَاقَّتِهِ وَمُنَاصَبَتِهِ وَلَعَلَّهُ حَقٌّ فَأَهْلَكْتُمْ أَنْفُسَكُمْ؟

وَقَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[6] مَوْضُوعٌ مَوْضِعَ مِنْكُمْ، بَيَانًا لِحَالِهِمْ وَصِفَتِهِمْ.

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ

---

[1] سورة الرَّحْمَنُ، الآية 46.

[2] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[3] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[4] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[5] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[6] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾[1]

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾[2]، يَعْنِي: مَا يَسُرُّ اللَّهَ –عَزَّ وَجَلَّ– لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِلْخُلَفَاءِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْصَارِ دِينِهِ فِي آفَاقِ الدُّنْيَا وَبِلَادِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ عُمُومًا وَفِي بَاحَةِ الْعَرَبِ خُصُوصًا: مِنَ الْفُتُوحِ الَّتِي لَمْ يَتَيَسَّرْ أَمْثَالُهَا لِأَحَدٍ مِنْ خُلَفَاءِ الْأَرْضِ قَبْلَهُمْ، وَمِنَ الْإِظْهَارِ عَلَى الْجَبَابِرَةِ وَالْأَكَاسِرَةِ، وَتَغْلِيبُ قَلِيلِهِمْ عَلَى كَثِيرِهِمْ، وَتَسْلِيطُ ضِعَافِهِمْ عَلَى أَقْوِيَائِهِمْ، وَإِجْرَائِهِ عَلَى أَيْدِيهِمْ أُمُورًا خَارِجَةً مِنَ الْمَعْهُودِ خَارِقَةً لِلْعَادَاتِ، وَنَشْرِ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ فِي أَقْطَارِ الْمَعْمُورَةِ، وَبَسْطِ دَوْلَتِهِ فِي أَقَاصِيهَا، وَالِاسْتِقْرَاءُ يُطْلِعُكَ –فِي التَّوَارِيخِ وَالْكُتُبِ الْمُدَوَّنَةِ فِي مَشَاهِدِ أَهْلِهِ وَأَيَّامِهِمْ– عَلَى عَجَائِبَ لَا تَرَى وَقْعَةً مَنْ وَقَائِعِهِمْ إِلَّا عَلَمًا مِنْ أَعْلَامِ اللَّهِ وَآيَةً مِنْ آيَاتِهِ، يَقْوَى مَعَهَا الْيَقِينُ، وَيَزْدَادُ بِهَا الْإِيمَانُ، وَيَتَبَيَّنُ أَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ هُوَ دِينُ الْحَقِّ الَّذِي لَا يَحِيدُ عَنْهُ إِلَّا مُكَابِرٌ حِسُّهُ مُغَالِطٌ نَفْسُهُ، وَمَا الثَّبَاتُ وَالِاسْتِقَامَةُ إِلَّا صِفَةُ الْحَقِّ وَالصِّدْقِ، كَمَا أَنَّ الْإِضْرَابَ وَالتَّزَلْزُلَ صِفَةُ الْفِرْيَةِ وَالزُّورِ، وَأَنَّ لِلْبَاطِلِ رِيحًا تَخْفَقُ ثُمَّ تَسْكُنُ، وَدَوْلَةٌ تَظْهَرُ ثُمَّ تَضْمَحِلُّ.

﴿بِرَبِّكَ﴾[3] فِي مَوْضِعِ الرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ فَاعِلُ كَفَى.

وَ﴿أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[4] بَدَلٌ مِنْهُ، تَقْدِيرُهُ: أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّ رَبَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. وَمَعْنَاهُ: أَنَّ هَذَا الْمَوْعُودَ مِنْ إِظْهَارِ آيَاتِ اللَّهِ فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ سَيَرُونَهُ وَيُشَاهِدُونَهُ، فَيَتَبَيَّنُونَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ تَنْزِيلُ عَالِمِ الْغَيْبِ الَّذِي هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، أَيْ: مُطَّلِعٌ مُهَيْمِنٌ يَسْتَوِي عِنْدَهُ غَيْبُهُ وَشَهَادَتُهُ، فَيَكْفِيهِمْ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ حَقٌّ وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِهِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَمَا قَوِيَ هَذِهِ الْقُوَّةَ وَلَمَا نَصَرَ حَامِلُوهُ هَذِهِ النُّصْرَةَ. وَقُرِئَ (فِي مِرْيَةٍ) بِالضَّمِّ، وَهِيَ الشَّكُّ.

﴿مُحِيطٌ﴾[5]: عَالِمٌ بِجُمَلِ الْأَشْيَاءِ وَتَفَاصِيلُهَا وَظَوَاهِرُهَا وَبَوَاطِنُهَا، فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْهُمْ، وَهُوَ مُجَازِيهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَمَرِيَّتِهِمْ فِي لِقَاءِ رَبِّهِمْ .

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

5 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ السَّجْدَةِ أَعْطَاهُ اللَّهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ".

سورة الشورى

سورة الشورى

[الشورى : 23 - 24 - 25 - 27]
[الآية : 53]

تفسير القسم الثاني من السورة

﴿حم عسق كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[1]

قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– "حم سق".

﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾[2]، أَيْ: مِثْلُ ذَلِكَ الْوَحْيِ، أَوْ مِثْلُ ذَلِكَ الْكِتَابِ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الرُّسُلِ.

﴿مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ﴾[3]، يَعْنِي أَنَّ مَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ السُّورَةُ مِنَ الْمَعَانِي قَدْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْكَ مِثْلَهُ فِي غَيْرِهَا مِنَ السُّوَرِ، وَأَوْحَاهُ مِنْ قَبْلِكَ إِلَى رُسُلِهِ، عَلَى مَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– كَرَّرَ هَذِهِ الْمَعَانِيَ فِي الْقُرْآنِ فِي جَمِيعِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، لِمَا فيها مِنَ التَّنْبِيهِ الْبَلِيغِ وَاللُّطْفِ الْعَظِيمِ لِعِبَادِهِ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ، وَلَمْ يَقُلْ: أُوحِيَ إِلَيْكَ، وَلَكِنْ عَلَى لَفْظِ الْمُضَارِعِ، لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ إِيحَاءً مِثْلَهُ عَادَتُهُ. وَقُرِئَ (يُوحَى إِلَيْكَ) عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ.

---

[1] سورة الشُّورَى، الآية .

[2] سورة الشُّورَى، الآية .

[3] سورة الشُّورَى، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا رَافِعُ اسْمِ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ؟

قُلْتُ: مَا دَلَّ عَلَيْهِ يُوحِي، كَأَنَّ قَائِلًا قَالَ: مَنِ الْمُوحَى؟ فَقِيلَ: اللَّهُ، كَقِرَاءَةِ السَّلْمَى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾[1] عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ وَرَفْعِ شُرَكَائِهِمْ، عَلَى مَعْنَى: زَيَّنَهُ لَهُمْ شُرَكَاؤُهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا رَافِعُهُ فيمَنْ قَرَأَ نُوحِي بِالنُّونِ؟

قُلْتُ: يَرْتَفِعُ بِالِابْتِدَاءِ. وَالْعَزِيزُ وَمَا بَعْدَهُ: أَخْبَارٌ، أَوِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ: صِفَتَانِ، وَالظَّرْفُ خَبَرٌ.

قُرِئَ: (تَكَادُ) بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ. وَيَنْفَطِرْنَ، وَيَتَفَطَّرْنَ.

وَرَوَى يُونُسُ عَنْ أَبِي عَمْرٍو قِرَاءَةً غَرِيبَةً (تَتَفَطَّرْنَ) بِتَاءَيْنِ مَعَ النُّونِ، وَنَظِيرُهَا حَرْفٌ نَادِرٌ.

رُوِيَ فِي نَوَادِرِ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ: الْإِبِلُ تَشْمُمْنَ، وَمَعْنَاهُ: يَكَدْنَ يَنْفَطِرْنَ مِنْ عُلُوِّ شَأْنِ اللَّهِ وَعَظَمَتِهِ، يَدُلُّ عَلَيْهِ مَجِيئُهُ بَعْدَ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

وَقِيلَ: مِنْ دُعَائِهِمْ لَهُ وَلَدًا، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾[2].

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قَالَ: ﴿مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾[3]؟

قُلْتُ: لِأَنَّ أَعْظَمَ الْآيَاتِ وَأَدُلَّهَا عَلَى الْجَلَالِ وَالْعَظَمَةِ: فَوْقَ السَّمَاوَاتِ، وَهِيَ: الْعَرْشُ، وَالْكُرْسِيُّ، وَصُفُوفُ الْمَلَائِكَةِ الْمُرْتَجَّةِ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ حَوْلَ الْعَرْشِ، وَمَا لَا يَعْلَمُ كُنْهَهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ آثَارِ مَلَكُوتِهِ الْعُظْمَى، فَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾[4]، أَيْ يَبْتَدِئُ الِانْفِطَارُ مِنْ جِهَتِهِنَّ الْفَوْقَانِيَّةِ. أَوْ: لِأَنَّ كَلِمَةَ الْكُفْرِ جَاءَتْ مِنَ الَّذِينَ تَحْتَ السَّمَاوَاتِ، فَكَانَ الْقِيَاسُ أَنْ يُقَالَ: يَنْفَطِرْنَ مِنْ تَحْتِهِنَّ مِنَ الْجِهَةِ الَّتِي جَاءَتْ مِنْهَا الْكَلِمَةُ، وَلَكِنَّهُ بُولِغَ فِي ذَلِكَ، فَجَعَلَتْ مُؤَثِّرَةً فِي جِهَةِ الْفَوْقِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: يَكَدْنَ يَنْفَطِرْنَ مِنَ الْجِهَةِ الَّتِي فَوْقَهُنَّ دَعِ الْجِهَةَ الَّتِي تَحْتَهُنَّ.

1

2 سورة مَرْيَم، الآية 90.

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة الشُّورَى، الآية .

وَنَظِيرُهُ فِي الْمُبَالَغَةِ قَوْلُهُ –عَزَّ وَعَلَا–: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾[1]، فَجَعَلَ الْحَمِيمَ مُؤَثِّرًا فِي أَجْزَائِهِمُ الْبَاطِنَةِ.

وَقِيلَ: مِنْ فَوْقِهِنَّ: مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِينَ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ صَحَّ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِمَنْ فِي الْأَرْضِ وَفِيهِمُ الْكُفَّارُ أَعْدَاءُ اللَّهِ؟ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ﴾[2]، فَكَيْفَ يَكُونُونَ لَاعِنِينَ مُسْتَغْفِرِينَ لَهُمْ؟

قُلْتُ: قَوْلُهُ: ﴿لِمَنْ فِي الأَرْضِ﴾[3] يَدُلُّ عَلَى جِنْسِ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَهَذِهِ الْجِنْسِيَّةُ قَائِمَةٌ فِي كُلِّهِمْ وَفِي بَعْضِهِمْ، فيجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهِ هَذَا وَهَذَا.

وَقَدْ دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا يَسْتَغْفِرُونَ إِلَّا لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ، فَمَا أَرَادَ اللَّهُ إِلَّا إِيَّاهُمْ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ –تَعَالَى– فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنِ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[4]، وَحِكَايَتُهُ عَنْهُمْ، ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾[5]، كَيْفَ وَصَفُوا الْمُسْتَغْفَرَ لَهُمْ بِمَا يَسْتَوْجِبُ بِهِ الِاسْتِغْفَارِ، فَمَا تَرَكُوا لِلَّذِينَ لَمْ يَتُوبُوا مِنَ الْمُصَدِّقِينَ طَمَعًا فِي اسْتِغْفَارِهِمْ؟ فَكَيْفَ لِلْكَفَرَةِ؟!

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَقْصِدُوا بِالِاسْتِغْفَارِ: طَلَبَ الْحِلْمِ وَالْغُفْرَانِ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا﴾[6] إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[7]، وَقَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾[8]، وَالْمُرَادُ: الْحُلْمُ عَنْهُمْ وَأَنْ لَا يُعَالِجَهُمْ بِالِانْتِقَامِ فيكُونُ عَامًّا.

---

1 سورة الْحَجُّ، الآيتان 19–20 .

2 سورة الْبَقَرَة، الآية 161.

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة غَافِر، الآية 7.

5 سورة غَافِر، الآية 7.

6 سورة فَاطِر، الآية 41.

7 سورة الْإِسْرَاء، الآية 4.

8 سورة الرَّعْدُ، الآية 6.

فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ فَسَّرْتَ قَوْلَهُ –تَعَالَى–: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾[1] بِتَفْسِيرَيْنِ. فَمَا وَجْهُ طِبَاقِ مَا بَعْدَهُ لَهُمَا؟

قُلْتُ: أَمَّا عَلَى أَحَدِهِمَا، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْفَطِرْنَ هَيْبَةً مِنْ جَلَالِهِ وَاحْتِشَامًا مِنْ كِبْرِيَائِهِ، وَالْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ هُمْ مِلْءُ السَّبْعِ الطِّبَاقِ وَحَافُّونَ حَوْلَ الْعَرْشِ صُفُوفًا بَعْدَ صُفُوفٍ يُدَاوِمُونَ –خُضُوعًا لِعَظَمَتِهِ– عَلَى عِبَادَتِهِ وَتَسْبِيحِهِ وَتَحْمِيدِهِ، وَيَسْتَغْفِرْنَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ خَوْفًا عَلَيْهِمْ مِنْ سَطَوَاتِهِ.

وَأَمَّا عَلَى الثَّانِي: فَكَأَنَّهُ قِيلَ: يَكَدْنَ يَنْفَطِرْنَ مِنْ إِقْدَامِ أَهْلِ الشِّرْكِ عَلَى تِلْكَ الْكَلِمَةِ الشَّنْعَاءِ، وَالْمَلَائِكَةُ يُوَحِّدُونَ اللَّهَ وَيُنَزِّهُونَهُ عَمَّا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي يُضِيفُهَا إِلَيْهِ الْجَاهِلُونَ بِهِ، حَامِدِينَ لَهُ عَلَى مَا أَوْلَاهُمْ مِنْ أَلْطَافِهِ الَّتِي عَلِمَ أَنَّهُمْ عِنْدَهَا يَسْتَعْصِمُونَ، مُخْتَارِينَ غَيْرَ مُلْجِئِينَ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمُؤْمِنِي أَهْلِ الْأَرْضِ الَّذِينَ تَبَرَّءُوا مِنْ تِلْكَ الْكَلِمَةِ وَمِنْ أَهْلِهَا، أَوْ يَطْلُبُونَ إِلَى رَبِّهِمْ أَنْ يَحْلُمَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَا يُعَاجِلَهُمْ بِالْعِقَابِ مَعَ وُجُودِ ذَلِكَ فِيهِمْ، لَمَّا عَرَفُوا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ، وَحِرْصًا عَلَى نَجَاةِ الْخَلْقِ، وَطَمَعًا فِي تَوْبَةِ الْكُفَّارِ وَالْفُسَّاقِ مِنْهُمْ.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾[2]

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾[3]: جَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ وَأَنْدَادًا، ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾[4] رَقِيبٌ عَلَى أَحْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ لَا يَفُوتُهُ مِنْهَا شَيْءٌ، وَهُوَ مُحَاسِبُهُمْ عَلَيْهَا وَمُعَاقِبُهُمْ وَلَا رَقِيبَ عَلَيْهِمْ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ.

﴿وَمَا أَنْتَ﴾[5] يَا مُحَمَّدُ بِمُوَكَّلٍ بِهِمْ وَلَا مُفَوَّضَ إِلَيْكَ أَمْرَهُمْ، وَلَا قَسْرَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ. إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ فَحَسْبُ.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الشُّورَى، الآية .

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة الشُّورَى، الآية .

5 سورة الشُّورَى، الآية .

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[1]

وَمِثْلُ ذَلِكَ ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾[2]، وَذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى مَعْنَى الْآيَةِ قَبْلَهَا: مِنْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ، وَمَا أَنْتَ بِرَقِيبٍ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنْ نَذِيرٌ لَهُمْ، لِأَنَّ هَذَا الْمَعْنَى كَرَّرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فِي مَوَاضِعَ جَمَّةٍ، وَالْكَافُ مَفْعُولٌ بِهِ لَأَوْحَيْنَا.

وَ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[3] حَالٌ مِنَ الْمَفْعُولِ بِهِ، أَيْ أَوْحَيْنَاهُ إِلَيْكَ وَهُوَ قُرْآنٌ عَرَبِيٌّ بَيِّنٌ، لَا لَبْسَ فِيهِ عَلَيْكَ، لِتَفْهَمَ مَا يُقَالُ لَكَ، وَلَا تَتَجَاوَزُ حَدَّ الْإِنْذَارِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ إِشَارَةً إِلَى مَصْدَرِ ﴿أَوْحَيْنَا﴾[4]، أَيْ: وَمِثْلُ ذَلِكَ الْإِيحَاءِ الْبَيِّنِ الْمُفْهِمِ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا بِلِسَانِكَ "لِتُنْذِرَ"، يُقَالُ: أَنْذَرْتُهُ كَذَا وَأَنْذَرْتُهُ بِكَذَا. وَقَدْ عَدَّى الْأَوَّلَ، أَعْنِي: لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى، إِلَى الْمَفْعُولِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي وَهُوَ قَوْلُهُ وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ إِلَى الْمَفْعُولِ الثَّانِي.

﴿أُمَّ الْقُرَى﴾[5]: أَهْلُ أُمِّ الْقُرَى كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[6]، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[7] مِنَ الْعَرَبِ.

وَقُرِئَ (لِيُنْذِرَ) بِالْيَاءِ وَالْفِعْلُ لِلْقُرْآنِ. ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾[8] يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِأَنَّ الْخَلَائِقَ تُجْمَعُ فِيهِ. قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾[9].

وَقِيلَ: يَجْمَعُ بَيْنَ الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَادِ.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الشُّورَى، الآية .

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة الشُّورَى، الآية .

5 سورة الشُّورَى، الآية .

6 سورة يُوسُفُ، الآية 82.

7 سورة الشُّورَى، الآية .

8 سورة الشُّورَى، الآية .

9 سورة التَّغَابُنُ، الآية 9.

وَقِيلَ: يَجْمَعُ بَيْنَ كُلِّ عَامِلٍ وَعَمَلِهِ.

وَ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾[1]: اعْتِرَاضٌ لَا مَحَلَّ لَهُ. قُرِئَ (فَرِيقٌ) وَفَرِيقَ، بِالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ، فَالرَّفْعُ عَلَى: مِنْهُمْ فَرِيقٌ، وَمِنْهُمْ فَرِيقٌ. وَالضَّمِيرُ لِلْمَجْمُوعِينَ، لِأَنَّ الْمَعْنَى: يَوْمَ جَمْعِ الْخَلَائِقِ.

وَالنَّصْبُ عَلَى الْحَالِ مِنْهُمْ، أَيْ: مُتَفَرِّقِينَ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾[2].

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَكُونُونَ مَجْمُوعِينَ مُتَفَرِّقِينَ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ؟

قُلْتُ: هُمْ مَجْمُوعُونَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَعَ افْتِرَاقِهِمْ فِي دَارَيِ الْبُؤْسِ وَالنَّعِيمِ، كَمَا يَجْتَمِعُ النَّاسُ يَوْمُ الْجُمْعَةِ مُتَفَرِّقِينَ فِي مَسْجِدَيْنِ. وَإِنْ أُرِيدَ بِالْجَمْعِ: جَمْعُهُمْ فِي الْمَوْقِفِ، فَالتَّفَرُّقُ عَلَى مَعْنَى مُشَارَفَتِهِمْ لِلتَّفَرُّقِ.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾[3]

﴿لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[4]، أَيْ: مُؤْمِنِينَ كُلُّهُمْ عَلَى الْقَسْرِ وَالْإِكْرَاهِ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾[5]، وَقَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[6].

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الرُّوم، الآية 14.

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة الشُّورَى ، الآية .

5 سورة السَّجْدَة، الآية 13.

6 سورة يُونُس، الآية 9.

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْمَعْنَى هُوَ الْإِلْجَاءُ إِلَى الْإِيمَانِ: قَوْلُهُ: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[1]، وَقَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ﴾[2] بِإِدْخَالِ هَمْزَةِ الْإِنْكَارِ عَلَى الْمُكْرَهِ دُونَ فِعْلِهِ. دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى هَذَا الْإِكْرَاهِ دُونَ غَيْرِهِ.

وَالْمَعْنَى: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَشِيئَةَ قُدْرَةٍ لَقَسَرَهُمْ جَمِيعًا عَلَى الْإِيمَانِ، وَلَكِنَّهُ شَاءَ مَشِيئَةَ حِكْمَةٍ، فَكَلَّفَهُمْ وَبَنَى أَمْرَهُمْ عَلَى مَا يَخْتَارُونَ، لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ فِي رَحْمَتِهِ، وَهُمُ الْمُرَادُونَ بِمَنْ يَشَاءُ.

أَلَا تَرَى إِلَى وَضْعِهِمْ فِي مُقَابَلَةِ الظَّالِمِينَ وَيَتْرُكُ الظَّالِمِينَ بِغَيْرِ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ فِي عَذَابِهِ؟!

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3]

مَعْنَى الْهَمْزَةِ فِي "أَمْ" الْإِنْكَارُ، ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾[4] هُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَتَوَلَّى وَحْدَهُ وَيَعْتَقِدَ أَنَّهُ الْمَوْلَى وَالسَّيِّدُ، فَالْفَاءُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾[5]، جَوَابُ شَرْطٍ مُقَدَّرٍ، كَأَنَّهُ قِيلَ بَعْدَ إِنْكَارِ كُلِّ وَلِيٍّ سِوَاهُ: إِنْ أَرَادُوا وَلِيًّا بِحَقٍّ، فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ بِالْحَقِّ، لَا وَلِيَّ سِوَاهُ.

﴿وَهُوَ يُحْيِي﴾[6] أَيْ: وَمِنْ شَأْنِ هَذَا الْوَلِيِّ أَنَّهُ يُحْيِي ﴿الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[7]، فَهُوَ الْحَقِيقُ بِأَنْ يَتَّخِذَ وَلِيًّا دُونَ مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ.

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .
2 سورة الشُّورَى، الآية .
3 سورة الشُّورَى، الآية .
4 سورة الشُّورَى، الآية .
5 سورة الشُّورَى، الآية .
6 سورة الشُّورَى، الآية .
7 سورة الشُّورَى، الآية .

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1]

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾[2] حِكَايَةُ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لِلْمُؤْمِنِينَ، أَيْ: مَا خَالَفَكُمْ فيهِ الْكُفَّارُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ، فَاخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَهُمْ فيهِ مِنْ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ، فَحُكْمُ ذَلِكَ الْمُخْتَلَفِ فيهِ مُفَوَّضٌ إِلَى اللَّهِ –تَعَالَى–، وَهُوَ إِثَابَةُ الْمُحِقِّينَ فيهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمُعَاقَبَةُ الْمُبْطِلِينَ.

﴿ذَلِكُمْ﴾[3]الْحَاكِمُ بَيْنَكُمْ هُوَ ﴿اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾[4] في رَدِّ كَيْدِ أَعْدَاءِ الدِّينِ، ﴿وَإِلَيْهِ﴾[5] أَرْجِعُ في كِفَايَةِ شَرِّهِمْ. وَقِيلَ: وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فيهِ وَتَنَازَعْتُمْ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْخُصُومَاتِ فَتَحَاكَمُوا فيهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَلَا تُؤْثِرُوا عَلَى حُكُومَتِهِ حُكُومَةَ غَيْرِهِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[6].]النِّسَاءُ: 599[

وَقِيلَ: وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فيهِ مِنْ تَأْوِيلِ آيَةٍ وَاشْتُبِهَ عَلَيْكُمْ فَارْجِعُوا في بَيَانِهِ إِلَى الْمُحْكَمِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَالظَّاهِرِ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

وَقِيلَ: وَمَا وَقَعَ بَيْنَكُمُ الْخِلَافُ فيهِ مِنَ الْعُلُومِ الَّتِي لَا تَتَّصِلُ بِتَكْلِيفِكُمْ وَلَا طَرِيقَ لَكُمْ إِلَى عِلْمِهِ، فَقُولُوا: اللَّهُ أَعْلَمُ، كَمَعْرِفَةِ الرُّوحِ.

قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[7]]الْإِسْرَاءُ: 855[.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يَجُوزُ حَمْلُهُ عَلَى اخْتِلَافِ الْمُجْتَهِدِينَ في أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ؟

قُلْتُ: لَا، لِأَنَّ الِاجْتِهَادَ لَا يَجُوزُ بِحَضْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الشُّورَى، الآية .

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة الشُّورَى، الآية .

5 سورة الشُّورَى، الآية .

6 سورة ، الآية .

7 سورة ، الآية .

﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1]

﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ﴾[2] قُرِئَ بِالرَّفْعِ وَالْجَرِّ، فَالرَّفْعُ عَلَى أَنَّهُ أَحَدُ أَخْبَارِ ذَلِكُمْ، أَوْ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، وَالْجَرُّ عَلَى: فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ.

وَ﴿ذَلِكُمْ﴾[3] إِلَى ﴿أُنِيبُ﴾[4] اعْتِرَاضٌ بَيْنَ الصِّفَةِ وَالْمَوْصُوفِ ﴿جَعَلَ لَكُمْ﴾[5] خَلَقَ لَكُمْ ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾[6] مِنْ جِنْسِكُمْ مِنَ النَّاسِ ﴿أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ﴾[7]، أَيْ: خَلَقَ مِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا.

وَمَعْنَاهُ: وَخَلَقَ لِلْأَنْعَامِ أَيْضًا مِنْ أَنْفُسِهَا أَزْوَاجًا ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾[8]: يُكْثِرُكُمْ، يُقَالُ: ذَرَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ: بَثَّهُمْ وَكَثَّرَهُمْ. وَالذَّرُّ، وَالذَّرْوُ، وَالذَّرْءُ: أَخَوَاتٌ.

﴿فِيهِ﴾[9] فِي هَذَا التَّدْبِيرِ، وَهُوَ أَنْ جَعَلَ لِلنَّاسِ وَالْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا، حَتَّى كَانَ بَيْنَ ذُكُورِهِمْ وَإِنَاثِهِمُ التَّوَالُدُ وَالتَّنَاسُلُ.

وَالضَّمِيرُ فِي ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾[10] يَرْجِعُ إِلَى الْمُخَاطَبِينَ وَالْأَنْعَامِ، مُغَلِّبًا فِيهِ الْمُخَاطَبُونَ الْعُقَلَاءُ عَلَى الْغَيْبِ مِمَّا لَا يَعْقِلُ، وَهِيَ مِنَ الْأَحْكَامِ ذَاتِ الْعِلَّتَيْنِ،

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى يَذْرَؤُكُمْ فِي هَذَا التَّدْبِيرِ؟ وَهَلَّا قِيلَ: يَذْرَؤُكُمْ بِهِ؟

قُلْتُ: جَعَلَ هَذَا التَّدْبِيرَ كَالْمَنْبَعِ وَالْمَعْدِنِ لِلْبَثِّ وَالتَّكْثِيرِ.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .
2 سورة الشُّورَى، الآية .
3 سورة الشُّورَى، الآية .
4 سورة الشُّورَى، الآية .
5 سورة الشُّورَى، الآية .
6 سورة الشُّورَى، الآية .
7 سورة الشُّورَى، الآية .
8 سورة الشُّورَى، الآية .
9 سورة الشُّورَى، الآية .
10 سورة الشُّورَى، الآية .

أَلَا تَرَاكَ تَقُولُ: لِلْحَيَوَانِ فِي خَلْقِ الْأَزْوَاجِ تَكْثِيرٌ، كَمَا قَالَ –تَعَالَى–: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[1]؟!

قَالُوا: مِثْلُكَ لَا يَبْخَلُ، فَنَفَوُا الْبُخْلَ عَنْ مِثْلِهِ، وَهُمْ يُرِيدُونَ نَفيهُ عَنْ ذَاتِهِ، قَصَدُوا الْمُبَالَغَةَ فِي ذَلِكَ، فَسَلَكُوا بِهِ طَرِيقَ الْكِنَايَةِ، لِأَنَّهُمْ إِذَا نَفَوْهُ عَمَّنْ يَسُدُّ مَسَدَّهُ وَعَمَّنْ هُوَ عَلَى أَخَصِّ أَوْصَافِهِ، فَقَدْ نَفَوْهُ عَنْهُ.

وَنَظِيرُهُ قَوْلُكَ لِلْعَرَبِيِّ: الْعَرَبُ لَا تَخْفِرُ الذِّمَمَ، كَانَ أَبْلَغُ مِنْ قَوْلِكَ: أَنْتَ لَا تَخْفِرُ. وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: قَدْ أَيْفَعَتْ لِدَاتُهُ وَبَلَغَتْ أَتْرَابُهُ، يُرِيدُونَ: إِيفَاعَهُ وَبُلُوغَهُ.

وَفِي حَدِيثِ رُقَيْقَةَ بِنْتِ صَيْفِي فِي سُقْيَا عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: "أَلَا وَفِيهِمُ الطَّيِّبُ الطَّاهِرُ لِذَاتِهِ"، وَالْقَصْدُ إِلَى طَهَارَتِهِ وَطِيبِهِ.

فَإِذَا عَلِمَ أَنَّهُ مِنْ بَابِ الْكِنَايَةِ لَمْ يَقَعْ فَرْقٌ بَيْنَ قَوْلِهِ: لَيْسَ كَاللَّهِ شَيْءٌ، وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[2] إِلَّا مَا تُعْطِيهِ الْكِنَايَةُ مِنْ فَائِدَتِهَا، وَكَأَنَّهُمَا عِبَارَتَانِ مُعْتَقِبَتَانِ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ: وَهُوَ نَفْي الْمُمَاثَلَةِ عَنْ ذَاتِهِ، وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[3]،]الْمَائِدَةُ: 644] فَإِنَّ مَعْنَاهُ: بَلْ هُوَ جَوَادٌ مِنْ غَيْرِ تَصَوُّرِ يَدٍ وَلَا بَسْطٍ لَهَا، لِأَنَّهَا وَقَعَتْ عِبَارَةً عَنِ الْجُودِ لَا يَقْصِدُونَ شَيْئًا آخَرَ، حَتَّى إِنَّهُمُ اسْتَعْمَلُوهَا فِيمَنْ لَا يَدَ لَهُ، فَكَذَلِكَ اسْتَعْمَلَ هَذَا فِيمَنْ لَهُ مِثْلٌ وَمَنْ لَا مِثْلَ لَهُ، وَلَكَ أَنْ تَزْعُمَ أَنَّ كَلِمَةَ التَّشْبِيهِ كُرِّرَتْ لِلتَّأْكِيدِ، كَمَا كَرَّرَهَا مَنْ قَالَ :

وَصَالِيَاتٍ كَكَمَا يُؤْثَفِيـــــــــنَ

وَمَنْ قَالَ:

فَأَصْبَحْتُ مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولِ

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[4]

---

1 سورة الْبَقَرَة، الآية 179.

2 سورة الشُّورَى، الآية .

3 سورة ، الآية .

4 سورة الشُّورَى، الآية .

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مِنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مِنْ يُنِيبُ﴾[2]

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾[3] دِينِ نُوحٍ وَمُحَمَّدٍ وَمِنْ بَيْنِهِمَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ فَسَّرَ الْمَشْرُوعَ الَّذِي اشْتَرَكَ هَؤُلَاءِ الْأَعْلَامُ مِنْ رُسُلِهِ فِيهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[4].

وَالْمُرَادُ: إِقَامَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ الَّذِي هُوَ تَوْحِيدُ اللَّهِ وَطَاعَتُهُ، وَالْإِيمَانُ بِرُسُلِهِ وَكُتُبِهِ، وَبِيَوْمِ الْجَزَاءِ، وَسَائِرُ مَا يَكُونُ الرَّجُلُ بِإِقَامَتِهِ مُسْلِمًا، وَلَمْ تِرِدِ الشَّرَائِعُ الَّتِي هِيَ مَصَالِحُ الْأُمَمِ عَلَى حَسَبِ أَحْوَالِهَا، فَإِنَّهَا مُخْتَلِفَةٌ مُتَفَاوِتَةٌ. قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[5].

وَمَحَلُّ ﴿أَنْ أَقِيمُوا﴾[6] إِمَّا نُصِبَ بَدَلٌ مِنْ مَفْعُولِ شَرَعَ وَالْمَعْطُوفِينِ عَلَيْهِ، وَإِمَّا رُفِعَ عَلَى الِاسْتِئْنَافِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَمَا ذَلِكَ الْمَشْرُوعُ؟ فَقِيلَ: هُوَ إِقَامَةُ الدِّينِ، وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[7].

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الشُّورَى، الآية .

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة الشُّورَى ، الآية .

5 سورة الْمَائِدَة، الآية 48.

6 سورة الشُّورَى، الآية .

7 سورة الْأَنْبِيَاء، الآية 92.

﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾[1] عَظُمَ عَلَيْهِمْ وَشُقَّ عَلَيْهِمْ ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[2] مِنْ إِقَامَةِ دِينِ اللَّهِ وَالتَّوْحِيدِ.

﴿يَجْتَبِي إِلَيْهِ﴾[3]: يَجْتَلِبُ إِلَيْهِ وَيَجْمَعُ -وَالضَّمِيرُ لِلدِّينِ بِالتَّوْفِيقِ وَالتَّسْدِيدِ- ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾[4] مِنْ يَنْفَعُ فِيهِمْ تَوْفِيقُهُ وَيَجْرِي عَلَيْهِمْ لُطْفًا.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾[5]

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾[6]، يَعْنِي أَهْلَ الْكِتَابِ بَعْدَ أَنْبِيَائِهِمْ ﴿إِلا مِنْ بَعْدِ﴾[7] أَنْ عَلِمُوا أَنَّ الْفِرْقَةَ ضَلَالٌ وَفَسَادٌ، وَأَمْرٌ مُتَوَعَّدٌ عَلَيْهِ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ.

﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾[8]، وَهِيَ عِدَّةُ التَّأْخِيرِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾[9] حِينَ افْتَرَقُوا لِعَظْمِ مَا اقْتَرَفُوا.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾[10]، وَهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الَّذِينَ كَانُوا فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ﴿لَفِي شَكٍّ﴾[11] مِنْ كِتَابِهِمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَقَّ الْإِيمَانِ.

وَقِيلَ: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً مُؤْمِنِينَ بَعْدَ أَنْ أَهْلَكَ اللَّهُ أَهْلَ الْأَرْضِ أَجْمَعِينَ بِالطُّوفَانِ.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .
2 سورة الشُّورَى، الآية .
3 سورة الشُّورَى، الآية .
4 سورة الشُّورَى، الآية .
5 سورة الشُّورَى، الآية .
6 سورة الشُّورَى، الآية .
7 سورة الشُّورَى، الآية .
8 سورة الشُّورَى، الآية .
9 سورة الشُّورَى، الآية .
10 سورة الشُّورَى، الآية 14.
11 سورة الشُّورَى، الآية .

فَلَمَّا مَاتَ الْآبَاءُ اخْتَلَفَ الْأَبْنَاءُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَذَلِكَ حِينَ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَجَاءَهُمُ الْعِلْمُ.

وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا لِلْبَغْيِ بَيْنَهُمْ. وَقِيلَ: وَمَا تَفَرَّقَ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بِمَبْعَثِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾[1].

وَإِنَّ الَّذِينَ ﴿أَوْرِثُوا﴾[2] الْكِتَابَ مَنْ بَعْدِهِمْ هُمُ الْمُشْرِكُونَ أُورِثُوا الْقُرْآنَ مِنْ بَعْدِ مَا أُورِثَ أَهْلُ الْكِتَابِ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ. وَقُرِئَ: (وُرِّثُوا) وَ (وَرَّثُوا).

﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[3]

﴿فَلِذَلِكَ﴾[4]: فَلِأَجْلِ التَّفَرُّقِ وَلِمَا حَدَثَ بِسَبَبِهِ مِنْ تَشَعُّبِ الْكُفْرِ شُعَبًا، ﴿فَادْعُ﴾[5] إِلَى الِاتِّفَاقِ وَالِائْتِلَافِ عَلَى الْمِلَّةِ الْحَنِيفِيَّةِ الْقَدِيمَةِ.

﴿وَاسْتَقِمْ﴾[6] عَلَيْهَا وَعَلَى الدَّعْوَةِ إِلَيْهَا كَمَا أَمَرَكَ اللَّهُ، ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾[7] الْمُخْتَلِفَةَ الْبَاطِنَةَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ، أَيْ: كِتَابٍ صَحَّ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَهُ، يَعْنِي الْإِيمَانَ بِجَمِيعِ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ، لِأَنَّ الْمُتَفَرِّقِينَ آمَنُوا بِبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–:

---

1 سورة الْبَيِّنَةُ، الآية 4.
2 سورة الشُّورَى، الآية .
3 سورة الشُّورَى، الآية .
4 سورة الشُّورَى، الآية .
5 سورة الشُّورَى، الآية .
6 سورة الشُّورَى، الآية .
7 سورة الشُّورَى، الآية .

﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾[1] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾[2]، ﴿لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾[3] فِي الْحُكْمِ إِذَا تَخَاصَمْتُمْ فَتَحَاكَمْتُمْ إِلَيَّ.

﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾[4]، أَيْ لَا خُصُومَةَ، لِأَنَّ الْحَقَّ قَدْ ظَهَرَ وَصِرْتُمْ مَحْجُوبِينَ بِهِ فَلَا حَاجَةَ إِلَى الْمُحَاجَّةِ.

وَمَعْنَاهُ: لَا إِيرَادَ حُجَّةٍ بَيْنَنَا، لِأَنَّ الْمُتَحَاجِّينَ: يُورِدُ هَذَا حَجَّتَهُ وَهَذَا حَجَّتَهُ.

﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾[5] يَوْمَ الْقِيَامَةِ فيفْصِلُ بَيْنَنَا وَيَنْتَقِمُ لَنَا مِنْكُمْ، وَهَذِهِ مُحَاجَزَةٌ وَمُتَارَكَةٌ بَعْدَ ظُهُورِ الْحَقِّ وَقِيَامِ الْحُجَّةِ وَالْإِلْزَامِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ حُوجِزُوا وَقَدْ فَعَلَ بِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ مَا فَعَلَ مِنَ الْقَتْلِ وَتَخْرِيبِ الْبُيُوتِ وَقَطْعِ النَّخِيلِ وَالْإِجْلَاءِ؟ قُلْتُ: الْمُرَادُ مُحَاجَزَتِهِمْ فِي مَوَاقِفِ الْمُقَاوَلَةِ لَا الْمُقَاتَلَةِ.

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[6]

﴿يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾[7] يُخَاصِمُونَ فِي دِينِهِ ﴿مِنْ بَعْدِ﴾[8] مَا اسْتَجَابَ لَهُ النَّاسُ وَدَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ، لِيَرُدُّوهُمْ إِلَى دِينِ الْجَاهِلِيَّةِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾[9]،]الْبَقَرَةُ: 1099] كَانَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقُولُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ: كِتَابُنَا قَبْلَ كِتَابِكُمْ، وَنَبِيُّنَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ، وَنَحْنُ خَيْرٌ مِنْكُمْ وَأَوْلَى بِالْحَقِّ. وَقِيلَ: مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجَابَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ وَنَصَرَهُ يَوْمَ بَدْرٍ وَأَظْهَرَ دِينَ الْإِسْلَامِ.

---

1 سورة النِّسَاء، الآية 150.
2 سورة النِّسَاء، الآية 151.
3 سورة الشُّورَى، الآية .
4 سورة الشُّورَى، الآية .
5 سورة الشُّورَى، الآية .
6 سورة الشُّورَى، الآية .
7 سورة الشُّورَى، الآية .
8 سورة الشُّورَى، الآية .
9 سورة ، الآية 109.

﴿دَاحِضَةٌ﴾[1] بَاطِلَةٌ زَالَّةٌ.

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾[2]

﴿أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾[3]، أَيْ: جِنْسَ الْكِتَابِ، "وَالْمِيزَانَ" وَالْعَدْلَ وَالتَّسْوِيَةَ. وَمَعْنَى إِنْزَالُ الْعَدْلِ: أَنَّهُ أَنْزَلَهُ فِي كُتُبِهِ الْمُنَزَّلَةِ. وَقِيلَ: الَّذِي يُوزَنُ بِهِ.

﴿بِالْحَقِّ﴾[4]: مُلْتَبِسًا بِالْحَقِّ، مُقْتَرِنًا بِهِ، بَعِيدًا مِنَ الْبَاطِلِ، أَوْ بِالْغَرَضِ الصَّحِيحِ كَمَا اقْتَضَتْهُ الْحِكْمَةُ، أَوْ بِالْوَاجِبِ مِنَ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

﴿السَّاعَةَ﴾[5] فِي تَأْوِيلِ الْبَعْثِ، فَلِذَلِكَ قِيلَ: ﴿قَرِيبٌ﴾[6] أَوْ لَعَلَّ مَجِيءَ السَّاعَةِ قَرِيبٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يُوَفِّقُ ذِكْرَ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ مَعَ إِنْزَالِ الْكِتَابِ وَالْمِيزَانِ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ السَّاعَةَ يَوْمَ الْحِسَابِ وَوَضْعَ الْمَوَازِينِ لِلْقِسْطِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: أَمْرُكُمُ اللَّهُ بِالْعَدْلِ وَالتَّسْوِيَةِ وَالْعَمَلِ بِالشَّرَائِعِ قَبْلَ أَنْ يُفَاجِئَكُمُ الْيَوْمَ الَّذِي يُحَاسِبُكُمْ فِيهِ وَيَزِنَ أَعْمَالَكُمْ، وَيُوَفِي لِمَنْ أَوْفَى وَيُطَفِّفُ لِمَنْ طَفَّفَ.

الْمُمَارَاةُ: الْمُلَاجَّةُ، لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَمْرِي مَا عِنْدَ صَاحِبِهِ.

﴿لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾[7] مِنَ الْحَقِّ، لِأَنَّ قِيَامَ السَّاعَةِ غَيْرُ مُسْتَبْعَدٍ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ، وَلِدَلَالَةِ الْكِتَابِ الْمُعْجِزِ عَلَى أَنَّهَا آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَلِشَهَادَةِ الْعُقُولِ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ دَارِ الْجَزَاءِ.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .
2 سورة الشُّورَى، الآية .
3 سورة الشُّورَى، الآية .
4 سورة الشُّورَى، الآية .
5 سورة الشُّورَى، الآية .
6 سورة الشُّورَى، الآية .
7 سورة الشُّورَى، الآية .

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾[1]

﴿لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾[2] بَرٌّ بَلِيغُ الْبِرِّ بِهِمْ، قَدْ تَوَصَّلَ بِرُّهُ إِلَى جَمِيعِهِمْ، وَتَوَصَّلَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَى حَيْثُ لَا يَبْلُغُهُ، وَهُمْ أَحَدٌ مِنْ كُلِّيَّاتِهِ وَجُزْئِيَّاتِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾[3] بَعْدَ تَوَصُّلِ بِرِّهِ إِلَى جَمِيعِهِمْ؟

قُلْتُ: كُلُّهُمْ مَبْرُورُونَ لَا يَخْلُو أَحَدٌ مِنْ بِرِّهِ، إِلَّا أَنَّ الْبِرَّ أَصْنَافٌ، وَلَهُ أَوْصَافٌ. وَالْقِسْمَةُ بَيْنَ الْعِبَادِ تَتَفَاوَتُ عَلَى حَسَبِ تَفَاوُتِ قَضَايَا الْحِكْمَةِ وَالتَّدْبِيرِ، فيطِيرُ لِبَعْضِ الْعِبَادِ صِنْفٌ مِنَ الْبَرِّ لَمْ يَطِرْ مِثْلُهُ لِآخَرَ، وَيُصِيبُ هَذَا حَظٌّ لَهُ وَصْفٌ لَيْسَ ذَلِكَ الْوَصْفَ لِحَظِّ صَاحِبِهِ، فَمِنْ قَسَمَ لَهُ مِنْهُمْ مَا لَا يَقْسِمُ لِلْآخَرِ، فَقَدْ رَزَقَهُ، وَهُوَ الَّذِي أَرَادَ بِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾[4]، كَمَا يُرْزَقُ أَحَدُ الْأَخَوَيْنِ وَلَدًا دُونَ الْآخَرِ، عَلَى أَنَّهُ أَصَابَهُ بِنِعْمَةٍ أُخْرَى لَمْ يُرْزَقْهَا صَاحِبُ الْوَلَدِ.

﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾[5] الْبَاهِرُ الْقُدْرَةِ، الْغَالِبُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، ﴿الْعَزِيزُ﴾[6] الْمَنِيعُ الَّذِي لَا يُغْلَبُ.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مَنْ نَصِيبٍ﴾[7]

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الشُّورَى، الآية .

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة الْبَقَرَة، الآية 212.

5 سورة الشُّورَى، الآية .

6 سورة الشُّورَى، الآية .

7 سورة الشُّورَى، الآية .

سَمَّى مَا يَعْمَلُهُ الْعَامِلُ مِمَّا يَبْغِي بِهِ الْفَائِدَةَ وَالزُّكَاءَ حَرْثًا عَلَى الْمَجَازِ. وَفَرْقٌ بَيْنَ عَمَلِي الْعَامِلِينَ: بِأَنَّ مَنْ عَمِلَ لِلْآخِرَةِ وُفِّقَ فِي عَمَلِهِ وَضُوعِفَتْ حَسَنَاتُهُ، وَمَنْ كَانَ عَمَلُهُ لِلدُّنْيَا أَعْطَى شَيْئًا مِنْهَا لَا مَا يُرِيدُهُ وَيَبْتَغِيهِ.

وَهُوَ رِزْقُهُ الَّذِي قُسِمَ لَهُ وَفَرَغَ مِنْهُ وَمَا لَهُ نَصِيبٌ قَطُّ فِي الْآخِرَةِ، وَلَمْ يَذْكُرْ فِي مَعْنَى عَامِلِ الْآخِرَةِ وَلَهُ فِي الدُّنْيَا نَصِيبٌ، عَلَى أَنَّ رِزْقَهُ الْمَقْسُومَ لَهُ وَاصِلٌ إِلَيْهِ لَا مَحَالَةَ، لِلِاسْتِهَانَةِ بِذَلِكَ إِلَى جَنْبِ مَا هُوَ بِصَدَدِهِ مِنْ زَكَاءِ عَمَلِهِ وَفَوْزِهِ فِي الْمَآبِ.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1]

مَعْنَى الْهَمْزَةِ فِي ﴿أَمْ﴾[2] التَّقْرِيرُ وَالتَّقْرِيعُ. وَشُرَكَاؤُهُمْ: شَيَاطِينُهُمُ الَّذِينَ زَيَّنُوا لَهُمُ الشِّرْكَ وَإِنْكَارَ الْبَعْثِ وَالْعَمَلَ لِلدُّنْيَا، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ غَيْرَهَا، وَهُوَ الدِّينُ الَّذِي شَرَعَتْ لَهُمُ الشَّيَاطِينُ، وَتَعَالَى اللَّهُ عَنِ الْإِذْنِ فِيهِ وَالْأَمْرِ بِهِ، وَقِيلَ: شُرَكَاؤُهُمْ أَوْثَانُهُمْ، وَإِنَّمَا أُضِيفَتْ إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ مُتَّخِذُوهَا شُرَكَاءَ لِلَّهِ، فَتَارَةً تُضَافُ إِلَيْهِمْ لِهَذِهِ الْمُلَابَسَةِ. وَتَارَةً إِلَى اللَّهِ، وَلَمَّا كَانَتْ سَبَبًا لِضَلَالَتِهِمْ وَافْتِتَانِهِمْ: جُعِلَتْ شَارِعَةً لِدِينِ الْكُفْرِ، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ –صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ–: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾[3]]إِبْرَاهِيمُ: 36 [.

﴿وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾[4]، أَيِ: الْقَضَاءِ السَّابِقِ بِتَأْجِيلِ الْجَزَاءِ، أَوْ: وَلَوْلَا الْعُدَّةُ بِأَنَّ الْفَصْلَ يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾[5]، أَيْ: بَيْنَ الْكَافِرِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ، أَوْ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَشُرَكَائِهِمْ.

وَقَرَأَ مُسْلِمُ بْنُ جُنْدُبٍ: (وَأَنَّ الظَّالِمِينَ) بِالْفَتْحِ عَطْفًا لَهُ عَلَى كَلِمَةِ الْفَصْلِ، يَعْنِي: وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ وَتَقْدِيرُ تَعْذِيبِ الظَّالِمِينَ فِي الْآخِرَةِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا.

---

[1] سورة الشُّورَى، الآية .

[2] سورة الشُّورَى، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة الشُّورَى، الآية .

[5] سورة الشُّورَى، الآية .

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[1]

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾[2] في الْآخِرَةِ ﴿مُشْفِقِينَ﴾[3]: خَائِفِينَ خَوْفًا شَدِيدًا أَرَقَّ قُلُوبَهُمْ ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾[4] مِنَ السَّيِّئَاتِ، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾[5]، يُرِيدُ: وَوَبَالُهُ وَاقِعٌ بِهِمْ وَوَاصِلٌ إِلَيْهِمْ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهُ، أَشْفَقُوا أَوْ لَمْ يُشْفِقُوا. كَأَنَّ رَوْضَةَ جَنَّةِ الْمُؤْمِنِ أَطْيَبُ بُقْعَةً فيها وَأَنْزَهُهَا.

﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[6] مَنْصُوبٌ بِالظَّرْفِ لَا بِـ ﴿يَشَاءُونَ﴾[7].

قُرِئَ: (يُبَشِّرُ) مِنْ بَشَّرَهُ، وَيُبَشِّرُ مِنْ أَبْشَرَهُ، وَيُبَشِّرُ، مِنْ بَشَّرَهُ.

وَالْأَصْلُ: ذَلِكَ الثَّوَابُ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ، فَحَذَفَ الْجَارَّ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾[8]، ثُمَّ حَذَفَ الرَّاجِعَ إِلَى الْمَوْصُولِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولا﴾[9] أَوْ ذَلِكَ التَّبْشِيرُ الَّذِي يُبَشِّرُهُ اللَّهُ عِبَادَهُ.

رُوِيَ أَنَّهُ اجْتَمَعَ الْمُشْرِكُونَ في مَجْمَعٍ لَهُمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَتُرُونَ مُحَمَّدًا يَسْأَلُ عَلَى مَا يَتَعَاطَاهُ أَجْرًا؟

---

[1] سورة الشُّورَى، الآية .

[2] سورة الشُّورَى، الآية .

[3] سورة الشُّورَى، الآية .

[4] سورة الشُّورَى، الآية .

[5] سورة الشُّورَى، الآية .

[6] سورة الشُّورَى، الآية .

[7] سورة الشُّورَى، الآية .

[8] سورة الْأَعْرَاف، الآية 15.

[9] سورة الْفُرْقَانُ، الآية 41.

فَنَزَلَتِ الْآيَةُ: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[1]، يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اسْتِثْنَاءً مُتَّصِلًا، أَيْ: لَا أَسْأَلُكُمْ أَجْرًا إِلَّا هَذَا، وَهُوَ أَنَّ تَوَدُّوا أَهْلَ قَرَابَتِي، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا أَجْرًا فِي الْحَقِيقَةِ، لِأَنَّ قَرَابَتَهُ قَرَابَتُهُمْ، فَكَانَتْ صِلَتُهُمْ لَازِمَةً لَهُمْ فِي الْمُرُوءَةِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُنْقَطِعًا، أَيْ: لَا أَسْأَلُكُمْ أَجْرًا قَطُّ، وَلَكِنَّنِي أَسْأَلُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا قَرَابَتِي الَّذِينَ هُمْ قَرَابَتُكُمْ وَلَا تُؤْذُوهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ: إِلَّا مَوَدَّةَ الْقُرْبَى، أَوْ إِلَّا الْمَوَدَّةَ لِلْقُرْبَى؟ وَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[2]؟

قُلْتُ: جَعَلُوا مَكَانًا لِلْمَوَدَّةِ وَمَقَرًّا لَهَا، كَقَوْلِكَ: لِي فِي آلِ فُلَانٍ مَوَدَّةٌ، وَلِي فِيهِمْ هَوًى وَحُبٌّ شَدِيدٌ، تُرِيدُ: أَحَبَّهُمْ وَهُمْ مَكَانُ حُبِّي وَمَحَلُّهُ، وَلَيْسَتْ ﴿فِي﴾[3] بِصِلَةٍ لِلْمَوَدَّةِ، كَاللَّامِ إِذَا قُلْتَ: إِلَّا الْمَوَدَّةَ لِلْقُرْبَى. إِنَّمَا هِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحْذُوفٍ تَعَلَّقَ الظَّرْفُ بِهِ فِي قَوْلِكَ: الْمَالُ فِي الْكِيسِ. وَتَقْدِيرُهُ: إِلَّا الْمَوَدَّةَ ثَابِتَةٌ فِي الْقُرْبَى وَمُتَمَكِّنَةٌ فِيهَا. وَالْقُرْبَى: مَصْدَرٌ كَالزُّلْفَى وَالْبُشْرَى، بِمَعْنَى: قَرَابَةً. وَالْمُرَادُ فِي أَهْلِ الْقُرْبَى.

وَرُوِيَ أَنَّهَا لَمَّا نَزَلَتْ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ قَرَابَتُكَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَجَبَتْ عَلَيْنَا مَوَدَّتُهُمْ؟ قَالَ: "عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَابْنَاهُمَا".

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ: مَا رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: شَكَوْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– حَسَدَ النَّاسِ لِي. فَقَالَ: "أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ رَابِعَ أَرْبَعَةٍ: أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَنَا وَأَنْتَ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ، وَأَزْوَاجُنَا عَنْ أَيْمَانِنَا وَشَمَائِلِنَا، وَذُرِّيَّتِنَا خَلْفَ أَزْوَاجِنَا".

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "حُرِّمَتِ الْجَنَّةُ عَلَى مَنْ ظَلَمَ أَهْلَ بَيْتِي وَآذَانِي فِي عِتْرَتِي، وَمَنِ اصْطَنَعَ صَنِيعَةً إِلَى أَحَدٍ مِنْ وَلَدِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَلَمْ يُجَازِهِ عَلَيْهَا فَأَنَا أُجَازِيهِ عَلَيْهَا غَدًا إِذَا لَقِيَنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

وَرُوِيَ: أَنَّ الْأَنْصَارَ قَالُوا: فَعَلْنَا وَفَعَلْنَا، كَأَنَّهُمُ افْتَخَرُوا، فَقَالَ عَبَّاسٌ أَوِ ابْنُ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: لَنَا الْفَضْلُ عَلَيْكُمْ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَأَتَاهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ فَقَالَ: "يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ تَكُونُوا أَذِلَّةً فَأَعَزَّكُمُ اللَّهُ بِي"؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: "أَلَمْ تَكُونُوا ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِي"؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: "أَفَلَا تُجِيبُونَنِي"؟ قَالُوا: مَا نَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "أَلَا تَقُولُونَ: أَلَمْ يُخْرِجْكَ

---

[1] سورة الشُّورَى، الآية .

[2] سورة الشُّورَى، الآية .

[3] سورة الشُّورَى، الآية 23.

قَوْمُكَ فَآوَيْنَاكَ؟ أَوْ لَمْ يُكَذِّبُوكَ فَصَدَّقْنَاكَ؟ أَوَلَمْ يَخْذُلُوكَ فَنَصَرْنَاكَ؟" قَالَ: فَمَا زَالَ يَقُولُ حَتَّى جَثَوْا عَلَى الرُّكَبِ وَقَالُوا: أَمْوَالُنَا وَمَا في أَيْدِينَا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ. فَنَزَلَتِ الْآيَةُ.

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ شَهِيدًا، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ مَغْفُورًا لَهُ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ تَائِبًا، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ مُؤْمِنًا مُسْتَكْمِلَ الْإِيمَانِ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ بَشَّرَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ بِالْجَنَّةِ، ثُمَّ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ يُزَفُّ إِلَى الْجَنَّةِ كَمَا تُزَفُّ الْعَرُوسُ إِلَى بَيْتِ زَوْجِهَا، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ فُتِحَ لَهُ في قَبْرِهِ بَابَانِ إِلَى الْجَنَّةِ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ جَعَلَ اللَّهُ قَبْرَهُ مَزَارَ مَلَائِكَةِ الرَّحْمَةِ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ عَلَى السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ: آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ كَافِرًا، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ لَمْ يَشُمَّ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ".

وَقِيلَ: لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ بُطُونِ قُرَيْشٍ إِلَّا وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَبَيْنَهُمْ قُرْبَى، فَلَمَّا كَذَّبُوهُ وَأَبَوْا أَنْ يُبَايِعُوهُ نَزَلَتْ.

وَالْمَعْنَى: إِلَّا أَنْ تَوَدُّونِي في الْقُرْبَى، أَيْ: في حَقِّ الْقُرْبَى أَوْ مِنْ أَجْلِهَا، كَمَا تَقُولُ: الْحُبُّ في اللَّهِ وَالْبُغْضُ في اللَّهِ، بِمَعْنَى: في حَقِّهِ وَمِنْ أَجْلِهِ، يَعْنِي: أَنَّكُمْ قَوْمِي وَأَحَقُّ مَنْ أَجَابَنِي وَأَطَاعَنِي، فَإِذَا قَدْ أَبَيْتُمْ ذَلِكَ فَاحْفَظُوا حَقَّ الْقُرْبَى وَلَا تُؤْذُونِي وَلَا تُهَيِّجُوا عَلَيَّ. وَقِيلَ :أَتَتِ الْأَنْصَارُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِمَالٍ جَمَعُوهُ وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ هَدَانَا اللَّهُ بِكَ وَأَنْتَ ابْنُ أُخْتِنَا وَتَعْرُوكَ نَوَائِبُ وَحُقُوقٌ وَمَالُكَ سِعَةٌ، فَاسْتَعِنْ بِهَذَا عَلَى مَا يَنُوبُكَ، فَنَزَلَتْ، وَرَدَّهُ.

وَقِيلَ: ﴿الْقُرْبَى﴾: التَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ –تَعَالَى–، أَيْ: إِلَّا أَنْ تُحِبُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ في تَقَرُّبِكُمْ إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ. وَقُرِئَ: (إِلَّا مَوَدَّةً في الْقُرْبَى).

﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾[1] عَنِ السُّدِّيِّ أَنَّهَا الْمَوَدَّةُ في آلِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، نَزَلَتْ في أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– وَمَوَدَّتِهِ فيهِمْ.

---

[1] سورة الشُّورَى، الآية .

وَالظَّاهِرُ: الْعُمُومُ فِي أَيِّ حَسَنَةٍ كَانَتْ، إِلَّا أَنَّهَا لَمَّا ذُكِرَتْ عَقِيْبَ ذِكْرِ الْمَوَدَّةِ فِي الْقُرْبَى: دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهَا تَنَاوَلَتِ الْمَوَدَّةَ تَنَاوُلًا أَوَّلِيًّا، كَأَنَّ سَائِرَ الْحَسَنَاتِ لَهَا تَوَابِعُ.

وَقُرِئَ (يَزِدْ) أَيْ: يَزِدِ اللَّهُ. وَزِيَادَةُ حُسْنِهَا مِنْ جِهَةِ اللَّهِ مُضَاعَفَتُهَا، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[1].

وَقُرِئَ: (حُسْنَى) وَهِيَ مَصْدَرٌ كَالْبُشْرَى، الشَّكُورُ فِي صِفَةِ اللَّهِ مَجَازٌ لِلِاعْتِدَادِ بِالطَّاعَةِ، وَتُوَفِيهِ ثَوَابَهَا، وَالتَّفَضُّلُ عَلَى الْمُثَابِ.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[2]

﴿أَمْ﴾[3] مُنْقَطِعَةٌ. وَمَعْنَى الْهَمْزَةُ فيهِ التَّوْبِيخُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَيَتَمَالَكُونَ أَنْ يَنْسُبُوا مِثْلَهُ إِلَى الِافْتِرَاءِ، ثُمَّ إِلَى الِافْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الْفَرَى وَأَفْحَشُهَا.

﴿فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾[4]، فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَجْعَلُكَ مِنَ الْمَخْتُومِ عَلَى قُلُوبِهِمْ، حَتَّى تَفْتَرِيَ عَلَيْهِ الْكَذِبَ فَإِنَّهُ لَا يَجْتَرِئُ عَلَى افْتِرَاءِ الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ إِلَّا مَنْ كَانَ فِي مِثْلِ حَالِهِمْ، وَهَذَا الْأُسْلُوبُ مُؤَدَّاهُ اسْتِبْعَادُ الِافْتِرَاءِ مِنْ مِثْلِهِ، وَأَنَّهُ فِي الْبُعْدِ مِثْلُ الشِّرْكِ بِاللَّهِ وَالدُّخُولِ فِي جُمْلَةِ الْمَخْتُومِ عَلَى قُلُوبِهِمْ.

وَمِثَالُ هَذَا: أَنْ يُخَوَّنَ بَعْضُ الْأُمَنَاءِ فيقُولُ: لَعَلَّ اللَّهَ خَذَلَنِي، لَعَلَّ اللَّهَ أَعْمَى قَلْبِي، وَهُوَ لَا يُرِيدُ إِثْبَاتَ الْخُذْلَانِ وَعَمَى الْقَلْبِ.

وَإِنَّمَا يُرِيدُ اسْتِبْعَادَ أَنْ يُخَوَّنَ مِثْلُهُ، وَالتَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّهُ رُكِّبَ مِنْ تَخْوِينِهِ أَمْرٌ عَظِيمٌ، ثُمَّ قَالَ: وَمِنْ عَادَةِ اللَّهِ أَنْ يَمْحُوَ الْبَاطِلَ وَيُثْبِتَ الْحَقَّ.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الْبَقَرَة، الآية 245.

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة الشُّورَى، الآية .

﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾[1] بِوَحْيِهِ أَوْ بِقَضَائِهِ كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾[2]، يَعْنِي: لَوْ كَانَ مُفْتَرِيًا كَمَا تَزْعُمُونَ لَكَشَفَ اللَّهُ افْتِرَاءَهُ وَمَحَقَهُ وَقَذَفَ بِالْحَقِّ عَلَى بَاطِلِهِ فَدَمَغَهُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عِدَّةً لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِأَنَّهُ يَمْحُو الْبَاطِلَ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْبُهْتِ وَالتَّكْذِيبِ، وَيُثْبِتَ الْحَقَّ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ بِالْقُرْآنِ وَبِقَضَائِهِ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ نُصْرَتِكَ عَلَيْهِمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا فِي صَدْرِكَ وَصُدُورِهِمْ، فيجْرِي الْأَمْرُ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ.

وَعَنْ قَتَادَةَ ﴿يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾[3]: يُنْسِكَ الْقُرْآنُ وَيَقْطَعُ عَنْكَ الْوَحْيَ، يَعْنِي: لَوِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَفَعَلَ بِهِ ذَلِكَ، وَقِيلَ: ﴿يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾[4]: يَرْبُطُ عَلَيْهِ بِالصَّبْرِ، حَتَّى لَا يَشُقَّ عَلَيْكَ أَذَاهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: إِنْ كَانَ قَوْلُهُ: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾[5] كَلَامًا مُبْتَدَأً غَيْرَ مَعْطُوفٍ عَلَى يَخْتِمُ، فَمَا بَالُ الْوَاوِ سَاقِطَةً فِي الْخَطِّ؟

قُلْتُ: كَمَا سَقَطَتْ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ﴾[6]، وَقَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾[7] عَلَى أَنَّهَا مُثْبَتَةٌ عَلَى فِي بَعْضِ الْمَصَاحِفِ.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[8]

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الْأَنْبِيَاء، الآية 18.

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة الشُّورَى، الآية .

5 سورة الشُّورَى، الآية .

6 سورة الْإِسْرَاء، الآية 11.

7 سورة الْعَلَق، الآية .

8 سورة الشُّورَى، الآية .

يُقَالُ: قَبِلْتُ مِنْهُ الشَّيْءَ، وَقَبِلْتُهُ عَنْهُ. فَمَعْنَى قَبِلْتُهُ مِنْهُ: أَخَذْتُهُ مِنْهُ وَجَعَلْتُهُ مَبْدَأَ قَبُولِي وَمَنْشَأَهُ.

وَمَعْنَى: قَبِلْتُهُ عَنْهُ: عَزَلْتُهُ عَنْهُ وَأَبَنْتُهُ عَنْهُ. وَالتَّوْبَةُ: أَنْ يَرْجِعَ عَنِ الْقَبِيحِ وَالْإِخْلَالِ بِالْوَاجِبِ بِالنَّدَمِ عَلَيْهِمَا وَالْعَزْمِ عَلَى أَنْ لَا يُعَاوِدَ، لِأَنَّ الْمَرْجُوعَ عَنْهُ قَبِيحٌ وَإِخْلَالٌ بِالْوَاجِبِ. وَإِنْ كَانَ فيهِ لِعَبْدٍ حَقٌّ: لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنَ التَّقَصِّي عَلَى طَرِيقِهِ.

وَرَوَى جَابِرٌ أَنْ أَعْرَابِيًّا دَخَلَ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَقَالَ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ"، وَكَبَّرَ. فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ قَالَ لَهُ عَلِيٌّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: يَا هَذَا، إِنَّ سُرْعَةَ اللِّسَانِ بِالِاسْتِغْفَارِ تَوْبَةُ الْكَذَّابِينَ، وَتَوْبَتُكَ تَحْتَاجُ إِلَى التَّوْبَةِ. فَقَالَ: "يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا التَّوْبَةُ؟"، قَالَ: "اسْمٌ يَقَعُ عَلَى سِتَّةِ مَعَانٍ: عَلَى الْمَاضِي مِنَ الذُّنُوبِ النَّدَامَةُ؛ وَلِتَضْيِيعِ الْفَرَائِضِ الْإِعَادَةُ؛ وَرَدُّ الْمَظَالِمِ؛ وَإِذَابَةُ النَّفْسِ في الطَّاعَةِ كَمَا رَبَّيْتُهَا في الْمَعْصِيَةِ؛ وَإِذَاقَةُ النَّفْسِ مَرَارَةَ الطَّاعَةِ، كَمَا أَذَقْتَهَا حَلَاوَةَ الْمَعْصِيَةِ؛ وَالْبُكَاءَ بَدَلَ كُلِّ ضَحِكٍ ضَحِكْتَهُ".

﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾[1]: عَنِ الْكَبَائِرِ إِذَا تِيبَ عَنْهَا، وَعَنِ الصَّغَائِرِ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[2]، قُرِئَ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ، أَيْ: يَعْلَمُهُ فيثِيبُ عَلَى حَسَنَاتِهِ، وَيُعَاقِبُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ.

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[3]

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الشُّورَى، الآية .

3 سورة الشُّورَى، الآية .

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[1]، أَيْ يَسْتَجِيبُ لَهُمْ، فَحَذَفَ اللَّامَ كَمَا حَذَفَ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾[2]، أَيْ يُثِيبُهُمْ عَلَى طَاعَتِهِمْ وَيَزِيدُهُمْ عَلَى الثَّوَابِ تَفَضُّلًا، أَوْ إِذَا دَعَوْهُ اسْتَجَابَ دُعَاءَهُمْ وَأَعْطَاهُمْ مَا طَلَبُوا زَادَهُمْ عَلَى مَطْلُوبِهِمْ.

وَقِيلَ: الِاسْتِجَابَةُ: فِعْلُهُمْ، أَيْ يَسْتَجِيبُونَ لَهُ بِالطَّاعَةِ إِذَا دَعَاهُمْ إِلَيْهَا.

﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾[3] هُوَ ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾[4] عَلَى ثَوَابِهِمْ.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: هَذَا مِنْ فِعْلِهِمْ: يُجِيبُونَهُ إِذَا دَعَاهُمْ.

وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: مَا بَالُنَا نَدْعُو فَلَا نُجَابُ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ دَعَاكُمْ فَلَمْ تُجِيبُوهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ﴾[5]، ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[6].

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾[7]

﴿لَبَغَوْا﴾[8] مِنَ الْبَغْيِ وَهُوَ الظُّلْمُ، أَيْ: لَبَغَى هَذَا عَلَى ذَاكَ، وَذَاكَ عَلَى هَذَا، لِأَنَّ الْغِنَى مَبْطَرَةٌ مَأْشَرَةٌ، وَكَفَى بِحَالِ قَارُونَ عِبْرَةً.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–:

أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي زَهْرَةُ الدُّنْيَا وَكَثْرَتُهَا

وَلِبَعْضِ الْعَرَبِ:

وَقَدْ جَعَلَ الْوَسْمِيَّ يَنْبُتُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ بَنِي رُومَانَ نَبْعًا وَشَوْحَطَا

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الْمُطَفِّفِينَ، الآية 3.

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة الشُّورَى، الآية .

5 سورة يُونُس، الآية 25.

6 سورة الشُّورَى، الآية .

7 سورة الشُّورَى، الآية .

8 سورة الشُّورَى، الآية .

يَعْنِي: أَنَّهُمْ أَحْيَوْا فَحَدَّثُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْبَغْيِ وَالتَّفَانُنِ، أَوْ مِنَ الْبَغْيِ وَهُوَ الْبَذَخُ وَالْكِبْرُ، أَيْ: لِتَكْبُرُوا فِي الْأَرْضِ، وَفَعَلُوا مَا يَتْبَعُ الْكِبَرَ مِنَ الْغُلُوِّ فيها وَالْفَسَادِ. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الصِّفَةِ تَمَنَّوْا سَعَةَ الرِّزْقِ وَالْغِنَى.

قَالَ خَبَّابُ ابْنُ الْأَرَتِّ: فِينَا نَزَلَتْ، وَذَلِكَ أَنَّا نَظَرْنَا إِلَى أَمْوَالِ بَنِي قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ وَبَنِي قَيْنُقَاعَ فَتَمَنَّيْنَاهَا "بِقَدَرٍ" بِتَقْدِيرٍ. يُقَالُ قَدْرَهُ قَدْرًا وَقَدَرًا.

﴿خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾[1] يَعْرِفُ مَا يَؤُولُ إِلَيْهِ أَحْوَالُهُمْ، فيقَدِّرُ لَهُمْ مَا هُوَ أَصْلَحُ لَهُمْ وَأَقْرَبُ إِلَى جَمْعِ شَمْلِهِمْ، فيفْقِرُ وَيُغْنِي، وَيَمْنَعُ وَيُعْطِي، وَيَقْبِضُ وَيَبْسُطُ كَمَا تُوجِبُهُ الْحِكْمَةُ الرَّبَّانِيَّةُ. وَلَوْ أَغْنَاهُمْ جَمِيعًا لَبَغَوْا، وَلَوْ أَفْقَرَهُمْ لَهَلَكُوا.

فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ نَرَى النَّاسَ يَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَمِنْهُمْ مَبْسُوطٌ لَهُمْ، وَمِنْهُمْ مَقْبُوضٌ عَنْهُمْ، فَإِنْ كَانَ الْمَبْسُوطُ لِمَ يَبْغُونَ، فَلِمَ بَسَطَ لَهُمْ، وَإِنْ كَانَ الْمَقْبُوضُ عَنْهُمْ يَبْغُونَ فَقَدْ يَكُونُ الْبَغْيُ بِدُونِ الْبَسْطِ، فَلِمَ شَرَطَهُ؟

قُلْتُ: لَا شُبْهَةَ فِي أَنَّ الْبَغْيَ مَعَ الْفَقْرِ أَقَلُّ وَمَعَ الْبَسْطِ أَكْثَرُ وَأَغْلَبُ، وَكِلَاهُمَا سَبَبٌ ظَاهِرٌ لِلْإِقْدَامِ عَلَى الْبَغْيِ وَالْإِحْجَامِ عَنْهُ، فَلَوْ عَمَّ الْبَسْطُ لَغَلَبَ الْبَغْيُ حَتَّى يَنْقَلِبَ الْأَمْرُ إِلَى عَكْسِ مَا عَلَيْهِ الْآنَ.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾[2]

قُرِئَ: (قَنَطُو) بِفَتْحِ النُّونِ وَكَسْرِهَا.

﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾[3]، أَيْ: بَرَكَاتُ الْغَيْثِ وَمَنَافِعُهُ وَمَا يَحْصُلُ بِهِ مِنَ الْخَصْبِ.

وَعَنْ عُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: "اشْتَدَّ الْقَحْطُ وَقَنَطَ النَّاسُ"، فَقَالَ: "مُطِرُوا" إِذَا أَرَادَ هَذِهِ الْآيَةَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ: رَحْمَتَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، كَأَنَّهُ قَالَ: يُنْزِلُ الرَّحْمَةَ الَّتِي هِيَ الْغَيْثُ، وَيَنْشُرُ غَيْرَهَا مِنْ رَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ.

---

[1] سورة الشُّورَى، الآية .

[2] سورة الشُّورَى، الآية .

[3] سورة الشُّورَى، الآية .

﴿الْوَلِيُّ﴾[1] الَّذِي يَتَوَلَّى عِبَادَهُ بِإِحْسَانِهِ.

﴿الْحَمِيدِ﴾[2] الْمَحْمُودُ عَلَى ذَلِكَ يَحْمَدُهُ أَهْلُ طَاعَتِهِ.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾[3]

﴿وَمَا بَثَّ﴾[4] يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَرْفُوعًا وَمَجْرُورًا يُحْمَلُ عَلَى الْمُضَافِ إِلَيْهِ أَوِ الْمُضَافِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ جَازَ ﴿فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾[5] وَالدَّوَابُّ فِي الْأَرْضِ وَحْدَهَا؟

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يُنْسَبَ الشَّيْءُ إِلَى جَمِيعِ الْمَذْكُورِ وَإِنْ كَانَ مُلْتَبِسًا بِبُعْضِهِ، كَمَا يُقَالُ :بَنُو تَمِيمٍ فِيهِمْ شَاعِرٌ مُجِيدٌ أَوْ شُجَاعٌ بَطَلٌ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي فَخْذٍ مِنْ أَفْخَاذِهِمْ أَوْ فَصِيلَةٍ مِنْ فَصَائِلِهِمْ، وَبَنُو فُلَانٍ فَعَلُوا كَذَا، وَإِنَّمَا فَعَلُوا نُوَيْسَ مِنْهُمْ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[6]، وَإِنَّمَا يَخْرُجُ مِنَ الْمِلْحِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِلْمَلَائِكَةِ –عَلَيْهِمُ السَّلَامُ– مَشْيٌ مَعَ الطَّيَرَانِ. فيوصَفُوا بِالدَّبِيبِ، كَمَا يُوصَفُ بِهِ الْأَنَاسِيُّ.

وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَخْلُقَ فِي السَّمَاوَاتِ حَيَوَانًا يَمْشِي فيها مَشْيَ الْأَنَاسِيِّ عَلَى الْأَرْضِ، سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ مَا نَعْلَمُ وَمَا لَا نَعْلَمُ مِنْ أَصْنَافِ الْخَلْقِ.

﴿إِذَا﴾[7] وَمِنْهُ يَدْخُلُ عَلَى الْمُضَارِعِ كَمَا يَدْخُلُ عَلَى الْمَاضِي قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾[8]، وَمِنْهُ: ﴿إِذَا يَشَاءُ﴾[9].

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الشُّورَى، الآية .

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة الشُّورَى، الآية .

5 سورة الشُّورَى، الآية .

6 سورة الرَّحْمَنُ، الآية 22.

7 سورة الشُّورَى، الآية .

8 سورة اللَّيْلُ، الآية 1.

وَقَالَ الشَّاعِرُ:

وَإِذَا مَا أَشَاءُ أَبْعَثُ مِنْهَا آخِرَ اللَّيْلِ نَاشِطًا مَذْعُورَا

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾[1]

في مَصَاحِفِ أَهْلِ الْعِرَاقِ ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ﴾[2] بِإِثْبَاتِ الْفَاءِ عَلَى تَضْمِينِ "مَا" مَعْنَى الشَّرْطِ. وَفِي مَصَاحِفِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ (بِمَا كَسَبَتْ) بِغَيْرِ فَاءٍ، عَلَى أَنَّ "مَا" مُبْتَدَأَةٌ، وَبِمَا كَسَبَتْ: خَبَرُهَا مِنْ غَيْرِ تَضْمِينِ مَعْنَى الشَّرْطِ. وَالْآيَةُ مَخْصُوصَةٌ بِالْمُجْرِمِينَ وَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَسْتَوْفِيَ اللَّهُ بَعْضَ عِقَابِ الْمُجْرِمِ وَيَعْفُو عَنْ بَعْضٍ. فَأَمَّا مَنْ لَا جَرَمَ لَهُ كَالْأَنْبِيَاءِ وَالْأَطْفَالِ وَالْمَجَانِينِ، فَهَؤُلَاءِ إِذَا أَصَابَهُمْ شَيْءٌ مِنْ أَلَمٍ أَوْ غَيْرِهِ فَلِلْعِوَضِ الْمُوَفِّي وَالْمَصْلَحَةِ.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَا مِنَ اخْتِلَاجِ عِرْقٍ وَلَا خَدْشِ عُودٍ وَلَا نَكْبَةِ حَجَرٍ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَلِمَا يَعْفُو اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرُ".

وَعَنْ بَعْضِهِمْ: مَنْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنَ الْفِتَنِ وَالْمَصَائِبِ بِاكْتِسَابِهِ. وَأَنَّ مَا عَفَا عَنْهُ مَوْلَاهُ أَكْثَرُ: كَانَ قَلِيلَ النَّظَرِ فِي إِحْسَانِ رَبِّهِ إِلَيْهِ.

وَعَنْ آخَرَ: الْعَبْدُ مُلَازِمٌ لِلْجِنَايَاتِ فِي كُلِّ أَوَانٍ، وَجِنَايَاتُهُ فِي طَاعَاتِهِ أَكْثَرُ مِنْ جِنَايَاتِهِ فِي مَعَاصِيهِ، لِأَنَّ جِنَايَةَ الْمَعْصِيَةِ مِنْ وَجْهٍ وَجِنَايَةَ الطَّاعَةِ مِنْ وُجُوهٍ، وَاللَّهُ يُطَهِّرُ عَبْدَهُ مِنْ جِنَايَاتِهِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْمَصَائِبِ، لِيُخَفِّفَ عَنْهُ أَثْقَالَهُ فِي الْقِيَامَةِ، وَلَوْلَا عَفْوُهُ وَرَحْمَتُهُ لَهَلَكَ فِي أَوَّلِ خُطْوَةٍ.

وَعَنْ عَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– وَقَدْ رَفَعَهُ: "مِنْ عُفِيَ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا عُفِيَ عَنْهُ فِي الْآخِرَةِ وَمَنْ عُوقِبَ فِي الدُّنْيَا لَمْ تُثْنِ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةُ فِي الْآخِرَةِ"، وَعَنْهُ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: هَذِهِ أَرْجَى آيَةٍ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْقُرْآنِ.

﴿بِمُعْجِزِينَ﴾[3]: بِفَائِتِينَ مَا قُضِيَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْمَصَائِبِ.

---

9 سورة الشُّورَى، الآية .

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الشُّورَى، الآية .

3 سورة الشُّورَى، الآية .

﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾[1] مِنْ مُتَوَلٍّ بِالرَّحْمَةِ.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾[2]

﴿الْجَوَارِ﴾[3]: السُّفُنُ. وَقُرِئَ (الْجِوَارِ) "كَالْأَعْلَامِ" كَالْجِبَالِ.

قَالَتِ الْخَنْسَاءُ:

كَأَنَّهُ عَلَمٌ في رَأْسِهِ نَـــــــــــــــارُ

وَقُرِئَ: (الرِّيَاحُ فيظْلِلْنَ) بِفَتْحِ اللَّامِ وَكَسْرِهَا، مِنْ ظَلَّ وَيَظَلُّ، نَحْوُ: ضَلَّ يَضِلُّ وَيَضَلُّ

﴿رَوَاكِدَ﴾[4] ثَوَابِتَ لَا تَجْرِي.

﴿عَلَى ظَهْرِهِ﴾[5] عَلَى ظَهْرِ الْبَحْرِ.

﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾[6] عَلَى بَلَاءِ اللَّهِ ﴿شَكُورٍ﴾[7] لِنَعْمَائِهِ، وَهُمَا صِفَتَا الْمُؤْمِنِ الْمُخْلِصِ، فَجَعَلَهُمَا كِنَايَةً عَنْهُ، وَهُوَ الَّذِي وَكَّلَ هِمَّتَهُ بِالنَّظَرِ في آيَاتِ اللَّهِ، فَهُوَ يَسْتَمْلِي مِنْهَا الْعِبَرَ.

﴿يُوبِقْهُنَّ﴾[8] يُهْلِكُهُنَّ. وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ إِنْ يَشَأْ يَبْتَلِي الْمُسَافِرِينَ في الْبَحْرِ بِإِحْدَى بَلِيَّتَيْنِ: إِمَّا أَنْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فيرْكُدُ الْجَوَارِي عَلَى مَتْنِ الْبَحْرِ وَيَمْنَعُهُنَّ مِنَ الْجَرْيِ، وَإِمَّا أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ عَاصِفَةً فيهْلِكُهُنَّ إِغْرَاقًا بِسَبَبِ مَا كَسَبُوا مِنَ الذُّنُوبِ.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .
2 سورة الشُّورَى، الآية .
3 سورة الشُّورَى، الآية .
4 سورة الشُّورَى، الآية .
5 سورة الشُّورَى، الآية .
6 سورة الشُّورَى، الآية .
7 سورة الشُّورَى، الآية .
8 سورة الشُّورَى، الآية .

﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾[1] مِنْهَا، فَإِنْ قُلْتَ: عَلَامَ عَطَفَ يُوبِقْهُنَّ؟ قُلْتُ: عَلَى يَسْكُنُ، لِأَنَّ الْمَعْنَى: إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فيرْكُدْنَ، أَوْ يَعْصِفُهَا فيغْرَقْنَ بِعَصْفِهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى إِدْخَالُ الْعَفْوِ في حُكْمِ الْإِيبَاقِ حَيْثُ جَزَمَ جَزْمَهُ؟ قُلْتُ: مَعْنَاهُ: أَوْ إِنْ يَشَأْ يُهْلِكْ نَاسًا وَيُنْجِ نَاسًا عَلَى طَرِيقِ الْعَفْوِ عَنْهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَنْ قَرَأَ: (وَيَعْفُو)؟ قُلْتُ: قَدِ اسْتَأْنَفَ الْكَلَامَ.

﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾[2]

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا وُجُوهُ الْقِرَاآتِ الثَّلَاثِ في ﴿وَيَعْلَمَ﴾[3]؟

قُلْتُ: أَمَّا الْجَزْمُ فَعَلَى ظَاهِرِ الْعَطْفِ، وَأَمَّا الرَّفْعُ فَعَلَى الِاسْتِئْنَافِ، وَأَمَّا النَّصْبُ فَلِلْعَطْفِ عَلَى تَعْلِيلٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: لِيَنْتَقِمَ مِنْهُمْ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ، وَنَحْوُهُ في الْعَطْفِ عَلَى التَّعْلِيلِ الْمَحْذُوفِ غَيْرُ عَزِيزٍ في الْقُرْآنِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾[4]، وَقَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[5].

وَأَمَّا قَوْلُ الزَّجَّاجِ: النَّصْبُ عَلَى إِضْمَارِ أَنْ، لِأَنَّ قَبْلَهَا جَزَاءً، تَقُولُ: مَا تَصْنَعُ أَصْنَعُ مِثْلَهُ وَأُكْرِمُكَ وَإِنْ شِئْتَ وَأُكْرِمُكَ، عَلَى تَأْوِيلِ: وَأَنَا أُكْرِمُكَ. وَإِنْ شِئْتَ وَأَكْرَمْكَ جَزْمًا، فَفِيهِ نَظَرٌ لِمَا أَوْرَدَهُ سِيبَوَيْهِ في كِتَابِهِ.

قَالَ: وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْبَ بِالْفَاءِ وَالْوَاوِ في قَوْلِهِ: إِنْ تَأْتِنِي آتِكَ وَأُعْطِيكَ: ضَعِيفٌ، وَهُوَ نَحْوٌ مِنْ قَوْلِهِ:

وَأَلْحَقَ بِالْحِجَازِ فَأَسْتَرِيحَـــــــــــا

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الشُّورَى، الآية .

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة مَرْيَم، الآية 21.

5 سورة الْجَاثِيَة، الآية 22.

فَهَذَا يَجُوزُ، وَلَيْسَ بِحَدِّ الْكَلَامِ وَلَا وَجْهِهِ، إِلَّا أَنَّهُ فِي الْجَزَاءِ صَارَ أَقْوَى قَلِيلًا، لِأَنَّهُ لَيْسَ بِوَاجِبٍ أَنَّهُ يَفْعَلُ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْأَوَّلِ فِعْلٌ، فَلَمَّا ضَارَعَ الَّذِي لَا يُوجِبُهُ كَالِاسْتِفْهَامِ وَنَحْوِهِ: أَجَازُوا فِيهِ هَذَا عَلَى ضَعْفِهِ، ا هـ.

وَلَا يَجُوزُ أَنْ تُحْمَلَ الْقِرَاءَةُ الْمُسْتَفِيضَةُ عَلَى وَجْهٍ ضَعِيفٍ لَيْسَ بِحَدِّ الْكَلَامِ وَلَا وَجْهِهِ، وَلَوْ كَانَتْ مِنْ هَذَا الْبَابِ لَمَا أَخْلَى سِيبَوَيْهِ مِنْهَا كِتَابَهُ، وَقَدْ ذَكَرَ نَظَائِرَهَا مِنَ الْآيَاتِ الْمُشْكَلَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَكَيْفَ يَصِحُّ الْمَعْنَى عَلَى جَزْمِ "وَيَعْلَمْ"؟ قُلْتُ: كَأَنَّهُ قَالَ: أَوَ إِنْ يَشَأْ يَجْمَعُ بَيْنَ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ: هَلَاكُ قَوْمٍ وَنَجَاةُ قَوْمٍ وَتَحْذِيرُ آخَرِينَ.

﴿مِنْ مَحِيصٍ﴾[1]: مِنْ مَحِيدٍ عَنْ عِقَابِهِ.

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[2]

"مَا" الْأَوْلَى ضَمَّنَتْ مَعْنَى الشَّرْطِ، فَجَاءَتِ الْفَاءُ فِي جَوَابِهَا بِخِلَافِ الثَّانِيَةِ.

عَنْ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: اجْتَمَعَ لِأَبِي بَكْرٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- مَالٌ، فَتَصَدَّقَ بِهِ كُلَّهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْخَيْرِ، فَلَامَهُ الْمُسْلِمُونَ وَخَطَّأَهُ الْكَافِرُونَ، فَنَزَلَتْ.

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[3]

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾[4] عَطْفٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا، وَكَذَلِكَ مَا بَعْدَهُ.

وَمَعْنَى: ﴿كَبَائِرَ الإِثْمِ﴾[5] الْكَبَائِرُ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الشُّورَى، الآية .

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة الشُّورَى، الآية .

5 سورة الشُّورَى، الآية .

وَقُرِئَ (كَبِيرُ الْإِثْمِ)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ-: كَبِيرُ الْإِثْمِ هُوَ الشِّرْكُ .

﴿هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[1]، أَيْ: هُمُ الْأَخِصَّاءُ بِالْغُفْرَانِ فِي حَالِ الْغَضَبِ، لَا يَغُولُ الْغَضَبُ أَحْلَامَهُمْ كَمَا يَغُولُ حُلُومَ النَّاسِ، وَالْمَجِيءُ بِهِمْ وَإِيقَاعُهُ مُبْتَدَأً، وَإِسْنَادُ ﴿يَغْفِرُونَ﴾[2] إِلَيْهِ لِهَذِهِ الْفَائِدَةِ، وَمِثْلُهُ: ﴿هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾[3].

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[4]

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾[5] نَزَلَتْ فِي الْأَنْصَارِ: دَعَاهُمُ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- لِلْإِيمَانِ بِهِ وَطَاعَتِهِ، فَاسْتَجَابُوا لَهُ بِأَنْ آمَنُوا بِهِ وَأَطَاعُوهُ، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾[6]: وَأَتَمُّوا الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ.

وَكَانُوا قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَقَبْلَ مَقْدَمِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الْمَدِينَةَ: إِذَا كَانَ بِهِمْ أَمْرٌ اجْتَمَعُوا وَتَشَاوَرُوا، فَأَثْنَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ، أَيْ: لَا يَنْفَرِدُونَ بِرَأْيٍ حَتَّى يَجْتَمِعُوا عَلَيْهِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: "مَا تَشَاوَرَ قَوْمٌ إِلَّا هُدُوا لِأَرْشَدِ أَمْرِهِمْ"، وَالشُّورَى: مَصْدَرٌ كَالْفُتْيَا، بِمَعْنَى التَّشَاوُرِ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[7]، أَيْ: ذُو شُورَى، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ: تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- الْخِلَافَةَ شُورَى.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .
2 سورة الشُّورَى، الآية .
3 سورة الشُّورَى، الآية 39.
4 سورة الشُّورَى، الآية .
5 سورة الشُّورَى، الآية .
6 سورة الشُّورَى، الآية .
7 سورة الشُّورَى، الآية .

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾[1]

هُوَ أَنْ يَقْتَصِرُوا فِي الِانْتِصَارِ عَلَى مَا جَعَلَهُ اللَّهُ لَهُمْ وَلَا يَعْتَدُوا.

وَعَنِ النَّخْعِيِّ أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَرَأَهَا قَالَ: كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يُذِلُّوا أَنْفُسَهُمْ، فيجْتَرِئُ عَلَيْهِمُ الْفُسَّاقُ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَهُمْ مَحْمُودُونَ عَلَى الِانْتِصَارِ؟

قُلْتُ: نَعَمْ، لِأَنَّ مَنْ أَخَذَ حَقَّهُ غَيْرَ مُتَعَدٍّ حَدَّ اللَّهِ، وَمَا أَمَرَ بِهِ، فَلَمْ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنْ كَانَ وَلِيَّ دَمٍ أَوْرَدَ عَلَى سَفيهٍ، مُحَامَاةً عَلَى عِرْضِهِ وَرَدْعًا لَهُ، فَهُوَ مُطِيعٌ. وَكُلُّ مُطِيعٍ مَحْمُودٌ.

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[2]

كِلْتَا الْفِعْلَتَيْنِ الْأُولَى وَجَزَاؤُهَا سَيِّئَةٌ، لِأَنَّهَا تَسُوءُ مَنْ تَنْزِلُ بِهِ.

قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾[3]، يُرِيدُ: مَا يَسُوءُهُمْ مِنَ الْمَصَائِبِ وَالْبَلَايَا.

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ يَجِبُ إِذَا قُوبِلَتِ الْإِسَاءَةُ أَنْ تُقَابَلَ بِمِثْلِهَا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ، فَإِذَا قَالَ: أَخْزَاكَ اللَّهُ قَالَ: أَخْزَاكَ اللَّهُ، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾[4] بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَصْمِهِ بِالْعَفْوِ وَالْإِغْضَاءِ. كَمَا قَالَ –تَعَالَى–: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[5]، ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[6]: عِدَةٌ مُبْهَمَةٌ لَا يُقَاسُ أَمْرُهَا فِي الْعِظَمِ.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الشُّورَى، الآية .

3 سورة النِّسَاءُ، الآية 78.

4 سورة الشُّورَى، الآية .

5 سورة فُصِّلَتْ، الآية 34.

6 سورة الشُّورَى، الآية .

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[1]: دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الِانْتِصَارَ لَا يَكَادُ يُؤْمَنُ فِيهِ تَجَاوُزُ السَّيِّئَةِ وَالِاعْتِدَاءِ خُصُوصًا فِي حَالِ الْحَرْدِ وَالْتِهَابِ الْحَمِيَّةِ، فَرُبَّمَا كَانَ الْمَجَازِيُّ مِنَ الظَّالِمِينَ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "وَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ: مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى اللَّهِ أَجْرٌ فَلْيَقُمْ. قَالَ: فيقُومُ خَلْقٌ، فيقَالُ لَهُمْ: مَا أَجْرُكُمْ عَلَى اللَّهِ؟ فيقُولُونَ: نَحْنُ الَّذِينَ عَفَوْنَا عَمَّنْ ظَلَمَنَا، فيقَالُ لَهُمُ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِإِذْنِ اللَّهِ".

﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2]

﴿بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾[3] مِنْ إِضَافَةِ الْمَصْدَرِ إِلَى الْمَفْعُولِ، وَتُفَسِّرُهُ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ (بَعْدَ مَا ظَلَمَ).

﴿فَأُولَئِكَ﴾[4] إِشَارَةٌ إِلَى مَعْنَى ﴿مِنْ﴾[5] دُونِ لَفْظِهِ.

﴿مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾[6] لِلْمُعَاقِبِ وَلَا لِلْعَاتِبِ وَالْعَائِبِ.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾[7]: يَبْتَدِئُونَ بِالظُّلْمِ.

﴿وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ﴾[8]: يَتَكَبَّرُونَ فيها وَيَعْلُونَ وَيُفْسِدُونَ.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .
2 سورة الشُّورَى، الآية .
3 سورة الشُّورَى، الآية .
4 سورة الشُّورَى، الآية .
5 سورة الشُّورَى، الآية .
6 سورة الشُّورَى، الآية .
7 سورة الشُّورَى، الآية .
8 سورة الشُّورَى، الآية .

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[1]

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ﴾[2] عَلَى الظُّلْمِ وَالْأَذَى، ﴿وَغَفَرَ﴾[3] وَلَمْ يَنْتَصِرْ وَفَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ.

﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾[4] مِنْهُ ﴿لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[5] وَحَذَفَ الرَّاجِعَ لِأَنَّهُ مَفْهُومٌ، كَمَا حَذَفَ مِنْ قَوْلِهِمُ: السَّمْنُ مَنَوَانُ بِدِرْهَمٍ.

وَيُحْكَى أَنَّ رَجُلًا سَبَّ رَجُلًا فِي مَجْلِسِ الْحَسَنِ -رَحِمَهُ اللَّهُ-، فَكَانَ الْمَسْبُوبُ يَكْظِمُ، وَيَعْرَقُ فيمْسَحُ الْعَرَقَ، ثُمَّ قَامَ فَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ، فَقَالَ الْحَسَنُ: عَقْلُهَا وَاللَّهِ وَفَهْمُهَا إِذْ ضَيَّعَهَا الْجَاهِلُونَ.

وَقَالُوا: الْعَفْوُ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ، ثُمَّ الْأَمْرُ قَدْ يَنْعَكِسُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ، فيرْجِعُ تَرْكُ الْعَفْوِ مَنْدُوبًا إِلَيْهِ، وَذَلِكَ إِذَا احْتِيجَ إِلَى كَفِّ زِيَادَةِ الْبَغْيِ، وَقَطْعِ مَادَّةِ الْأَذَى.

وَعَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ وَهُوَ: أَنَّ زَيْنَبَ أَسْمَعَتْ عَائِشَةَ بِحَضْرَتِهِ، وَكَانَ يَنْهَاهَا فَلَا تَنْتَهِي، فَقَالَ لِعَائِشَةَ: "دُونَكِ فَانْتَصِرِي".

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾[6]

﴿ [illegible] ﴾[7]: [illegible]، ﴿ [illegible] ﴾[8]، [illegible] [illegible].

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .
2 سورة الشُّورَى، الآية .
3 سورة الشُّورَى، الآية .
4 سورة الشُّورَى، الآية .
5 سورة الشُّورَى، الآية .
6 سورة الشُّورَى، الآية .
7 سورة الشُّورَى، الآية .
8 سورة الشُّورَى، الآية .

﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنَ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾[1]

﴿خَاشِعِينَ﴾[2]: مُتَضَائِلِينَ مُتَقَاصِرِينَ مِمَّا يَلْحَقُهُمْ ﴿مِنَ الذُّلِّ﴾[3]، وَقَدْ يُعَلِّقُ ﴿مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ﴾[4]، وَيُوقِفُ عَلَى ﴿خَاشِعِينَ﴾[5].

﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾[6]، أَيْ يَبْتَدِئُ نَظَرَهُمْ مِنْ تَحْرِيكٍ لِأَجْفَانِهِمْ ضَعِيفٌ خَفِي بِمُسَارَقَةٍ، كَمَا تَرَى الْمَصْبُورَ يَنْظُرُ إِلَى السَّيْفِ.

وَهَكَذَا نَظَرَ النَّاظِرُ إِلَى الْمَكَارِهِ: لَا يَقْدِرُ أَنْ يَفْتَحَ أَجْفَانَهُ عَلَيْهَا وَيَمْلَأَ عَيْنَيْهِ مِنْهَا، كَمَا يَفْعَلُ فِي نَظَرِهِ إِلَى الْمُحَابِّ.

وَقِيلَ: يُحْشَرُونَ عُمْيًا فَلَا يَنْظُرُونَ إِلَّا بِقُلُوبِهِمْ. وَذَلِكَ نَظَرٌ مِنْ طَرْفٍ خَفِي. وَفِيهِ تَعَسُّفٌ "يَوْمَ" إِمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِخَسِرُوا، وَيَكُونُ قَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ وَاقِعًا فِي الدُّنْيَا، وَإِمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِقَالَ، أَيْ: يَقُولُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا رَأَوْهُمْ عَلَى تِلْكَ الصِّفَةِ.

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾[7]

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .
2 سورة الشُّورَى، الآية .
3 سورة الشُّورَى، الآية .
4 سورة الشُّورَى، الآية .
5 سورة الشُّورَى، الآية .
6 سورة الشُّورَى، الآية .
7 سورة الشُّورَى، الآية .

﴿مِنَ اللَّهِ﴾[1]: ﴿مِنْ﴾[2] صِلَةٌ ﴿لَا مَرَدَّ﴾[3]، أَيْ: لَا يُرِدْهُ اللَّهُ بَعْدَمَا حَكَمَ بِهِ، أَوْ مِنْ صِلَةِ يَأْتِي، أَيْ: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ مِنَ اللَّهِ يَوْمٌ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى رَدِّهِ.

وَالنَّكِيرُ: الْإِنْكَارُ، أَيْ: مَا لَكُمَ مِنْ مُخَلِّصٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَا تَقْدِرُونَ أَنْ تُنْكِرُوا شَيْئًا مِمَّا اقْتَرَفْتُمُوهُ وَدُوِّنَ في صَحَائِفِ أَعْمَالِكُمْ.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾[4]

أَرَادَ بِالْإِنْسَانِ الْجَمْعَ لَا الْوَاحِدَ، لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾[5]، وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْمُجْرِمِينَ، لِأَنَّ إِصَابَةَ السَّيِّئَةِ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِنَّمَا تَسْتَقِيمُ فِيهِمْ.

وَالرَّحْمَةُ: النِّعْمَةُ مِنَ الصِّحَّةِ وَالْغِنَى وَالْأَمْنِ.

وَالسَّيِّئَةُ: الْبَلَاءُ مِنَ الْمَرَضِ وَالْفَقْرِ وَالْمَخَاوِفِ.

وَالْكَفُورُ: الْبَلِيغُ الْكُفْرَانِ، وَلَمْ يَقُلْ: فَإِنَّهُ كَفُورٌ، لِيُسَجِّلَ عَلَى أَنَّ هَذَا الْجِنْسَ مَوْسُومٌ بِكُفْرَانِ النِّعَمِ، كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[6]، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾[7]، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ يَذْكُرُ الْبَلَاءَ وَيَنْسَى النِّعَمَ وَيَغْمِطُهَا.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الشُّورَى، الآية .

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة الشُّورَى، الآية .

5 سورة الشُّورَى، الآية .

6 سورة إِبْرَاهِيم، الآية 34.

7 سورة الْعَادِيَّاتُ، الآية 6.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[1]

لَمَّا ذَكَرَ إِذَاقَةَ الْإِنْسَانِ الرَّحْمَةَ وَإِصَابَتَهُ بِضِدِّهَا: أَتْبَعَ ذَلِكَ أَنَّ لَهُ الْمُلْكَ وَأَنَّهُ يُقَسِّمُ النِّعْمَةَ وَالْبَلَاءَ كَيْفَ أَرَادَ، وَيَهَبُ لِعِبَادِهِ مِنَ الْأَوْلَادِ مَا تَقْتَضِيهِ مَشِيئَتُهُ، فيخُصُّ بَعْضًا بِالْأَنَاثِ وَبَعْضًا بِالذُّكُورِ، وَبَعْضًا بِالصِّنْفَيْنِ جَمِيعًا، وَيُعَقِّمُ آخَرِينَ فَلَا يَهَبُ لَهُمْ وَلَدًا قَطُّ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قَدَّمَ الْإِنَاثَ أَوَّلًا عَلَى الذُّكُورِ مَعَ تَقَدُّمِهِمْ عَلَيْهِنَّ، ثُمَّ رَجَعَ فَقَدَّمَهُمْ، وَلِمَ عَرَفَ الذُّكُورَ بَعْدَ مَا نَكَّرَ الْإِنَاثَ؟

قُلْتُ: لِأَنَّهُ ذَكَرَ الْبَلَاءَ فِي آخِرِ الْآيَةِ الْأُولَى وَكُفْرَانَ الْإِنْسَانِ بِنِسْيَانِهِ الرَّحْمَةَ السَّابِقَةَ عِنْدَهُ، ثُمَّ عَقَبَهُ بِذِكْرِ مُلْكِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَذَكَرَ قِسْمَةَ الْأَوْلَادِ، فَقَدَّمَ الْإِنَاثَ، لِأَنَّ سِيَاقَ الْكَلَامِ أَنَّهُ فَاعِلٌ مَا يَشَاؤُهُ لَا مَا يَشَاؤُهُ الْإِنْسَانُ، فَكَانَ ذِكْرُ الْإِنَاثِ اللَّاتِي مِنْ جُمْلَةِ مَا لَا يَشَاؤُهُ الْإِنْسَانُ أَهَمُّ وَالْأَهَمُّ وَاجِبُ التَّقْدِيمِ، وَلَيْلِي الْجِنْسَ الَّذِي كَانَتِ الْعَرَبُ تُعِدُّهُ بَلَاءً ذَكَرَ الْبَلَاءَ، وَأَخَّرَ الذُّكُورَ.

فَلَمَّا أَخَّرَهُمْ لِذَلِكَ تَدَارَكَ تَأْخِيرَهُمْ –وَهُمْ أَحِقَّاءُ بِالتَّقْدِيمِ– بِتَعْرِيفِهِمْ، لِأَنَّ التَّعْرِيفَ تَنْوِيهٌ وَتَشْهِيرٌ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الْفُرْسَانَ الْأَعْلَامَ الْمَذْكُورِينَ الَّذِينَ لَا يُخْفَوْنَ عَلَيْكُمْ.

ثُمَّ أَعْطَى بَعْدَ ذَلِكَ كِلَا الْجِنْسَيْنِ حَقَّهُ مِنَ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، وَعَرَفَ أَنَّ تَقْدِيمَهُنَّ لَمْ يَكُنْ لِتَقَدُّمِهِنَّ، وَلَكِنْ لِمُقْتَضٍ آخَرَ، فَقَالَ: ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾[2]، كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾[3]، ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾[4].

وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي الْأَنْبِيَاءِ –صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ–، حَيْثُ وُهِبَ لِشُعَيْبٍ وَلُوطٌ إِنَاثًا، وَلِإِبْرَاهِيمَ ذُكُورًا، وَلِمُحَمَّدٍ ذُكُورًا وَإِنَاثًا، وَجُعِلَ يَحْيَى وَعِيسَى عَقِيمَيْنِ.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾[5] بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ، "قَدِيرٌ" عَلَى تَكْوِينِ مَا يُصْلِحُهُمْ.

---

[1] سورة الشُّورَى، الآية .

[2] سورة الشُّورَى، الآية .

[3] سورة الْحُجُرَات، الآية 13.

[4] سورة الْقِيَامَة، الآية 39.

[5] سورة الشُّورَى، الآية .

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1]

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾[2]: وَمَا صَحَّ لِأَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ ﴿أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا﴾[3] عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

– إِمَّا عَلَى طَرِيقِ الْوَحْيِ، وَهُوَ الْإِلْهَامُ وَالْقَذْفُ فِي الْقَلْبِ أَوِ الْمَنَامِ، كَمَا أَوْحَى إِلَى أُمِّ مُوسَى وَإِلَى إِبْرَاهِيمَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– فِي ذَبْحِ وَلَدِهِ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: أَوْحَى اللَّهُ الزَّبُورَ إِلَى دَاوُدَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– فِي صَدْرِهِ.

قَالَ عُبَيْدُ بْنُ الْأَبْرَصِ:

وَأَوْحَى إِلَيَّ اللَّهُ أَنْ قَدْ تَأَمَّرُوا بِإِبْلِ أَبِي أَوْفى فَقُمْتُ عَلَى رِجْلِ

أَيْ: أَلْهَمَنِي وَقَذَفَ فِي قَلْبِي.

– وَإِمَّا عَلَى أَنْ يُسْمِعَهُ كَلَامَهُ الَّذِي يَخْلُقُهُ فِي بَعْضِ الْأَجْرَامِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُبْصِرَ السَّامِعُ مَنْ يُكَلِّمُهُ، لِأَنَّهُ فِي ذَاتِهِ غَيْرُ مَرْئِيٍّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾[4] مِثْلُ أَيْ: كَمَا يُكَلِّمُ الْمَلِكُ الْمُحْتَجِبُ بَعْضَ خَوَاصِّهِ وَهُوَ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ، فيسْمَعُ صَوْتَهُ وَلَا يَرَى شَخْصَهُ، وَذَلِكَ كَمَا كَلَّمَ مُوسَى وَيُكَلِّمُ الْمَلَائِكَةَ.

وَإِمَّا عَلَى أَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهِ رَسُولًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فيوحَى الْمَلِكُ إِلَيْهِ كَمَا كَلَّمَ الْأَنْبِيَاءَ غَيْرَ مُوسَى. وَقِيلَ: وَحَيًا كَمَا أَوْحَى إِلَى الرُّسُلِ بِوَاسِطَةِ الْمَلَائِكَةِ.

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولا﴾[5]، أَيْ: نَبِيًّا كَمَا كَلَّمَ أُمَمَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الشُّورَى، الآية .

3 سورة الشُّورَى، الآية .

4 سورة الشُّورَى، الآية .

5 سورة الشُّورَى، الآية .

وَ﴿وَحْيًا﴾[1]، وَ(أَنْ يُرْسِلَ): مَصْدَرَانِ وَاقِعَانِ مَوْقِعَ الْحَالِ، لِأَنَّ (أَنْ يُرْسِلَ) ، فِي مَعْنَى إِرْسَالًا.

وَ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾[2]: ظَرْفٌ وَاقِعٌ مَوْقِعَ الْحَالِ أَيْضًا، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾[3].

وَالتَّقْدِيرُ: وَمَا صَحَّ أَنْ يُكَلِّمَ أَحَدًا إِلَّا مُوحِيًا، أَوْ مُسْمِعًا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، أَوْ مُرْسَلًا.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ: ﴿وَحْيًا﴾[4]، مَوْضُوعًا مَوْضِعَ: كَلَامًا، لِأَنَّ الْوَحْيَ كَلَامٌ خَفِي فِي سُرْعَةٍ، كَمَا تَقُولُ: لَا أُكَلِّمُهُ إِلَّا جَهْرًا وَإِلَّا خُفَاتًا، لِأَنَّ الْجَهْرَ وَالْخُفَاتَ ضَرْبَانِ مِنَ الْكَلَامِ، قُلْتُ لِفُلَانٍ كَذَا، وَإِنَّمَا قَالَهُ وَكِيلُكَ أَوْ رَسُولُكَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾[5]، مَعْنَاهُ: أَوْ إِسْمَاعًا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ.

وَمَنْ جَعَلَ ﴿وَحْيًا﴾[6] فِي مَعْنَى: أَنْ يُوحِيَ، وَعَطَفَ ﴿يُرْسِلُ﴾[7] عَلَيْهِ، عَلَى مَعْنَى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾[8]، أَيْ: إِلَّا بِأَنْ يُوحِيَ، أَوْ بِأَنْ يُرْسِلَ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُقَدِّرَ قَوْلَهُ: ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾[9] تَقْدِيرًا يُطَابِقُهُمَا عَلَيْهِ، نَحْوُ: أَوْ أَنْ يَسْمَعَ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ.

وَقُرِئَ: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولا فَيُوحِيَ﴾[10] بِالرَّفْعِ، عَلَى: أَوْ هُوَ يُرْسِلُ، أَوْ بِمَعْنَى مُرْسَلًا عَطْفًا عَلَى "وَحْيًا" فِي مَعْنَى مُوحِيًا.

وَرُوِيَ أَنَّ الْيَهُودَ قَالَتْ لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَلَا تُكَلِّمَ اللَّهَ وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا كَمَا كَلَّمَهُ مُوسَى وَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَإِنَّا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْعَلَ ذَلِكَ، فَقَالَ: لَمْ يَنْظُرْ مُوسَى إِلَى اللَّهِ، فَنَزَلَتْ.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .

2 سورة الشُّورَى، الآية .

3 سورة آلُ عِمْرَانَ، الآية **191**.

4 سورة الشُّورَى، الآية .

5 سورة الشُّورَى، الآية .

6 سورة الشُّورَى، الآية .

7 سورة الشُّورَى، الآية .

8 سورة الشُّورَى، الآية .

9 سورة الشُّورَى، الآية .

10 سورة الشُّورَى، الآية .

وَعَنْ عَائِشَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا–: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، ثُمَّ قَالَتْ: أَوَ لَمْ تَسْمَعُوا رَبَّكُمْ يَقُولُ: فَتَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ﴾[1] عَنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، ﴿حَكِيمٌ﴾[2] يَجْرِي أَفْعَالَهُ عَلَى مُوجِبِ الْحِكْمَةِ، فيكَلِّمُ تَارَةً بِوَاسِطَةٍ، وَأُخْرَى بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ: إِمَّا إِلْهَامًا، وَإِمَّا خِطَابًا.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ
أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾[3]

﴿رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾[4] يُرِيدُ: مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ، لِأَنَّ الْخَلْقَ يَحْيُونَ بِهِ فِي دِينِهِمْ كَمَا يَحْيَى الْجَسَدُ بِالرُّوحِ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ عَلِمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: مَا كَانَ يَدْرِي مَا الْقُرْآنُ قَبْلَ نُزُولِهِ عَلَيْهِ، فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا الإِيمَانُ﴾[5]، وَالْأَنْبِيَاءُ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِمْ إِذَا عَقَلُوا وَتَمَكَّنُوا مِنَ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ أَنْ يُخْطِئَهُمُ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَيَجِبَ أَنْ يَكُونُوا مَعْصُومِينَ مِنَ ارْتِكَابِ الْكَبَائِرِ وَمِنَ الصَّغَائِرِ الَّتِي فيها تَنْفِيرٌ قَبْلَ الْمَبْعَثِ وَبَعْدَهُ، فَكَيْفَ لَا يَعْصِمُونَ مِنَ الْكُفْرِ؟

قُلْتُ: الْإِيمَانُ اسْمٌ يَتَنَاوَلُ أَشْيَاءَ: بَعْضُهَا الطَّرِيقُ إِلَيْهِ الْعَقْلُ، وَبَعْضُهَا الطَّرِيقُ إِلَيْهِ السَّمْعُ، فَعَنَى بِهِ مَا الطَّرِيقُ إِلَيْهِ السَّمْعُ دُونَ الْعَقْلِ، وَذَاكَ مَا كَانَ لَهُ فيهِ عِلْمٌ حَتَّى كَسَبَهُ بِالْوَحْيِ.

---

1 سورة الشُّورَى، الآية .
2 سورة الشُّورَى، الآية .
3 سورة الشُّورَى، الآية .
4 سورة الشُّورَى، الآية .
5 سورة الشُّورَى، الآية .

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَدْ فَسَّرَ الْإِيمَانَ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾[1] بِالصَّلَاةِ، لِأَنَّهَا بَعْضُ مَا يَتَنَاوَلُهُ الْإِيمَانُ؟!

﴿مَنْ نَشَاءُ مَنْ عِبَادِنَا﴾[2]: مَنْ لَهُ لُطْفٌ وَمَنْ لَا لُطْفَ لَهُ، فَلَا هِدَايَةَ تُجْدِي عَلَيْهِ.

﴿ صِرَاطِ اللَّهِ﴾[3] بَدَلٌ.

وَقُرِئَ (لِتُهْدَى) أَيْ: يَهْدِيكَ اللَّهُ. وَقُرِئَ (لِتَدْعُوَ).

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ: ﴿حم عسق﴾[4] كَانَ مِمَّنْ تُصَلِّي عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَيَسْتَرْحِمُونَ لَهُ".

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية 143.

[2] سورة الشُّورَى، الآية .

[3] سورة الشُّورَى، الآية .

[4] سورة الشُّورَى، الآية .

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

مَكِّيَّةٌ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: إِلَّا قَوْلَهُ:
﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مَنْ قَبْلِكَ مَنْ رُسُلِنَا﴾[1]،
وَهِيَ تِسْعٌ وَثَمَانُونَ آيَةً [نَزَلَتْ بَعْدَ الشُّورَى]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[2]

أَقْسَمَ بِالْكِتَابِ الْمُبِينِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ، وَجَعَلَ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[3] جَوَابًا لِلْقَسَمِ، وَهُوَ مِنَ الْأَيْمَانِ الْحَسَنَةِ الْبَدِيعَةِ، لِتَنَاسُبِ الْقَسَمِ وَالْمُقْسَمِ عَلَيْهِ، وَكَوْنِهِمَا مِنْ وَادٍ وَاحِدٍ.

وَنَظِيرُهُ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ:

وَثَنَايَاكِ إِنَّهَا إِغْرِيـــــــــضُ

"الْمُبِينُ": الْبَيِّنُ لِلَّذِينِ أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّهُ بِلُغَتِهِمْ وَأَسَالِيبِهِمْ.

وَقِيلَ: الْوَاضِعُ لِلْمُتَدَبِّرِينَ.

وَقِيلَ: "الْمُبِينُ" الَّذِي أَبَانَ طُرُقَ الْهُدَى مِنْ طُرُقِ الضَّلَالَةِ، وَأَبَانَ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْأُمَّةُ فِي أَبْوَابِ الدِّيَانَةِ.

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

﴿جَعَلْنَاهُ﴾[1] بِمَعْنَى صَيَّرْنَاهُ مُعَدًّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ، أَوْ بِمَعْنَى خَلَقْنَاهُ مُعَدًّى إِلَى وَاحِدٍ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾[2]]الْأَنْعَامُ: 1]. وَ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[3] حَالٌ.

وَ"لَعَلَّ": مُسْتَعَارٌ لِمَعْنَى الْإِرَادَةِ، لِتُلَاحِظَ مَعْنَاهَا وَمَعْنَى التَّرَجِّي، أَيْ: خَلَقْنَاهُ عَرَبِيًّا غَيْرَ عَجَمِيٍّ: إِرَادَةَ أَنْ تَعْقِلَهُ الْعَرَبُ، وَلِئَلَّا يَقُولُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، وَقُرِئَ: (أُمِّ الْكِتَابِ) بِالْكَسْرِ وَهُوَ اللَّوْحُ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[4]]الْبُرُوجُ: 21– 22] سُمِّيَ بِأُمِّ الْكِتَابِ، لِأَنَّهُ الْأَصْلُ الَّذِي أَثْبَتَتْ فيهِ الْكُتُبُ، مِنْهُ تَنْقُلُ وَتَنْتَسِخُ. عَلَى رَفِيعِ الشَّأْنِ فِي الْكُتُبِ، لِكَوْنِهِ مُعْجِزًا مِنْ بَيْنِهَا.

"حَكِيمٌ" ذُو حِكْمَةٍ بَالِغَةٍ، أَيْ: مَنْزِلَتُهُ عِنْدَنَا مَنْزِلَةُ كِتَابٍ هُمَا صِفَتَاهُ، وَهُوَ مُثْبَتٌ فِي أُمِّ الْكِتَابِ هَكَذَا .

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾[5]

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾[6] بِمَعْنَى: أَفَنُنْحِي عَنْكُمُ الذِّكْرَ وَنَذُودُهُ عَنْكُمْ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: ضَرَبَ الْغَرَائِبَ عَنِ الْحَوْضِ.

وَمِنْهُ قَوْلُ الْحَجَّاجِ: وَلَأَضْرِبَنَّكُمْ ضَرْبَ غَرَائِبِ الْإِبِلِ.

وَقَالَ طَرَفَةُ:

اضْرِبْ عَنْكَ الْهُمُومَ طَارِقَهَا ضَرْبَكَ بِالسَّيْفِ قَوْنَسَ الْفَرَسِ

وَالْفَاءُ لِلْعَطْفِ عَلَى مَحْذُوفٍ، تَقْدِيرُهُ: أَنُهْمِلُكُمْ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ، إِنْكَارًا لِأَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ عَلَى خِلَافِ مَا قُدِّمَ عَلَى إِنْزَالِهِ الْكِتَابُ. وَخَلَقَهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا، لِيَعْقِلُوهُ وَيَعْمَلُوا بِمُوَاجِبِهِ. وَصَفْحًا عَلَى وَجْهَيْنِ. إِمَّا مَصْدَرٌ مِنْ صَفَحَ عَنْهُ: إِذَا أَعْرَضَ، مُنْتَصِبٌ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ لَهُ، عَلَى مَعْنَى: أَفَنَعْزِلُ عَنْكُمْ إِنْزَالَ الْقُرْآنِ وَإِلْزَامَ الْحُجَّةِ بِهِ إِعْرَاضًا عَنْكُمْ. وَإِمَّا

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
2 سورة ، الآية .
3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
6 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

بِمَعْنَى الْجَانِبِ مِنْ قَوْلِهِمْ: نَظَرَ إِلَيْهِ بِصَفْحِ وَجْهِهِ وَصَفَحَ وَجْهَهُ، عَلَى مَعْنَى: أَفَنُنْحِيَهُ عَنْكُمْ جَانِبًا، فَيَنْتَصِبُ عَلَى الظَّرْفِ كَمَا تَقُولُ: ضَعْهُ جَانِبًا، وَامْشِ جَانِبًا. وَتُعَضِّدُهُ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ (صُفْحًا) بِالضَّمِّ.

وفي هَذِهِ الْقِرَاءَةِ وَجْهٌ آخَرُ: وَهُوَ أَنْ يَكُونَ تَخْفِيفُ صَفْحٍ جَمْعُ صَفُوحٍ، وَيَنْتَصِبُ عَلَى الْحَالِ، أَيْ: صَافِحِينَ مُعْرِضِينَ.

(إِنْ كُنْتُمْ)، أَيْ: لِأَنْ كُنْتُمْ. وَقُرِئَ: (إِنْ كُنْتُمْ) وَ (إِذْ كُنْتُمْ).

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ اسْتَقَامَ مَعْنَى إِنِ الشَّرْطِيَّةِ، وَقَدْ كَانُوا مُسْرِفِينَ عَلَى الْبَتِّ؟

قُلْتُ: هُوَ مِنَ الشَّرْطِ الَّذِي ذَكَرْتَ أَنَّهُ يَصْدُرُ عَنِ الْمُدِلِّ بِصِحَّةِ الْأَمْرِ، الْمُتَحَقِّقِ لِثُبُوتِهِ، كَمَا يَقُولُ الْأَجِيرُ: إِنْ كُنْتُ عَمِلْتُ لَكَ، فَوَفِّنِي حَقِّي، وَهُوَ عَالِمٌ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ يُخَيَّلُ فِي كَلَامِهِ أَنَّ تَفْرِيطَكَ فِي الْخُرُوجِ عَنِ الْحَقِّ: فِعْلُ مَنْ لَهُ شَكٌّ فِي الِاسْتِحْقَاقِ، مَعَ وُضُوحِهِ اسْتِجْهَالًا لَهُ.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾[1]

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ﴾[2] حِكَايَةُ حَالٍ مَاضِيَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ، أَيْ: كَانُوا عَلَى ذَلِكَ. وَهَذِهِ تَسْلِيَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَنِ اسْتِهْزَاءِ قَوْمِهِ.

الضَّمِيرُ فِي ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾[3] لِلْقَوْمِ الْمُسْرِفِينَ، لِأَنَّهُ صَرَفَ الْخِطَابَ عَنْهُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يُخْبِرُهُ عَنْهُمْ.

﴿وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾[4]، أَيْ: سَلَفَ فِي الْقُرْآنِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْهُ ذِكْرَ قِصَّتِهِمْ وَحَالِهِمُ الْعَجِيبَةِ الَّتِي حَقُّهَا أَنْ تَسِيرَ مَسِيرَ الْمَثَلِ، وَهَذَا وَعْدٌ لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَوَعِيدٌ لَهُمْ.

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[1]

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾[2] وَمَا سَرَدَ مِنَ الْأَوْصَافِ عَقِيبَهُ إِنْ كَانَ مِنْ قَوْلِهِمْ، فَمَا تَصْنَعُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[3]؟ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ، فَمَا وَجْهُهُ؟

قُلْتُ: هُوَ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ لَا مِنْ قَوْلِهِمْ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾[4] الَّذِي مِنْ صِفَتِهِ كَيْتُ وَكَيْتُ، لِيَنْسُبُنَّ خَلْقَهَا إِلَى الَّذِي هَذِهِ أَوْصَافُهُ وَلِيُسْنِدْنَهُ إِلَيْهِ.

﴿بِقَدَرٍ﴾[5]: بِمِقْدَارٍ يُسْلِمُ مَعَهُ الْبِلَادُ وَالْعِبَادُ، وَلَمْ يَكُنْ طُوفَانًا.

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾[6]

وَ﴿الْأَزْوَاجَ﴾[7]: الْأَصْنَافُ.

﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾[8]، أَيْ تَرْكَبُونَهُ.

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
6 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
7 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
8 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: يُقَالُ: رَكِبُوا الْأَنْعَامَ وَرَكِبُوا فِي الْفُلْكِ. وَقَدْ ذَكَرَ الْجِنْسَيْنِ، فَكَيْفَ قَالَ مَا تَرْكَبُونَهُ؟!

قُلْتُ: غَلَبَ الْمُتَعَدِّي بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ، لِقُوَّتِهِ عَلَى الْمُتَعَدِّي بِوَاسِطَةٍ، فَقِيلَ: تَرْكَبُونَهُ.

﴿عَلَى ظُهُورِهِ﴾[1] عَلَى ظُهُورِ مَا تَرْكَبُونَهُ وَهُوَ الْفُلْكُ وَالْأَنْعَامُ. وَمَعْنَى ذِكْرِ النِّعْمَةِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ: أَنْ يَذْكُرُوهَا فِي قُلُوبِهِمْ مُعْتَرِفِينَ بِهَا مُسْتَعْظِمِينَ لَهَا، ثُمَّ يَحْمَدُوا عَلَيْهَا بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَهُوَ مَا يُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أَنَّهُ كَانَ إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الرِّكَابِ قَالَ: "بِسْمِ اللَّهِ"، فَإِذَا اسْتَوَى عَلَى الدَّابَّةِ قَالَ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا. .. إِلَى قَوْلِهِ لَمُنْقَلِبُونَ" وَكَبَّرَ ثَلَاثًا وَهَلَّلَ ثَلَاثًا. وَقَالُوا: إِذَا رَكِبَ فِي السَّفِينَةِ قَالَ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2].

وَعَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَرْكَبُ دَابَّةً فَقَالَ: سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا. فَقَالَ: أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ؟ فَقَالَ: وَبِمَ أُمِرْنَا؟ قَالَ: أَنْ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ، كَانَ قَدْ أَغْفَلَ التَّحْمِيدَ فَنَبَّهَهُ عَلَيْهِ. وَهَذَا مِنْ حُسْنِ مُرَاعَاتِهِمْ لِآدَابِ اللَّهِ وَمُحَافَظَتِهِمْ عَلَى دَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا. جَعَلَنَا اللَّهُ مِنَ الْمُقْتَدِينَ بِهِمْ، وَالسَّائِرِينَ بِسِيرَتِهِمْ، فَمَا أَحْسَنَ بِالْعَاقِلِ النَّظَرَ فِي لَطَائِفِ الصِّنَاعَاتِ، فَكَيْفَ بِالنَّظَرِ فِي لَطَائِفِ الدِّيَانَاتِ؟

﴿مُقْرِنِينَ﴾[3]: مُطِيقِينَ. يُقَالُ: أَقْرَنَ الشَّيْءَ، إِذَا أَطَاقَهُ.

قَالَ ابْنُ هَرِمَةَ:

وَأَقْرَنْتُ مَا حَمَّلْتَنِي وَلَقَلَّمَا يُطَاقُ احْتِمَالُ الصَّدِّ يَا دَعْدُ وَالْهَجْرُ

وَحَقِيقَةُ "أُقْرِنُهُ": وَجَدَهُ قَرِينَتَهُ وَمَا يُقْرَنُ بِهِ، لِأَنَّ الصَّعْبَ لَا يَكُونُ قَرِينَةً لِلضَّعِيفِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِمْ فِي الضَّعِيفِ: لَا يُقْرَنُ بِهِ الصَّعْبَةُ. وَقُرِئَ (مُقْرِنِينَ) وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ؟!

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ اتَّصَلَ بِذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾[4]؟

قُلْتُ: كَمْ مِنْ رَاكِبٍ دَابَّةً عَثَرَتْ بِهِ أَوْ شَمَسَتْ أَوْ تَقَحَّمَتْ أَوْ طَاحَ مِنْ ظَهْرِهَا فَهَلَكَ، وَكَمْ مِنْ رَاكِبِينَ فِي سَفِينَةٍ انْكَسَرَتْ بِهِمْ فَغَرِقُوا، فَلَمَّا كَانَ الرُّكُوبُ مُبَاشَرَةً أَمْرٌ

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سورة هُود، الآية 41.

[3] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[4] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

مُخْطِرٌ، وَاتِّصَالًا بِسَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ التَّلَفِ: كَانَ مِنْ حَقِّ الرَّاكِبِ وَقَدِ اتَّصَلَ بِسَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ التَّلَفِ أَنْ لَا يَنْسَى عِنْدَ اتِّصَالِهِ بِهِ يَوْمَهُ، وَأَنَّهُ هَالِكٌ لَا مَحَالَةَ فَمُنْقَلِبٌ إِلَى اللَّهِ غَيْرُ مُنْفَلِتٍ مِنْ قَضَائِهِ، وَلَا يَدَعُ ذِكْرَ ذَلِكَ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ حَتَّى يَكُونَ مُسْتَعِدًّا لِلِقَاءِ اللَّهِ بِإِصْلَاحِهِ مِنْ نَفْسِهِ، وَالْحَذَرِ مِنْ أَنْ يَكُونَ رُكُوبُهُ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ مَوْتِهِ فِي عِلْمِ اللَّهِ وَهُوَ غَافِلٌ عَنْهُ، وَيَسْتَعِيذُ بِاللَّهِ مِنْ مَقَامِ مَنْ يَقُولُ لِقُرَنَائِهِ: تَعَالَوْا نَتَنَزَّهْ عَلَى الْخَيْلِ أَوْ فِي بَعْضِ الزَّوَارِقِ، فَيَرْكَبُونَ حَامِلِينَ مَعَ أَنْفُسِهِمْ أَوَانِي الْخَمْرِ وَالْمَعَازِفِ، فَلَا يَزَالُونَ يَسْقُونَ حَتَّى تَمِيلَ طَلَاهُمْ وَهُمْ عَلَى ظُهُورِ الدَّوَابِّ، أَوْ فِي بُطُونِ السُّفُنِ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ، لَا يَذْكُرُونَ إِلَّا الشَّيْطَانَ، وَلَا يَمْتَثِلُونَ إِلَّا أَوَامِرَهُ.

وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ بَعْضَ السَّلَاطِينِ رَكِبَ وَهُوَ يَشْرَبُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ شَهْرٍ، فَلَمْ يَصِحَّ إِلَّا بَعْدَمَا اطْمَأَنَّتْ بِهِ الدَّارُ، فَلَمْ يُشْعِرْهُ بِمَسِيرِهِ وَلَا أُحِسَّ بِهِ، فَكَمْ بَيْنَ فِعْلِ أُولَئِكَ الرَّاكِبِينَ وَبَيْنَ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ. وَقِيلَ: يَذْكُرُونَ عِنْدَ الرُّكُوبِ رُكُوبَ الْجِنَازَةِ.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾[1]

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾[2] مُتَّصِلٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾[3]، أَيْ: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ عَنْ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَعْتَرِفُنَّ بِهِ، وَقَدْ جَعَلُوا لَهُ مَعَ ذَلِكَ الِاعْتِرَافِ مِنْ عِبَادِهِ جُزْآ فَوَصَفُوهُ بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ.

وَمَعْنَى: ﴿مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾[4] أَنْ قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ، فَجَعَلُوهُمْ جُزْآ لَهُ وَبَعْضًا مِنْهُ، كَمَا يَكُونُ الْوَلَدُ بِضْعَةً مِنْ وَالِدِهِ وَجُزْآ لَهُ.

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية 9.

4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

وَمِنْ بِدَعِ التَّفَاسِيرِ: تَفْسِيرُ الْجُزْءِ بِالْإِنَاثِ، وَادِّعَاءُ أَنَّ الْجُزْءَ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ: اسْمٌ لِلْإِنَاثِ، وَمَا هُوَ إِلَّا كَذِبٌ عَلَى الْعَرَبِ، وَوَضْعٌ مُسْتَحْدَثٌ مَنْحُولٌ، وَلَمْ يُقْنِعْهُمْ ذَلِكَ حَتَّى اشْتَقُّوا مِنْهُ: أَجْزَأَتِ الْمَرْأَةُ، ثُمَّ صَنَعُوا بَيْتًا وَبَيْتًا:

إِنْ أَجْزَأَتْ حُرَّةٌ يَوْمًا فَلا عَجَبُ

مِنَ الْبَسِيطِ

زُوِّجْتُهَا مِنْ بَنَاتِ الْأَوْسِ مُجْزِئَةً

وَقُرِئَ: (جُزُؤُوا) بِضَمَّتَيْنِ.

﴿لَكَفُورٌ﴾[1] لِجُحُودٍ لِلنِّعْمَةِ ظَاهِرٌ جُحُودُهُ، لِأَنَّ نِسْبَةَ الْوَلَدِ إِلَيْهِ كُفْرٌ، وَالْكُفْرُ أَصْلُ الْكُفْرَانِ كُلِّهِ.

﴿أَمِ اتَّخَذَ﴾[2] بَلِ اتَّخَذَ، وَالْهَمْزَةُ لِلْإِنْكَارِ: تَجْهِيلًا لَهُمْ وَتَعْجِيبًا مِنْ شَأْنِهِمْ، حَيْثُ لَمْ يَرْضَوْا بِأَنْ جَعَلُوا لِلَّهِ مِنْ عِبَادِهِ جُزْآ، حَتَّى جَعَلُوا ذَلِكَ الْجُزْءَ شَرَّ الْجُزْأَيْنِ: وَهُوَ الْإِنَاثُ دُونَ الذُّكُورِ، عَلَى أَنَّهُمْ أَنْفَرُ خَلْقِ اللَّهِ عَنِ الْإِنَاثِ وَأَمْقَتُهُمْ لَهُنَّ، وَلَقَدْ بَلَغَ بِهِمُ الْمَقْتُ إِلَى أَنْ وَأَدُوهُنَّ، كَأَنَّهُ قِيلَ: هَبُوا أَنَّ إِضَافَةَ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ إِلَيْهِ جَائِزَةٌ فَرْضًا وَتَمْثِيلًا، أَمَا تَسْتَحْيُونَ مِنَ الشَّطَطِ فِي الْقِسْمَةِ؟ وَمَنِ ادِّعَائِكُمْ أَنَّهُ آثَرَكُمْ عَلَى نَفْسِهِ بِخَيْرِ الْجُزْأَيْنِ وَأَعْلَاهُمَا وَتَرَكَ لَهُ شَرَّهُمَا وَأَدْنَاهُمَا؟ وَتَنْكِيرُ ﴿بَنَاتٍ﴾[3] وَتَعْرِيفُ ﴿الْبَنِينَ﴾[4] وَتَقْدِيمُهُنَّ فِي الذِّكْرِ عَلَيْهِمْ لَمَّا ذُكِرَتْ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾[5].

﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلا﴾[6]: بِالْجِنْسِ الَّذِي جَعَلَهُ لَهُ مَثَلًا، أَيْ: شَبَهًا، لِأَنَّهُ إِذَا جَعَلَ الْمَلَائِكَةَ جُزْآ لِلَّهِ وَبَعْضًا مِنْهُ فَقَدْ جَعَلَهُ مَنْ جِنْسِهِ وَمُمَاثِلًا لَهُ، لِأَنَّ الْوَلَدَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ جِنْسِ الْوَالِدِ، يَعْنِي: أَنَّهُمْ نَسَبُوا إِلَيْهِ هَذَا الْجِنْسَ.

وَمِنْ حَالِهِمْ: أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا قِيلَ لَهُ: قَدْ وُلِدَتْ لَكَ بِنْتٌ اغْتَمَّ وَارْبَدَّ وَجْهُهُ غَيْظًا وَتَأَسُّفًا وَهُوَ مَمْلُوءٌ مِنَ الْكَرْبِ.

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[3] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[4] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[5] سورة الشُّورَى، الآية 49.

[6] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

وَعَنْ بَعْضِ الْعَرَبِ: أَنَّ امْرَأَتَهُ وَضَعَتْ أُنْثَى، فَهَجَرَ الْبَيْتَ الَّذِي فيهِ الْمَرْأَةُ، فَقَالَتْ:

مَا لِأَبِي حَمْزَةَ لا يَأْتِينَـــا يَظَلُّ في الْبَيْتِ الَّذِي يَلِينَا

غَضْبَانُ أَنْ لَا نَلِدَ الْبَنِينَا لَيْسَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا مَاشِينَـا

وَإِنَّمَا نَأْخُذُ مَا أُعْطِينَـــــــا

وَالظَّلُولُ بِمَعْنَى الصَّيْرُورَةِ، كَمَا يُسْتَعْمَلُ أَكْثَرُ الْأَفْعَالِ النَّاقِصَةِ بِمَعْنَاهَا. وَقُرِئَ (مُسْوَدٌّ وَمُسْوَادٌّ) عَلَى أَنَّ في ﴿ظَلَّ﴾[1] ضَمِيرُ الْمُبَشِّرِ.

﴿وَوَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾[2] جُمْلَةٌ وَاقِعَةٌ مَوْقِعَ الْخَبَرِ، ثُمَّ قَالَ: أَوَ يُجْعَلُ لِلرَّحْمَنِ مِنَ الْوَلَدِ مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ الْمَذْمُومَةِ صِفَتُهُ. وَهُوَ أَنَّهُ ﴿يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾[3]، أَيْ: يَتَرَبَّى في الزِّينَةِ وَالنِّعْمَةِ، وَهُوَ إِذَا احْتَاجَ إِلَى مُجَاثَاةِ الْخُصُومِ وَمُجَارَاةِ الرِّجَالِ، كَانَ غَيْرَ مُبِينٍ، لَيْسَ عِنْدَهُ بَيَانٌ، وَلَا يَأْتِي بِبُرْهَانٍ يَحْتَجُّ بِهِ مَنْ يُخَاصِمُهُ وَذَلِكَ لِضَعْفِ عُقُولِ النِّسَاءِ وَنُقْصَانِهِنَّ عَنْ فِطْرَةِ الرِّجَالِ، يُقَالُ: قَلَّمَا تَكَلَّمَتِ امْرَأَةٌ فَأَرَادَتْ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِحُجَّتِهَا إِلَّا تَكَلَّمَتْ بِالْحُجَّةِ عَلَيْهَا.

وَفِيهِ: أَنَّهُ جَعَلَ النَّشْءَ في الزِّينَةِ وَالنُّعُومَةُ مِنَ الْمَعَايِبِ وَالْمَذَامِّ، وَأَنَّهُ مِنْ صِفَةِ رَبَّاتِ الْحِجَالِ، فَعَلَى الرَّجُلِ أَنْ يَجْتَنِبَ ذَلِكَ وَيَأْنَفَ مِنْهُ، وَيَرْبَأَ بِنَفْسِهِ عَنْهُ، وَيَعِيشَ كَمَا قَالَ عُمَرُ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: "اخْشَوْشَنُوا وَاخْشَوْشَبُوا وَتَمَعْدَدُوا".

وَإِنْ أَرَادَ أَنْ يُزَيِّنَ نَفْسَهُ زَيَّنَهَا مِنْ بَاطِنٍ بِلِبَاسِ التَّقْوَى.

وَقُرِئَ: (يُنَشَّأُ)، وَ (يُنْشَأُ)، وَ(يُنَاشَأُ). وَنَظِيرُ الْمُنَاشَأَةِ بِمَعْنَى الْإِنْشَاءِ: الْمُغَالَاةُ بِمَعْنَى الْإِغْلَاءِ.

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾[4]

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

قَدْ جَمَعُوا فِي كَفْرَةٍ ثَلَاثَ كُفْرَاتٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ نَسَبُوا إِلَى اللَّهِ الْوَلَدَ، وَنَسَبُوا إِلَيْهِ أَخَسَّ النَّوْعَيْنِ، وَجَعَلُوهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ أَكْرَمُ عِبَادِ اللَّهِ عَلَى اللَّهِ، فَاسْتَخَفُّوا بِهِمْ وَاحْتَقَرُوهُمْ.

وَقُرِئَ: (عِبَادُ الرَّحْمَنِ) وَعَبِيدُ الرَّحْمَنِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَهُوَ مَثَلٌ لِزُلْفَاهُمْ وَاخْتِصَاصُهُمْ. وَإِنَاثًا، وَأَنَّثَا: جَمْعُ الْجَمْعِ. وَمَعْنَى جَعَلُوا: سَمَّوْا وَقَالُوا: إِنَّهُمْ إِنَاثٌ.

وَقُرِئَ: (أَشْهَدُوا) وَ(أَأَشْهَدُوا)، بِهَمْزَتَيْنِ مَفْتُوحَةٍ وَمَضْمُومَةٍ.

وَ(آأَشْهَدُوا) بِأَلْفٍ بَيْنَهُمَا، وَهَذَا تَهَكُّمٌ بِهِمْ، بِمَعْنَى أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَنِدَ قَوْلُهُمْ إِلَى عِلْمٍ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضْطَرُّهُمْ إِلَى عِلْمِ ذَلِكَ، وَلَا تَطَرَّقُوا إِلَيْهِ بِاسْتِدْلَالٍ، وَلَا أَحَاطُوا بِهِ عَنْ خَبَرٍ يُوجِبُ الْعِلْمَ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يُشَاهِدُوا خَلْقَهُمْ، فَأَخْبَرُوا عَنْ هَذِهِ الْمُشَاهَدَةِ.

﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾[1] الَّتِي شَهِدُوا بِهَا عَلَى الْمَلَائِكَةِ مِنْ أُنُوثَتِهِمْ.

﴿وَيُسْئَلُونَ﴾[2] وَهَذَا وَعِيدٌ.

وَقُرِئَ: (سَيُكْتَبُ) وَ(سَنَكْتُبُ): بِالْيَاءِ وَالنُّونِ. وَشَهَادَتُهُمْ، وَشَهَادَاتُهُمْ. وَيُسَاءَلُونَ عَلَى: يُفَاعِلُونَ.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[3]

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾[4] هُمَا كَفَّرَتَانِ أَيْضًا مَضْمُومَتَانِ إِلَى الْكُفْرَاتِ الثَّلَاثِ، وَهُمَا: عِبَادَتُهُمُ الْمَلَائِكَةَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَزَعْمُهُمْ أَنَّ عِبَادَتَهُمْ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، كَمَا يَقُولُ إِخْوَانُهُمُ الْمُجْبَرَةُ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا أَنْكَرْتَ عَلَى مَنْ يَقُولُ: قَالُوا ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِهْزَاءِ، وَلَوْ قَالُوهُ جَادِّينَ لَكَانُوا مُؤْمِنِينَ؟

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

قُلْتُ: لَا دَلِيلَ عَلَى أَنَّهُمْ قَالُوهُ مُسْتَهْزِئِينَ، وَادِّعَاءُ مَا لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ بَاطِلٌ، عَلَى أَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– قَدْ حَكَى عَنْهُ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الذَّمِّ وَالشَّهَادَةِ بِالْكُفْرِ: أَنَّهُمْ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْآ، وَأَنَّهُ اتَّخَذَ بَنَاتٍ وَأَصْفَاهُمْ بِالْبَنِينِ، وَأَنَّهُمْ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الْمُكَرَّمِينَ إِنَاثًا.

وَأَنَّهُمْ عَبَدُوهُمْ وَقَالُوا: لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ، فَلَوْ كَانُوا نَاطِقِينَ بِهَا عَلَى طَرِيقِ الْهَزْءِ: لَكَانَ النُّطْقُ بِالْمَحْكِيَّاتِ –قَبْلَ هَذَا الْمُحْكَى الَّذِي هُوَ إِيمَانٌ عِنْدَهُ لَوَجَدُوا فِي النُّطْقِ بِهِ– مَدْحًا لَهُمْ، مِنْ قِبَلِ أَنَّهَا كَلِمَاتُ كُفْرٍ نَطَقُوا بِهَا عَلَى طَرِيقِ الْهُزْءِ، فَبَقِيَ أَنْ يَكُونُوا جَادِّينَ، وَتَشْتَرِكُ كُلُّهَا فِي أَنَّهَا كَلِمَاتُ كُفْرٍ.

فَإِنْ قَالُوا: نَجْعَلُ هَذَا الْأَخِيرَ وَحْدَهُ مَقُولًا عَلَى وَجْهِ الْهُزْءِ دُونَ مَا قَبْلَهُ، فَمَا بِهِمْ إِلَّا تَعْوِيجُ كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، لِتَسْوِيَةِ مَذْهَبِهِمُ الْبَاطِلِ.

وَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ كَلِمَةُ حَقٍّ نَطَقُوا بِهَا هُزْآ لَمْ يَكُنْ لِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ﴾[1] مَعْنًى، لِأَنَّ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَلَى طَرِيقِ الْهُزْءِ: كَانَ الْوَاجِبُ أَنْ يُنْكِرَ عَلَيْهِ اسْتِهْزَاؤُهُ وَلَا يُكَذِّبَ ، لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ تَكْذِيبُ النَّاطِقِ بِالْحَقِّ جَادًّا كَانَ أَوْ هَازِئًا.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا قَوْلُكَ فِيمَنْ يُفَسِّرُ مَا لَهُمْ –بِقَوْلِهِمْ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ– مَنْ عَلِمَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ فِي ذَلِكَ الْقَوْلِ لَا فِي تَعْلِيقِ عِبَادَتِهِمْ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ؟

قُلْتُ: تَمَحُّلٌ مُبْطِلٌ وَتَحْرِيفٌ مُكَابِرٌ.

وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[2].

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾[3]

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سورة الْأَنْعَام، الآية 148.

[3] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

الضَّمِيرُ في ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾[1] لِلْقُرْآنِ أَوِ الرَّسُولِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ أَلْصَقُوا عِبَادَةَ غَيْرِ اللَّهِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ: قَوْلًا قَالُوهُ غَيْرَ مُسْتَنِدٍ إِلَى عِلْمٍ، ثُمَّ قَالَ: أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا قَبْلَ هَذَا الْكِتَابِ نَسَبْنَا فيهِ الْكُفْرَ وَالْقَبَائِحَ إِلَيْنَا، فَحَصَلَ لَهُمْ عِلْمٌ بِذَلِكَ مِنْ جِهَةِ الْوَحْيِ، فَاسْتَمْسَكُوا بِذَلِكَ الْكِتَابِ وَاحْتَجُّوا بِهِ. بَلْ لَا حُجَّةَ لَهُمْ يَسْتَمْسِكُونَ بِهَا إِلَّا قَوْلُهُمْ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾[2] عَلَى دِينٍ.

وَقُرِئَ: (عَلَى إِمَّةٍ) بِالْكَسْرِ، وَكِلْتَاهُمَا مِنَ الْأُمِّ وَهُوَ الْقَصْدُ، فَالْأُمَّةُ: الطَّرِيقَةُ الَّتِي تَؤُمُّ، أَيْ: تَقْصِدُ، كَالرِّحْلَةِ لِلْمَرْحُولَةِ إِلَيْهِ. وَالْأُمَّةُ: الْخَالَةُ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا الْأَمُّ وَهُوَ الْقَاصِدُ. وَقِيلَ: عَلَى نِعْمَةٍ وَحَالَةٍ حَسَنَةٍ.

﴿عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾[3] خَبَرُ ﴿إِنَّ﴾[4]. أَوِ الظَّرْفُ صِلَةٌ لَمُهْتَدُونَ.

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾[5]

﴿مُتْرَفُوهَا﴾[6] الَّذِينَ أَتْرَفَتْهُمُ النِّعْمَةُ، أَيْ أَبْطَرَتْهُمْ فَلَا يُحِبُّونَ إِلَّا الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَاهِي، وَيُعَافُونَ مَشَاقَّ الدِّينِ وَتَكَالِيفَهُ.

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[7]

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
6 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
7 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

قُرِئَ: (قُلْ) وَقَالَ: وَجِئْتُكُمْ، وَجِئْنَاكُمْ، يَعْنِي: أَتُتْبِعُونَ آبَاءَكُمْ وَلَوْ جِئْتُكُمْ بِدِينٍ أَهْدَى مِنْ دِينِ آبَائِكُمْ؟ قَالُوا: إِنَّا ثَابِتُونَ عَلَى دِينِ آبَائِنَا لَا نَنْفَكُّ عَنْهُ، وَإِنْ جِئْتَنَا بِمَا هُوَ أَهْدَى وَأَهْدَى.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1]

قُرِئَ: (بَرَاءُ) بِفَتْحِ الْبَاءِ وَضَمِّهَا. وَبَرِيءٌ، فَبَرِيءٌ وَبِرَاءُ، نَحْوُ كَرِيمٌ وَكِرَامٌ، وَبَرَاءٌ: مَصْدَرٌ كَظَمَاءٌ، وَلِذَلِكَ اسْتَوَى فِيهِ الْوَاحِدُ وَالِاثْنَانِ وَالْجَمَاعَةُ، وَالْمُذَكَّرُ وَالْمُؤَنَّثُ. يُقَالُ: نَحْنُ الْبَرَاءُ مِنْكَ، وَالْخَلَاءُ مِنْكَ.

﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾[2] فِيهِ غَيْرُ وَجْهٍ: أَنْ يَكُونَ مَنْصُوبًا عَلَى أَنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، كَأَنَّهُ قَالَ: لَكِنَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ، وَأَنْ يَكُونَ مَجْرُورًا بَدَلًا مِنَ الْمَجْرُورِ بِمَنْ، كَأَنَّهُ قَالَ: إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا مِنَ الَّذِي فَطَرَنِي.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ تَجْعَلُهُ بَدَلًا وَلَيْسَ مِنْ جِنْسِ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ ذَاتَ اللَّهِ مُخَالِفَةٌ لِجَمِيعِ الذَّوَاتِ، فَكَانَتْ مُخَالِفَةً لِذَوَاتِ مَا يَعْبُدُونَ.

وَالثَّانِي: أَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– غَيْرُ مَعْبُودٍ بَيْنَهُمْ وَالْأَوْثَانَ مَعْبُودَةٌ؟

قُلْتُ: قَالُوا: كَانُوا يَعْبُدُونَ اللَّهَ مَعَ أَوْثَانِهِمْ، وَأَنْ تَكُونَ ﴿إِلَّا﴾[3] صِفَةً بِمَعْنَى غَيْرٍ، عَلَى أَنَّ "مَا" فِي (مَا تَعْبُدُونَ) مَوْصُوفَةٌ. تَقْدِيرُهُ: إِنَّنِي بَرَاءٌ مِنْ آلِهَةٍ تَعْبُدُونَهَا غَيْرَ الَّذِي فَطَرَنِي، فَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[4]]الْأَنْبِيَاءُ: 222].

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿سَيَهْدِينِ﴾[5] عَلَى التَّسْوِيفِ؟

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سورة ، الآية .

5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

قُلْتُ: قَالَ مَرَّةً: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾[1]، وَمَرَّةً: ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾[2]، فَاجْمَعْ بَيْنَهُمَا وَقَدِّرْ، كَأَنَّهُ قَالَ: فَهُوَ يَهْدِينِ وَسَيَهْدِينِ، فيدُلَّانِ عَلَى اسْتِمْرَارِ الْهِدَايَةِ فِي الْحَالِ وَالِاسْتِقْبَالِ.

﴿وَجَعَلَهَا﴾[3] وَجَعَلَ إِبْرَاهِيمُ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ الَّتِي تَكَلَّمَ بِهَا، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلا الَّذِي فَطَرَنِي كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾[4] فِي ذُرِّيَّتِهِ، فَلَا يَزَالُ فِيهِمْ مَنْ يُوَحِّدُ اللَّهَ وَيَدْعُو إِلَى تَوْحِيدِهِ، لَعَلَّ مَنْ أَشْرَكَ مِنْهُمْ يَرْجِعُ بِدُعَاءِ مَنْ وَحَّدَ مِنْهُمْ.

وَنَحْوُهُ: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾[5]،]الْبَقَرَةُ: 1322] وَقِيلَ: وَجَعَلَهَا اللَّهُ. وَقُرِئَ: (كَلِمَةَ) عَلَى التَّخْفِيفِ وَفِي عَقِبِهِ كَذَلِكَ، وَفِي عَاقِبِهِ، أَيْ: فِيمَنْ عَقَبَهُ، أَيْ: خَلَفَهُ.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾[6]

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ﴾[7]، يَعْنِي: أَهْلُ مَكَّةَ، وَهُمْ مِنْ عَقِبِ إِبْرَاهِيمَ بِالْمَدِّ فِي الْعُمْرِ وَالنِّعْمَةِ، فَاغْتَرُّوا بِالْمُهْلَةِ، وَشُغِلُوا بِالتَّنَعُّمِ وَاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ وَطَاعَةِ الشَّيْطَانِ عَنْ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾[8]، وَهُوَ الْقُرْآنُ، ﴿وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾[9]: الرِّسَالَةُ وَاضِحُهَا بِمَا مَعَهُ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَةِ، فَكَذَّبُوا بِهِ وَسُمُّوهُ سَاحِرًا وَمَا جَاءَ بِهِ سِحْرًا وَلَمْ يُوجَدْ مِنْهُمْ مَا رَجَاهُ إِبْرَاهِيمُ .وَقُرِئَ: (بَلْ مُتِّعْنَا).

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا وَجْهُ قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ: (مَتَّعْتُ) بِفَتْحِ التَّاءِ؟

---

1 سورة الشُّعَرَاء، الآية 78.

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

5 سورة الْبَقَرَةُ، الآية 132.

6 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

7 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

8 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

9 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

قُلْتُ: كَأَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– اعْتَرَضَ عَلَى ذَاتِهِ في قَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1]، فَقَالَ: بَلْ مَتَّعْتُهُمْ بِمَا مَتَّعْتُهُمْ بِهِ مِنْ طُولِ الْعُمْرِ وَالسِّعَةِ في الرِّزْقِ، حَتَّى شَغَلَهُمْ ذَلِكَ عَنْ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ. وَأَرَادَ بِذَلِكَ الْإِطْنَابَ في تَعْبِيرِهِمْ، لِأَنَّهُ إِذَا مَتَّعَهُمْ بِزِيَادَةِ النِّعَمِ وَجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَجْعَلُوا ذَلِكَ سَبَبًا في زِيَادَةِ الشُّكْرِ وَالثَّبَاتِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ، لَا أَنْ يُشْرِكُوا بِهِ وَيَجْعَلُوا لَهُ أَنْدَادًا، فَمِثَالُهُ أَنْ يَشْكُوَ الرَّجُلُ إِسَاءَةَ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ، ثُمَّ يَقْبَلُ عَلَى نَفْسِهِ فيقُولُ: أَنْتَ السَّبَبُ في ذَلِكَ بِمَعْرُوفِكَ وَإِحْسَانِكَ، وَغَرَضُهُ بِهَا الْكَلَامُ تَوْبِيخُ الْمُسِيءِ لَا تَقْبِيحُ فِعْلِهِ.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[2]

فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ جَعَلَ مَجِيءَ الْحَقِّ وَالرَّسُولِ غَايَةَ التَّمْتِيعِ، ثُمَّ أَرْدَفَهُ قَوْلَهُ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ﴾[3]، فَمَا طَرِيقُهُ هَذَا النَّظْمُ وَمُؤَدَّاهُ؟

قُلْتُ: الْمُرَادُ بِالتَّمْتِيعِ مَا هُوَ سَبَبٌ لَهُ، وَهُوَ اشْتِغَالُهُمْ بِالِاسْتِمْتَاعِ عَنِ التَّوْحِيدِ وَمُقْتَضَيَاتِهِ، فَقَالَ: بَلِ اشْتَغَلُوا عَنِ التَّوْحِيدِ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ، فَخُيِّلَ بِهَذِهِ الْغَايَةِ أَنَّهُمْ تَنَبَّهُوا عِنْدَهَا عَنْ غَفْلَتِهِمْ لِاقْتِضَائِهَا التَّنَبُّهَ، ثُمَّ ابْتَدَأَ قِصَّتَهُمْ عِنْدَ مَجِيءِ الْحَقِّ، فَقَالَ: وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ جَاءُوا بِمَا هُوَ شَرٌّ مِنْ غَفْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا: وَهُوَ أَنْ ضَمُّوا إِلَى شِرْكِهِمْ مُعَانَدَةَ الْحَقِّ، وَمُكَابَرَةَ الرَّسُولِ، وَمُعَادَاتِهِ، وَالِاسْتِخْفَافَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَشَرَائِعِهِ، وَالْإِصْرَارَ عَلَى أَفْعَالِ الْكَفَرَةِ وَالِاحْتِكَامِ عَلَى حِكْمَةِ اللَّهِ في تَخَيُّرِ مُحَمَّدٍ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[4]، وَهِيَ الْغَايَةُ في تَشْوِيهِ صُورَةِ أَمْرِهِمْ.

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية 28.

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

قُرِئَ: (عَلَى رَجْلٍ) بِسُكُونِ الْجِيمِ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ: مِنْ إِحْدَى الْقَرْيَتَيْنِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى– : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[1]، أَيْ: مِنْ أَحَدِهِمَا. وَالْقَرْيَتَانِ: مَكَّةُ وَالطَّائِفُ .وَقِيلَ: مِنْ رَجُلَيِ الْقَرْيَتَيْنِ، وَهُمَا: الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيُّ وَحَبِيبُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ الثَّقَفي، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ: عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَكِنَانَةُ بْنُ عَبْدِ يَالَّلَيْل، وَعَنْ قَتَادَةَ: الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ وَعُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفي.

وَكَانَ الْوَلِيدُ يَقُولُ: لَوْ كَانَ حَقًّا مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ لَنَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ أَوْ عَلَى أَبِي مَسْعُودٍ الثَّقَفي، وَأَبُو مَسْعُودٍ: كُنْيَةُ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ مَا زَالُوا يُنْكِرُونَ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا، فَلَمَّا عَلِمُوا بِتَكْرِيرِ اللَّهِ الْحُجَجَ أَنَّ الرُّسُلَ لَمْ يَكُونُوا إِلَّا رِجَالًا مِنْ أَهْلِ الْقُرَى، جَاءُوا بِالْإِنْكَارِ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ، وَهُوَ تَحَكُّمُهُمْ أَنْ يَكُونَ أَحَدَ هَذَيْنِ، وَقَوْلُهُمْ: هَذَا الْقُرْآنُ ذُكِرَ لَهُ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِهَانَةِ بِهِ، وَأَرَادُوا بِعِظَمِ الرَّجُلِ: رِيَاسَتُهُ وَتَقَدُّمُهُ فِي الدُّنْيَا، وَعَزَبَ عَنْ عُقُولِهِمْ أَنَّ الْعَظِيمَ مَنْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا.

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[2]

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾[3] هَذِهِ الْهَمْزَةُ لِلْإِنْكَارِ الْمُسْتَقِلِّ بِالتَّجْهِيلِ وَالتَّعْجِيبِ مِنَ اعْتِرَاضِهِمْ وَتَحَكُّمِهِمْ، وَأَنْ يَكُونُوا هُمُ الْمُدَبِّرِينَ لِأَمْرِ النُّبُوَّةِ وَالتَّخَيُّرِ لَهَا مَنْ يَصْلُحُ لَهَا وَيَقُومُ بِهَا، وَالْمُتَوَلِّينَ لِقِسْمَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّتِي لَا يَتَوَلَّاهَا إِلَّا هُوَ بِبَاهِرِ قُدْرَتِهِ وَبَالِغِ حِكْمَتِهِ، ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمْ مَثَلًا فَأَعْلَمَ أَنَّهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ تَدْبِيرِ خُوَيْصَةِ أَمْرِهِمْ وَمَا يُصْلِحُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ، وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَعَلَا هُوَ الَّذِي قَسَّمَ بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ وَقَدَّرَهَا وَدَبَّرَ أَحْوَالَهُمْ تَدْبِيرَ الْعَالِمِ بِهَا، فَلَمْ يُسَوِّ بَيْنَهُمْ، وَلَكِنْ فَاوَتَ بَيْنَهُمْ فِي أَسْبَابِ الْعَيْشِ، وَغَايَرَ بَيْنَ مَنَازِلِهِمْ فَجَعَلَ مِنْهُمْ أَقْوِيَاءَ وَضُعَفَاءَ وَأَغْنِيَاءَ وَمَحَاوِيجَ وَمَوَالِي وَخَدَمًا، لِيَصْرِفَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي حَوَائِجِهِمْ

---

[1] سورة الرَّحْمَنُ، الآية 2.

[2] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[3] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

وَيَسْتَخْدِمُونَ فِي مِهَنِهِمْ وَيَتَسَخَّرُونَ فِي أَشْغَالِهِمْ، حَتَّى يَتَعَايَشُوا وَيَتَرَافَدُوا وَيَصِلُوا إِلَى مَنَافِعِهِمْ وَيَحْصُلُوا عَلَى مَرَافِقِهِمْ، وَلَوْ وَكَلَهُمْ إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَوَلَّاهُمْ تَدْبِيرَ أَمْرِهِمْ، لَضَاعُوا وَهَلَكُوا. وَإِذَا كَانُوا فِي تَدْبِيرِ أَمْرِ الْمَعِيشَةِ الدَّنِيَّةَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ، فَمَا ظَنُّكَ بِهِمْ فِي تَدْبِيرِ أُمُورِ الدِّينِ الَّذِي هُوَ رَحْمَةُ اللَّهِ الْكُبْرَى وَرَأْفَتُهُ الْعُظْمَى؟ وَهُوَ الطَّرِيقُ إِلَى حِيَازَةِ حُظُوظِ الْآخِرَةِ، وَبِالسِّلْمِ إِلَى حُلُولِ دَارِ السَّلَامِ؟

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾[1]، يُرِيدُ: وَهَذِهِ الرَّحْمَةُ وَهِيَ دِينُ اللَّهِ وَمَا يَتْبَعُهُ مِنَ الْفَوْزِ فِي الْمَآبِ: خَيْرُ مَا يَجْمَعُ هَؤُلَاءِ مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا.

فَإِنْ قُلْتَ: مَعِيشَتُهُمْ مَا يَعِيشُونَ بِهِ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعِيشُ بِالْحَلَالِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعِيشُ بِالْحَرَامِ، فَإِذَنْ قَدْ قَسَّمَ اللَّهُ –تَعَالَى– الْحَرَامَ كَمَا قَسَّمَ الْحَلَالَ.

قُلْتُ: اللَّهُ –تَعَالَى– قَسَّمَ لِكُلِّ عَبْدٍ مَعِيشَتَهُ وَهِيَ مَطَاعِمُهُ وَمَشَارِبُهُ وَمَا يُصْلِحُهُ مِنَ الْمَنَافِعِ وَأَذِنَ لَهُ فِي تَنَاوُلِهَا، وَلَكِنْ شَرَطَ عَلَيْهِ وَكَلَّفَهُ أَنْ يَسْلُكَ فِي تَنَاوُلِهَا الطَّرِيقَ الَّتِي شَرَعَهَا، فَإِذَا سَلَكَهَا فَقَدْ تَنَاوَلَ قِسْمَتَهُ مِنَ الْمَعِيشَةِ حَلَالًا، وَسَمَّاهَا رِزْقَ اللَّهِ، وَإِذَا لَمْ يَسْلُكْهَا تَنَاوُلَهَا حَرَامًا، وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يُسَمِّيَهَا رِزْقَ اللَّهِ، فَاللَّهُ –تَعَالَى– قَاسِمُ الْمَعَايِشِ وَالْمَنَافِعِ، وَلَكِنَّ الْعِبَادَ هُمُ الَّذِينَ يُكْسِبُونَهَا صِفَةَ الْحُرْمَةِ بِسُوءِ تَنَاوُلِهِمْ، وَهُوَ عُدُولُهُمْ فِيهِ عَمَّا شَرَعَهُ اللَّهُ إِلَى مَا لَمْ يَشْرَعْهُ.

﴿وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2]

﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾[3] بَدَلُ اشْتِمَالٍ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لِمَنْ يَكْفُرُ﴾[4]، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَا بِمَنْزِلَةِ اللَّامَيْنِ فِي قَوْلِكَ: وَهَبْتُ لَهُ ثَوْبًا لِقَمِيصِهِ. وَقُرِئَ: (سَقْفًا) بِفَتْحِ السِّينِ وَسُكُونِ الْقَافِ. وَبِضَمِّهَا وَسُكُونِ الْقَافِ وَبِضَمِّهَا: جَمْعُ سَقْفٍ، كَرَهْنٍ وَرُهُنْ وَرِهَنٍ.

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

وَعَنِ الْفَرَّاءِ: جَمْعُ سَقِيفَةٍ وَسُقُفًا بِفَتْحَتَيْنِ، كَأَنَّهُ لُغَةٌ فِي سَقْفٍ وَسُقُوفٍ، وَمَعَارِجَ وَمَعَارِيجَ. وَالْمَعَارِجُ: جَمْعُ مُعَرِّجٍ، أَوِ اسْمُ جَمْعٍ لِمِعْرَاجٍ: وَهِيَ الْمَصَاعِدُ إِلَى الْعَلَالِي.

﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾[1]، أَيْ: عَلَى الْمَعَارِجِ، يَظْهَرُونَ السُّطُوحَ يَعْلُونَهَا، فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ. وَسُرُرًا، بِفَتْحِ الرَّاءِ لِاسْتِثْقَالِ الضَّمَّتَيْنِ مَعَ حَرْفِ التَّضْعِيفِ.

﴿لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ﴾[2]: اللَّامُ هِيَ الْفَارِقَةُ بَيْنَ إِنِ الْمُخَفَّفَةِ وَالنَّافِيَةِ.

وَقُرِئَ بِكَسْرِ اللَّامِ، أَيْ: لِلَّذِي هُوَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿مَثَلا مَا بَعُوضَةً﴾[3].

وَلَمَّا بِالتَّشْدِيدِ بِمَعْنَى إِلَّا، وَإِنْ نَافِيَةٌ.

وَقُرِئَ: (إِلَّا) وَقُرِئَ: وَمَا كَلُّ ذَلِكَ إِلَّا.

لَمَّا قَالَ: ﴿خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[4]، فَقَلَّلَ أَمْرَ الدُّنْيَا وَصَغَّرَهَا: أَرْدَفَهُ مَا يُقَرِّرُ قِلَّةَ الدُّنْيَا عِنْدَهُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[5]، أَيْ: وَلَوْلَا كَرَاهَةُ أَنْ يَجْتَمِعُوا عَلَى الْكُفْرِ وَيُطَبِّقُوا عَلَيْهِ، لَجَعَلْنَا لِحَقَارَةِ زَهْرَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عِنْدَنَا لِلْكُفَّارِ سُقُوفًا وَمَصَاعِدَ وَأَبْوَابًا وَسُرُرًا كُلُّهَا مِنْ فِضَّةٍ وَزُخْرُفٍ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ زُخْرُفًا، أَيْ: زِينَةً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَالزُّخْرُفُ: الزِّينَةُ وَالذَّهَبُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْأَصْلُ: سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَزُخْرُفٍ، يَعْنِي: بَعْضُهَا مِنْ فِضَّةٍ وَبَعْضُهَا مِنْ ذَهَبٍ، فَنَصَبَ عَطْفًا عَلَى مَحَلِّ ﴿مِنْ فِضَّةٍ﴾[6]، وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "لَوْ وُزِنَتِ الدُّنْيَا عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى الْكَافِرَ مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ".

فَإِنْ قُلْتَ: فَحِينَ لَمْ يُوَسِّعْ عَلَى الْكَافِرِينَ لِلْفِتْنَةِ الَّتِي كَانَ يُؤَدِّي إِلَيْهَا التَّوْسِعَةُ عَلَيْهِمْ مِنْ إِطْبَاقِ النَّاسِ عَلَى الْكُفْرِ لِحُبِّهِمُ الدُّنْيَا وَتَهَالُكِهِمْ عَلَيْهَا، فَهَلَّا وَسِعَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ لِيُطَبَّقَ النَّاسُ عَلَى الْإِسْلَامِ؟

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية 26.

[4] سورة الزُّخْرُف، الآية 32.

[5] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[6] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

قُلْتُ: التَّوْسِعَةُ عَلَيْهِمْ مُفْسِدَةٌ أَيْضًا لِمَا تُؤَدِّي إِلَيْهِ مِنَ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ لِأَجْلِ الدُّنْيَا، وَالدُّخُولِ فِي الدِّينِ لِأَجْلِ الدُّنْيَا مِنْ دِينِ الْمُنَافِقِينَ، فَكَانَتِ الْحِكْمَةُ فِيمَا دَبَّرَ، حَيْثُ جَعَلَ فِي الْفَرِيقَيْنِ أَغْنِيَاءَ وَفُقَرَاءَ، وَغَلَبَ الْفَقْرُ عَلَى الْغِنَى.

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾[1]

قُرِئَ: (وَمَنْ يَعْشُ) بِضَمِّ الشِّينِ وَفَتْحِهَا. وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّهُ إِذَا حَصَلَتِ الْآفَةُ فِي بَصَرِهِ قِيلَ: عَشِيَ. وَإِذَا نَظَرَ نَظَرَ الْعَشِيِّ وَلَا آفَةَ بِهِ قِيلَ عُشًا. وَنَظِيرُهُ: عَرَّجَ، لِمَنْ بِهِ الْآفَةُ. وَعَرَّجَ، لِمَنْ مَشَى مِشْيَةَ الْعُرْجَانِ مِنْ غَيْرِ عَرَجٍ.

قَالَ الْحُطَيْئَةُ:

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَـــــــارِهِ

أَيْ: تَنْظُرُ إِلَيْهَا نَظَرَ الْعَشِيِّ لَمَّا يَضْعُفُ بَصَرُكَ مِنْ عِظَمِ الْوَقُودِ وَاتِّسَاعِ الضَّوْءِ.

وَهُوَ بَيِّنٌ فِي قَوْلِ حَاتِمٍ:

أَعْشُو إِذَا مَا جَارَتِي بَرَزَتْ حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي الْخُدْرُ

وَقُرِئَ: (يَعْشُوا) عَلَى أَنَّ مَنْ مَوْصُولَةٌ غَيْرُ مُضَمَّنَةٍ مَعْنَى الشَّرْطِ. وَحَقُّ هَذَا الْقَارِئِ أَنْ يَرْفَعَ نَقِيضَ.

وَمَعْنَى الْقِرَاءَةِ بِالْفَتْحِ: وَمَنْ يُعْمَ ﴿عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾[2]، وَهُوَ الْقُرْآنُ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾[3].

وَأَمَّا الْقِرَاءَةُ بِالضَّمِّ فَمَعْنَاهَا: وَمَنْ يَتَعَامَ عَنْ ذِكْرِهِ، أَيْ: يَعْرِفُ أَنَّهُ الْحَقُّ وَهُوَ يَتَجَاهَلُ وَيَتَغَابَى، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾[4].

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية 18.

[4] سورة النَّمْل، الآية 14.

﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾[1]: نَخْذُلُهُ وَنَخِلُّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّيَاطِينِ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾[2]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[3].

وَقُرِئَ: (يُقَيِّضُ)، أَيْ: يُقَيِّضُ لَهُ الرَّحْمَنُ وَيُقَيِّضُ لَهُ الشَّيْطَانُ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ جَمَعَ ضَمِيرَ مَنْ وَضَمِيرَ الشَّيْطَانِ في قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ﴾[4]؟

قُلْتُ: لِأَنَّ "مَنْ" مُبْهَمٌ في جِنْسِ الْعَاشِي، وَقَدْ قَيَّضَ لَهُ شَيْطَانٌ مُبْهَمٌ في جِنْسِهِ، فَلَمَّا جَازَ أَنْ يَتَنَاوَلَا لِإِبْهَامِهِمَا غَيْرَ وَاحِدَيْنِ: جَازَ أَنْ يَرْجِعَ الضَّمِيرُ إِلَيْهِمَا مَجْمُوعًا.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا﴾[5] الْعَاشِي.

وَقُرِئَ: (جَاآنَا) عَلَى أَنَّ الْفِعْلَ لَهُ وَلِشَيْطَانِهِ.

﴿قَالَ﴾[6] لِشَيْطَانِهِ: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾[7] يُرِيدُ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ، فَغَلَّبَ كَمَا قِيلَ: الْعُمْرَانُ وَالْقُمْرَانُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا بُعْدُ الْمَشْرِقَيْنِ؟

قُلْتُ: تَبَاعُدُهُمَا، وَالْأَصْلُ: بَعْدَ الْمَشْرِقِ مِنَ الْمَغْرِبِ، وَالْمَغْرِبِ مِنَ الْمَشْرِقِ. فَلَمَّا غَلَّبَ وَجَمَعَ الْمُفْتَرَقَيْنِ بِالتَّثْنِيَةِ: أَضَافَ الْبُعْدَ إِلَيْهِمَا. "أَنَّكُمْ" في مَحَلِّ الرَّفْعِ عَلَى الْفَاعِلِيَّةِ، يَعْنِي: وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ كَوْنُكُمْ مُشْتَرِكِينَ في الْعَذَابِ كَمَا يَنْفَعُ الْوَاقِعِينَ في الْأَمْرِ الصَّعْبِ اشْتِرَاكُهُمْ فيهِ، لِتَعَاوُنِهِمْ في تَحَمُّلِ أَعْبَائِهِ وَتَقْسِمُهُمْ لِشِدَّتِهِ وَعَنَائِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ مَا لَا تَبْلُغُهُ طَاقَتُهُ، وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْفِعْلَ لِلتَّمَنِّي في قَوْلِهِ: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾[8] عَلَى مَعْنَى: وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ مَا أَنْتُمْ فيهِ مَنْ تَمَنَّى مُبَاعَدَةَ الْقَرِينِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾[9] تَعْلِيلٌ، أَيْ: لَنْ يَنْفَعَكُمْ تَمَنِّيكُمْ، لِأَنَّ حَقَّكُمْ أَنْ تَشْتَرِكُوا أَنْتُمْ وَقُرَنَاؤُكُمْ في الْعَذَابِ كَمَا كُنْتُمْ مُشْتَرِكُونَ في سَبَبِهِ وَهُوَ الْكُفْرُ.

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة فُصِّلَتْ، الآية 22.

3 سورة مَرْيَم، الآية 83.

4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

6 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

7 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

8 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

9 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

وَتُقَوِّيهِ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: (إِنَّكُمْ) بِالْكَسْرِ وَقِيلَ: إِذَا رَأَى الْمَمْنُوَّ بِشِدَّةِ مَنْ مَنَّى بِمِثْلِهَا: رَوَّحَهُ ذَلِكَ وَنَفَّسَ بَعْضَ كُرَبِهِ، وَهُوَ التَّأَسِّي الَّذِي ذَكَرَتْهُ الْخَنْسَاءُ:

أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّـــــــــــي

فَهَؤُلَاءِ لَا يُؤَسِّيهِمُ اشْتِرَاكُهُمْ وَلَا يُرَوِّحُهُمْ، لِعِظَمِ مَا هُمْ فيهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾[1]؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: إِذْ صَحَّ ظُلْمُكُمْ وَتَبَيَّنَ وَلَمْ يَبْقَ لَكُمْ وَلَا لِأَحَدٍ شُبْهَةٌ في أَنَّكُمْ كُنْتُمْ ظَالِمِينَ، وَذَلِكَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. وَإِذْ: بَدَلٌ مِنَ الْيَوْمِ.

وَنَظِيرُهُ:

إِذَا مَا انْتَسَبْنَا لَمْ تَلِدْنِي لَئِيمَـــــــــةٌ

أَيْ: تَبَيَّنَ أَنِّي وَلَدُ كَرِيمَةٍ.

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[2]

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَجِدُّ وَيَجْتَهِدُ وَيَكِدُّ رُوحُهُ في دُعَاءِ قَوْمِهِ، وَهُمْ لَا يَزِيدُونَ عَلَى دُعَائِهِ إِلَّا تَصْمِيمًا عَلَى الْكُفْرِ وَتَمَادِيًا في الْغَيِّ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾[3]: إِنْكَارَ تَعْجِيبٍ مِنْ أَنْ يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى هِدَايَتِهِمْ، وَأَرَادَ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ عَلَى سَبِيلِ الْإِلْجَاءِ وَالْقَسْرِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾[4]]فَاطِرُ: 22 .[

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سورة ، الآية .

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[1]

"مَا" في قَوْلِهِ: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾[2] بِمَنْزِلَةِ لَامِ الْقَسَمِ: في أَنَّهَا إِذَا دَخَلَتْ دَخَلَتْ مَعَهَا النُّونُ الْمُؤَكِّدَةُ.

وَالْمَعْنَى: فَإِنْ قَبَضْنَاكَ قَبْلَ أَنْ نَنْصُرَكَ عَلَيْهِمْ وَنَشْفِي صُدُورَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ، ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾[3] أَشَدَّ الِانْتِقَامِ في الْآخِرَةِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾[4]؛ وَإِنْ أَرَدْنَا أَنْ نُنْجِزَ في حَيَاتِكَ مَا وَعَدْنَاهُمْ مِنَ الْعَذَابِ النَّازِلِ بِهِمْ وَهُوَ يَوْمُ بَدْرٍ، فَهُمْ تَحْتَ مِلْكَتِنَا وَقُدْرَتِنَا لَا يَفُوتُونَنَا، وَصْفُهُمْ بِشِدَّةِ الشَّكِيمَةِ في الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ ثُمَّ أَتْبَعَهُ شِدَّةُ الْوَعِيدِ بِعَذَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَقُرِئَ: (نُرِينَكَ) بِالنُّونِ الْخَفِيفَةِ. وَقُرِئَ: (بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ) عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ، وَهُوَ اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ–، وَالْمَعْنَى: وَسَوَاءٌ عَجَّلْنَا لَكَ الظَّفَرَ وَالْغَلَبَةَ أَوْ أَخَّرْنَا إِلَى الْيَوْمِ الْآخِرِ. فَكُنْ مُسْتَمْسِكًا بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَبِالْعَمَلِ بِهِ، فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي لَا يَحِيدُ عَنْهُ إِلَّا ضَالٌّ شَقِيٌّ، وَزِدْ كُلَّ يَوْمٍ صَلَابَةً في الْمُحَامَاةِ عَلَى دِينِ اللَّهِ، وَلَا يُخْرِجُكَ الضَّجَرُ بِأَمْرِهِمْ إِلَى شَيْءٍ مِنَ اللِّينِ وَالرَّخَاوَةِ في أَمْرِكَ، وَلَكِنْ كَمَا يَفْعَلُ الثَّابِتُ الَّذِي لَا يُنَشِّطُهُ تَعْجِيلُ ظَفَرٍ، وَلَا يُثَبِّطُهُ تَأْخِيرُهُ.

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[5]

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سورة غَافِر، الآية 77.

5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

﴿وَإِنَّهُ﴾[1]: وَإِنَّ الَّذِي أَوْحَى إِلَيْكَ، ﴿لَذِكْرٌ﴾[2]: لَشَرَفٌ ﴿لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[3] وَ لِ ﴿سَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾[4] عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَنْ قِيَامِكُمْ بِحَقِّهِ، وَعَنْ تَعْظِيمِكُمْ لَهُ، وَشُكْرِكُمْ عَلَى أَنْ رُزِقْتُمُوهُ وَخُصِّصْتُمْ بِهِ مِنْ بَيْنِ الْعَالَمِينَ، لَيْسَ الْمُرَادُ بِسُؤَالِ الرُّسُلِ حَقِيقَةَ السُّؤَالِ لِإِحَالَتِهِ، وَلَكِنَّهُ مَجَازٌ عَنِ النَّظَرِ فِي أَدْيَانِهِمْ وَالْفَحْصِ عَنْ مِلَلِهِمْ، هَلْ جَاءَتْ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ قَطُّ فِي مِلَّةٍ مِنْ مِلَلِ الْأَنْبِيَاءِ؟

وَكَفَاهُ نَظَرًا وَفَحْصًا: نَظَرُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ الْمُعْجِزِ الْمُصَدِّقِ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَإِخْبَارِ اللَّهِ فِيهِ بِأَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا.

وَهَذِهِ الْآيَةُ فِي نَفْسِهَا كَافِيَةٌ لَا حَاجَةَ إِلَى غَيْرِهَا، وَالسُّؤَالُ الْوَاقِعُ مَجَازًا عَنِ النَّظَرِ، حَيْثُ لَا يَصِحُّ السُّؤَالُ عَلَى الْحَقِيقَةِ: كَثِيرٌ مِنْهُ مُسَاءَلَةُ الشُّعَرَاءِ الدِّيَارَ وَالرُّسُومَ وَالْأَطْلَالَ.

وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: سَلِ الْأَرْضَ: مَنْ شَقَّ أَنْهَارَكِ وَغَرَسَ أَشْجَارَكِ وَجَنَى ثِمَارَكِ؟ فَإِنَّهَا لَمْ تُجِبْكَ حَوَارًا أَجَابَتْكَ اعْتِبَارًا.

وَقِيلَ: إِنَّ النَّبِيَّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– جَمَعَ لَهُ الْأَنْبِيَاءَ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَأَمَّهُمْ. وَقِيلَ لَهُ: سَلْهُمْ، فَلَمْ يُشَكِّكْ وَلَمْ يَسْأَلْ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ سَلْ أُمَمَ مَنْ أَرْسَلْنَا وَهُمْ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ: التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ.

وَعَنِ الْفَرَّاءِ: هُمْ إِنَّمَا يُخْبِرُونَهُ عَنْ كُتُبِ الرُّسُلِ، فَإِذَا سَأَلَهُمْ فَكَأَنَّهُ سَأَلَ الْأَنْبِيَاءَ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾[5]

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

مَا أَجَابُوهُ بِهِ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] مَحْذُوفٌ، دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا﴾[2]، وَهُوَ مُطَالَبَتُهُمْ إِيَّاهُ بِإِحْضَارِ الْبَيِّنَةِ عَلَى دَعْوَاهُ وَإِبْرَازِ الْآيَةِ.

﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾[3]، أَيْ يَسْخَرُونَ مِنْهَا وَيَهْزَءُونَ بِهَا وَيُسَمُّونَهَا سِحْرًا. وَإِذَا لِلْمُفَاجَأَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جَازَ أَنْ يُجَابَ لَمَّا بِإِذَا الْمُفَاجَأَةِ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ فِعْلَ الْمُفَاجَأَةِ مَعَهَا مُقَدَّرٌ، وَهُوَ عَامِلُ النَّصْبِ فِي مَحَلِّهَا، كَأَنَّهُ قِيلَ: فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا فَاجَئُوا وَقْتَ ضَحِكِهِمْ.

﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[4]

فَإِنْ قُلْتَ: إِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ جُمْلَةِ التِّسْعِ فَمَا أُخْتُهَا الَّتِي فُضِّلَتْ عَلَيْهَا فِي الْكِبَرِ مِنْ بَقِيَّةِ الْآيَاتِ؟

قُلْتُ: أُخْتُهَا الَّتِي هِيَ آيَةٌ مِثْلُهَا. وَهَذِهِ صِفَةُ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا فَكَانَ الْمَعْنَى عَلَى أَنَّهَا أَكْبَرُ مِنْ بَقِيَّةِ الْآيَاتِ عَلَى سَبِيلِ التَّفْصِيلِ وَالِاسْتِقْرَاءِ وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ، كَمَا تَقُولُ: هُوَ أَفْضَلُ رَجُلٍ رَأَيْتُهُ. تُرِيدُ: تَفْضِيلُهُ عَلَى أُمَّةِ الرِّجَالِ الَّذِينَ رَأَيْتُهُمْ إِذَا قَرَوْتَهُمْ رَجُلًا رَجُلًا.

فَإِنْ قُلْتَ: هُوَ كَلَامٌ مُتَنَاقِضٌ، لِأَنَّ مَعْنَاهُ: مَا مِنْ آيَةٍ مِنَ التِّسْعِ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا، فَتَكُونُ وَاحِدَةً مِنْهَا فَاضِلَةً وَمَفْضُولَةً فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ.

قُلْتُ: الْغَرَضُ بِهَذَا الْكَلَامِ أَنَّهُنَّ مَوْصُوفَاتٌ بِالْكِبَرِ، لَا يَكَدْنَ يَتَفَاوَتْنَ فِيهِ، وَكَذَلِكَ الْعَادَةُ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَتَلَاقَى فِي الْفَضْلِ وَتَتَفَاوَتُ مَنَازِلُهَا فِيهِ التَّفَاوُتَ الْيَسِيرَ الَّتِي تَخْتَلِفُ آرَاءُ النَّاسِ فِي تَفْضِيلِهَا، فَيُفَضِّلُ بَعْضُهُمْ هَذَا وَبَعْضُهُمْ ذَاكَ، فَعَلَى ذَلِكَ بَنَى النَّاسُ كَلَامَهُمْ، فَقَالُوا: رَأَيْتُ رِجَالًا بَعْضُهُمْ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ، وَرُبَّمَا اخْتَلَفَتْ آرَاءُ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ فِيهَا، فَتَارَةً يُفَضِّلُ هَذَا وَتَارَةً يُفَضِّلُ ذَاكَ.

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

وَمِنْهُ بَيْتُ الْحَمَاسَةِ:

مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لَاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ مِثْلُ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي

وَقَدْ فَاضَلَتِ الْأَنْمَارِيَّةُ بَيْنَ الْكَمَلَةِ مِنْ بَنِيهَا، ثُمَّ قَالَتْ: لَمَّا أَبْصَرْتُ مَرَاتِبَهُمْ مُتَدَانِيَةً قَلِيلَةَ التَّفَاوُتِ. ثَكِلَتْهُمْ إِنْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَيُّهُمْ أَفْضَلُ، وَهُمْ كَالْحَلْقَةِ الْمُفَرَّغَةِ لَا يَدْرِي أَيْنَ طَرَفَاهَا.

﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1]: إِرَادَةَ أَنْ يَرْجِعُوا عَنِ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لَوْ أَرَادَ رُجُوعَهُمْ لَكَانَ.

قُلْتُ: إِرَادَتُهُ فِعْلَ غَيْرِهِ لَيْسَ إِلَّا أَنْ يَأْمُرَهُ بِهِ وَيَطْلُبَ مِنْهُ إِيجَادَهُ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْقَسْرِ وُجِدَ، وَإِلَّا دَارَ بَيْنَ أَنْ يُوجَدَ وَبَيْنَ أَنْ لَا يُوجَدَ عَلَى حَسَبِ اخْتِيَارِ الْمُكَلَّفِ، وَإِنَّمَا لَمْ يَكُنِ الرُّجُوعُ، لِأَنَّ الْإِرَادَةَ لَمْ تَكُنْ قَسْرًا وَلَمْ يَخْتَارُوهُ.

وَالْمُرَادُ بِالْعَذَابِ: السُّنُونُ، وَالطُّوفَانُ، وَالْجَرَادُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ.

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾[2]

وَقُرِئَ: (يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ) بِضَمِّ الْهَاءِ، وَقَدْ سَبَقَ وَجْهُهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ سَمَّوْهُ بِالسَّاحِرِ مَعَ قَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾[3]؟

قُلْتُ: قَوْلُهُمْ: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾[4]: وَعْدٌ مَنَوِيٌّ إِخْلَافُهُ، وَعَهْدٌ مَعْزُومٌ عَلَى نَكْثِهِ، مُعَلَّقٌ بِشَرْطِ أَنْ يَدْعُوَ لَهُمْ وَيَنْكَشِفَ عَنْهُمُ الْعَذَابُ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾[5]، فَمَا كَانَتْ تَسْمِيَتُهُمْ إِيَّاهُ بِالسَّاحِرِ بِمُنَافِيَةٍ لِقَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾[6]؟

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

6 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

وَقِيلَ: كَانُوا يَقُولُونَ لِلْعَالِمِ الْمَاهِرِ سَاحِرٌ لِاسْتِعْظَامِهِمْ عِلْمَ السِّحْرِ ﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾[1] بِعَهْدِهِ عِنْدَكَ: مِنْ أَنَّ دَعْوَتَكَ مُسْتَجَابَةٌ، أَوْ بِعَهْدِهِ عِنْدَكَ، وَهُوَ النُّبُوَّةُ، أَوْ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ فَوَفيتَ بِهِ وَهُوَ الْإِيمَانُ وَالطَّاعَةُ، أَوْ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ مِنْ كَشْفِ الْعَذَابِ عَمَّنِ اهْتَدَى.

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾[2]

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ﴾[3] جَعَلَهُمْ مَحِلًّا لِنِدَائِهِ وَمَوْقِعًا لَهُ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ أَمَرَ بِالنِّدَاءِ في مَجَامِعِهِمْ وَأَمَاكِنِهِمْ مَنْ نَادَى فيها بِذَلِكَ، فَأَسْنَدَ النِّدَاءَ إِلَيْهِ، كَقَوْلِكَ: قَطَعَ الْأَمِيرُ اللِّصَّ، إِذَا أَمَرَ بِقَطْعِهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ عُظَمَاءُ الْقِبْطِ، فيرْفَعُ صَوْتَهُ بِذَلِكَ فيمَا بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَنْشُرُ عَنْهُ في جُمُوعِ الْقِبْطِ، فَكَأَنَّهُ نُودِيَ بِهِ بَيْنَهُمْ فَقَالَ: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ﴾[4]، يَعْنِي: أَنْهَارَ النِّيلِ وَمُعْظَمُهَا أَرْبَعَةٌ :نَهْرُ الْمَلِكِ، وَنَهْرُ طُولُونَ، وَنَهْرُ دِمْيَاطٍ، وَنَهْرُ تُنَيْسٍ :قِيلَ: كَانَتْ تَجْرِي تَحْتَ قَصْرِهِ. وَقِيلَ: تَحْتَ سَرِيرِهِ لِارْتِفَاعِهِ. وَقِيلَ: بَيْنَ يَدِي في جِنَانِي وَبَسَاتِينِي.

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْوَاوُ عَاطِفَةً لِلْأَنْهَارِ عَلَى مُلْكِ مِصْرَ .وَتَجْرِي: نُصِبَ عَلَى الْحَالِ مِنْهَا، وَأَنْ تَكُونَ الْوَاوُ لِلْحَالِ، وَاسْمُ الْإِشَارَةِ مُبْتَدَأٌ، وَالْأَنْهَارُ صِفَةٌ لِاسْمِ الْإِشَارَةِ، وَتَجْرِي خَبَرٌ لِلْمُبْتَدَأِ.

وَلَيْتَ شِعْرِي! كَيْفَ ارْتَقَتْ إِلَى دَعْوَةِ الرُّبُوبِيَّةِ هِمَّةُ مَنْ تَعَظَّمَ بِمُلْكِ مِصْرَ، وَعَجِبَ النَّاسُ مِنْ مَدَى عَظَمَتِهِ، وَأَمَرَ فَنُودِيَ بِهَا في أَسْوَاقِ مِصْرَ وَأَزِقَّتِهَا، لِئَلَّا تَخْفى تِلْكَ الْأُبَّهَةُ وَالْجَلَالَةُ عَلَى صَغِيرٍ وَلَا كَبِيرٍ وَحَتَّى يَتَرَبَّعَ في صُدُورِ الدَّهْمَاءِ مِقْدَارُ عِزَّتِهِ وَمَلَكُوتُهُ.

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

وَعَنِ الرَّشِيدِ: أَنَّهُ لَمَّا قَرَأَهَا قَالَ: لِأُوَلِّيَنَّهَا أَخَسَّ عَبِيدِي، فَوَلَّاهَا الْخَصِيبَ، وَكَانَ عَلَى وُضُوئِهِ.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ أَنَّهُ وَلِيَهَا، فَخَرَجَ إِلَيْهَا فَلَمَّا شَارَفَهَا وَوَقَعَ عَلَيْهَا بَصَرُهُ قَالَ: أَهِيَ الْقَرْيَةُ الَّتِي افْتَخَرَ بِهَا فِرْعَوْنُ حَتَّى قَالَ: أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ، وَاللَّهِ لَهِيَ أَقَلُّ عِنْدِي مِنْ أَنْ أَدْخُلَهَا، فَثَنَى عِنَانَهُ.

﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾[1] أَمْ هَذِهِ مُتَّصِلَةٌ، لِأَنَّ الْمَعْنَى: أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ تُبْصِرُونَ، إِلَّا أَنَّهُ وَضَعَ قَوْلَهُ: ﴿أَنَا خَيْرٌ﴾[2] مَوْضِعَ: تُبْصِرُونَ، لِأَنَّهُمْ إِذَا قَالُوا لَهُ: أَنْتَ خَيْرٌ، فَهُمْ عِنْدَهُ بُصَرَاءُ، وَهَذَا مِنْ إِنْزَالِ السَّبَبِ مَنْزِلَةَ الْمُسَبَّبِ.

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مُنْقَطِعَةً عَلَى: بَلْ أَأَنَا خَيْرٌ، وَالْهَمْزَةُ لِلتَّقْرِيرِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدَّمَ تَعْدِيدَ أَسْبَابِ الْفَضْلِ وَالتَّقَدُّمِ عَلَيْهِمْ مِنْ مُلْكِ مِصْرَ وَجَرْيِ الْأَنْهَارِ تَحْتَهُ، وَنَادَى بِذَلِكَ وَمَلَأَ بِهِ مَسَامِعَهُمْ، ثُمَّ قَالَ: أَنَا خَيْرٌ كَأَنَّهُ يَقُولُ: أَثَبَتَ عِنْدَكُمْ وَاسْتَقَرَّ أَنِّي أَنَا خَيْرٌ.

وَهَذِهِ حَالِي ﴿مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾[3]، أَيْ ضَعِيفٌ حَقِيرٌ. وَقُرِئَ: (أَمَا أَنَا خَيْرٌ).

وَلا يَكَادُ يُبِينُ الْكَلَامُ لِمَا بِهِ مِنَ الرُّتَّةِ يُرِيدُ: أَنَّهُ لَيْسَ مَعَهُ مِنَ الْعَدَدِ وَآلَاتِ الْمُلْكِ وَالسِّيَاسَةِ مَا يَعْتَضِدُ بِهِ، وَهُوَ فِي نَفْسِهِ مُخِلٌّ بِمَا يَنْعَتُ بِهِ الرِّجَالُ مِنَ اللَّسْنِ وَالْفَصَاحَةِ، وَكَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ كُلُّهُمْ أَبْنَاءُ بُلَغَاءُ.

وَأَرَادَ بِإِلْقَاءِ الْأَسْوِرَةِ عَلَيْهِ: إِلْقَاءَ مَقَالِيدِ الْمُلْكِ إِلَيْهِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَرَادُوا تَسْوِيدَ الرَّجُلِ سَوَّرُوهُ بِسِوَارٍ وَطَوَّقُوهُ بِطَوْقٍ مِنْ ذَهَبٍ.

﴿ مُقْتَرِنِينَ﴾[4]: إِمَّا مُقْتَرِنِينَ بِهِ مِنْ قَوْلِكَ: قَرَنْتُهُ فَاقْتَرَنَ بِهِ، وَإِمَّا مِنِ: اقْتَرَنُوا، بِمَعْنَى تَقَارَنُوا: لَمَّا وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْمُلْكِ وَالْعِزَّةِ وَوَازَنَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُوسَى –صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ–، فَوَصَفَهُ بِالضَّعْفِ وَقِلَّةِ الْأَعْضَادِ اعْتَرَضَ، فَقَالَ: هَلَّا إِنْ كَانَ صَادِقًا مَلَكَهُ رَبُّهُ وَسَوَّدَهُ وَسَوَّرَهُ، وَجَعَلَ الْمَلَائِكَةَ أَعْضَادَهُ وَأَنْصَارَهُ.

وَقُرِئَ: (أَسَاوِرَ) جَمْعُ أَسْوِرَةٍ وَ (أَسَاوِيرُ) جَمْعُ أَسْوَارٍ وَهُوَ السُّوَارُ، وَ (أَسَاوِرَةٌ) عَلَى تَعْوِيضِ التَّاءِ مِنْ يَاءِ أَسَاوِيرَ.

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

وَقُرِئَ: (أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ) وَأَسَاوِرُ، عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ، وَهُوَ اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ–:

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[1]

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾[2] فَاسْتَفَزَّهُمْ.

وَحَقِيقَتُهُ: حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ يُخْفُوا لَهُ وَلِمَا أَرَادَ مِنْهُمْ، وَكَذَلِكَ: اسْتَفَزَّ، مِنْ قَوْلِهِمْ لِلْخَفِيفِ: فَزٌّ.

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلا لِلآخِرِينَ﴾[3]

﴿آسَفُونَا﴾[4] مَنْقُولٌ مِنْ أَسِفَ أَسَفًا إِذَا اشْتَدَّ غَضَبُهُ. وَمِنْهُ الْحَدِيثُ فِي مَوْتِ الْفَجْأَةِ: "رَحْمَةٌ لَلَؤُمِنِ وَأَخْذَةُ أَسَفٍ لِلْكَافِرِ".

وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُمْ أَفْرَطُوا فِي الْمَعَاصِي وَعَدُّوا طَوْرَهُمْ، فَاسْتَوْجَبُوا أَنْ نُعَجِّلَ لَهُمْ عَذَابَنَا وَانْتِقَامَنَا، وَأَنْ لَا نَحْلُمَ عَنْهُمْ.

وَقُرِئَ: (سَلَفًا) جَمْعُ سَالِفٍ، كَخَادِمٍ وَخَدَمٍ. وَسُلُفًا بِضَمَّتَيْنِ– جَمْعُ سَلِيفٍ، أَيْ: فَرِيقٌ قَدْ سَلَفَ. وَسَلَفًا: جَمْعُ سُلْفَةٍ، أَيْ: ثُلَّةٌ قَدْ سَلَفَتْ.

وَمَعْنَاهُ: فَجَعَلْنَاهُمْ قُدْوَةً لِلْآخَرِينَ مِنَ الْكَفَّارِ، يَقْتَدُونَ بِهِمْ فِي اسْتِحْقَاقِ مِثْلِ عِقَابِهِمْ وَنُزُولِهِ بِهِمْ، لِإِتْيَانِهِمْ بِمِثْلِ أَفْعَالِهِمْ، وَحَدِيثًا عَجِيبَ الشَّأْنِ سَائِرًا مَسِيرَ الْمَثَلِ، يُحَدِّثُونَ بِهِ وَيُقَالُ لَهُمْ: مَثَلُكُمْ مَثَلُ قَوْمِ فِرْعَوْنَ.

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[3] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[4] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[1]

لَمَّا قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَلَى قُرَيْشٍ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[2]، امْتَعَضُوا مِنْ ذَلِكَ امْتِعَاضًا شَدِيدًا، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّبَعْرِيِّ: يَا مُحَمَّدُ، أَخَاصَّةٌ لَنَا وَلِآلِهَتِنَا أَمْ لِجَمِيعِ الْأُمَمِ؟ فَقَالَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: هُوَ لَكُمْ وَلِآلِهَتِكُمْ وَلِجَمِيعِ الْأُمَمِ، فَقَالَ: خَصِمْتُكَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ نَبِيٌّ وَتُثْنِي عَلَيْهِ خَيْرًا وَعَلَى أُمِّهِ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ النَّصَارَى يَعْبُدُونَهُمَا. وَعُزَيْرٌ يُعْبَدُ. وَالْمَلَائِكَةُ يُعْبَدُونَ، فَإِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ فِي النَّارِ فَقَدْ رَضِينَا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ وَآلِهَتَنَا مَعَهُمْ، فَفَرِحُوا وَضَحِكُوا، وَسَكَتَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَأَنْزَلَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾[3]، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ.

وَالْمَعْنَى: وَلَمَّا ضَرَبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّبَعْرَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مَثَلًا، وَجَادَلَ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِعِبَادَةِ النَّصَارَى إِيَّاهُ.

﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾[4] قُرَيْشٌ مِنْ هَذَا الْمَثَلِ، ﴿يَصِدُّونَ﴾[5] تَرْتَفِعُ لَهُمْ جَلَبَةٌ وَضَجِيجٌ فَرَحًا وَجَزَلًا وَضَحِكًا بِمَا سَمِعُوا مِنْهُ مِنْ إِسْكَاتِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِجَدَلِهِ، كَمَا يَرْتَفِعُ لَغَطُ الْقَوْمِ وَلَجَبُهُمْ إِذَا تَعَيَّوْا بِحُجَّةٍ ثُمَّ فُتِحَتْ عَلَيْهِمْ.

وَأَمَّا مَنْ قَرَأَ: (يَصُدُّونَ) بِالضَّمِّ– فَمِنَ الصُّدُودِ، أَيْ: مِنْ أَجْلِ هَذَا الْمَثَلِ يَصُدُّونَ عَنِ الْحَقِّ وَيُعْرِضُونَ عَنْهُ. وَقِيلَ: مِنَ الصَّدِيدِ وَهُوَ الْجَلَبَةُ، وَأَنَّهُمَا لُغَتَانِ نَحْوُ: يَعْكُفُ وَيَعْكِفُ وَنَظَائِرُ لَهُمَا.

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سورة الْأَنْبِيَاءُ، الآية 98.

[3] سورة الْأَنْبِيَاءُ، الآية 101.

[4] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[5] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾[1] يَعْنُونَ أَنَّ آلِهَتَنَا عِنْدَكَ لَيْسَتْ بِخَيْرٍ مِنْ عِيسَى، وَإِذَا كَانَ عِيسَى مِنْ حَصَبِ النَّارِ كَانَ أَمْرُ آلِهَتِنَا هَيِّنًا.

﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾[2]، أَيْ مَا ضَرَبُوا هَذَا الْمَثَلَ، ﴿لَكَ إِلا جَدَلا﴾[3] إِلَّا لِأَجْلِ الْجَدَلِ وَالْغَلَبَةِ فِي الْقَوْلِ، لَا لِطَلَبِ الْمَيْزِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[4] لَدَّ شِدَادُ الْخُصُومَةِ دَأْبُهُمُ اللَّجَاجُ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿قَوْمًا لُدًّا﴾[5].

وَذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[6] مَا أُرِيدَ بِهِ إِلَّا الْأَصْنَامُ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: "هُوَ لَكُمْ وَلِآلِهَتِكُمْ وَلِجَمِيعِ الْأُمَمِ" إِنَّمَا قَصَدَ بِهِ الْأَصْنَامَ، وَمُحَالٌ أَنْ يَقْصِدَ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْمَلَائِكَةَ، إِلَّا أَنَّ ابْنَ الزَّبَعْرَى بِخَبِّهِ وَخِدَاعِهِ وَخُبْثِ دُخْلَتِهِ لَمَّا رَأَى كَلَامَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مُحْتَمِلًا لَفْظُهُ وَجْهَ الْعُمُومِ، مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِهِ أَصْنَامُهُمْ لَا غَيْرَ، وَجَدَ لِلْحِيلَةِ مَسَاغًا، فَصَرَفَ مَعْنَاهُ إِلَى الشُّمُولِ وَالْإِحَاطَةِ بِكُلِّ مَعْبُودٍ غَيْرِ اللَّهِ، عَلَى طَرِيقَةِ الْمَحْكِ وَالْجِدَالِ وَحُبِّ الْمُغَالَبَةِ وَالْمُكَابَرَةِ، وَتَوَقَّحُ فِي ذَلِكَ، فَتُوَقِّرُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، حَتَّى أَجَابَ عَنْهُ رَبُّهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾[7]، فَدَلَّ بِهِ عَلَى أَنَّ الْآيَةَ خَاصَّةً مِنَ الْأَصْنَامِ، عَلَى أَنَّ الظَّاهِرَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾[8] لِغَيْرِ الْعُقَلَاءِ.

وَقِيلَ: لَمَّا سَمِعُوا قَوْلَهُ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾[9]، قَالُوا: نَحْنُ أَهْدَى مِنَ النَّصَارَى، لِأَنَّهُمْ عَبَدُوا آدَامِيًّا، وَنَحْنُ نَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، فَنَزَلَتْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾[10] عَلَى هَذَا الْقَوْلِ: تَفْضِيلٌ لِآلِهَتِهِمْ عَلَى عِيسَى، لِأَنَّ الْمُرَادَ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ وَمَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا. مَعْنَاهُ: وَمَا قَالُوا هَذَا الْقَوْلَ، يَعْنِي: آلِهَتُنَا

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
5 سُورَةُ مَرْيَمَ، الآية 97.
6 سورة الْأَنْبِيَاءِ، الآية 98.
7 سورة الْأَنْبِيَاءِ، الآية 101.
8 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
9 سورة آل عِمْرَانَ، الآية 59.
10 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

خَيْرٌ أَمْ هُوَ. إِلَّا لِلْجِدَالِ، وَقُرِئَ: (أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ) بِإِثْبَاتِ هَمْزَةِ الِاسْتِفْهَامِ وَبِإِسْقَاطِهَا، لِدَلَالَةِ أَمِ الْعَدِيلَةِ عَلَيْهَا. وَفِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: خَيْرٌ أَمْ هَذَا.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿جَدَلًا﴾[1] حَالًا، أَيْ: جَدْلَيْنِ. وَقِيلَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ﴾[2]، قَالُوا: مَا يُرِيدُ مُحَمَّدٌ بِهَذَا إِلَّا أَنْ نَعْبُدَهُ، وَأَنَّهُ يَسْتَأْهِلُ أَنْ يُعْبَدَ، وَإِنْ كَانَ بَشَرًا، كَمَا عَبَدَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحَ وَهُوَ بَشَرٌ.

وَمَعْنَى ﴿يَصِدُّونَ﴾[3]: يَضِجُّونَ وَيَضْجَرُونَ. وَالضَّمِيرُ فِي ﴿أَمْ هُوَ﴾[4] لِمُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَغَرَضُهُمْ بِالْمُوَازَنَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ آلِهَتِهِمْ: السُّخْرِيَةُ بِهِ وَالِاسْتِهْزَاءُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولُوا -لِمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُمْ: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ وَعَبَدُوهُمْ- مَا قُلْنَا بِدَعًا مِنَ الْقَوْلِ، وَلَمَا فَعَلْنَا نُكْرًا مِنَ الْفِعْلِ، فَإِنَّ النَّصَارَى جَعَلُوا الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ وَعَبَدُوهُ، وَنَحْنُ أَشَفُّ مِنْهُمْ قَوْلًا وَفِعْلًا، فَإِنَّا نَسَبْنَا إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةَ وَهُمْ نَسَبُوا إِلَيْهِ الْأَنَاسِيَّ، فَقِيلَ لَهُمْ: مَذْهَبُ النَّصَارَى شِرْكٌ بِاللَّهِ، وَمَذْهَبُكُمْ شِرْكٌ مِثْلُهُ، وَمَا تَنَصُّلُكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِمَا أَوْرَدْتُمُوهُ إِلَّا قِيَاسٌ بَاطِلٌ بِبَاطِلٍ، وَمَا عِيسَى ﴿إِلَّا عَبْدٌ﴾[5] كَسَائِرِ الْعَبِيدِ ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾[6] حَيْثُ جَعَلْنَاهُ آيَةً: بِأَنْ خَلَقْنَاهُ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ، كَمَا خَلَقْنَا آدَمَ وَشَرَّفْنَا بِالنُّبُوَّةِ وَصَيَّرْنَاهُ عِبْرَةً عَجِيبَةً كَالْمَثَلِ السَّائِرِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾[7]

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة آل عِمْرَانَ، الآية 59.

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

6 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

7 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾[1] لِقُدْرَتِنَا عَلَى عَجَائِبِ الْأُمُورِ وَبَدَائِعِ الْفِطَرِ ﴿لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾[2]: لَوَلَدْنَا مِنْكُمْ يَا رِجَالُ، ﴿مَلَائِكَةً﴾[3] يَخْلُفُونَكُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا يَخْلُفُكُمْ أَوْلَادُكُمْ، كَمَا وَلَدْنَا عِيسَى مِنْ أُنْثَى مِنْ غَيْرِ فَحْلٍ، لِتَعْرِفُوا تَمَيُّزَنَا بِالْقُدْرَةِ الْبَاهِرَةِ، وَلِتَعْلَمُوا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ أَجْسَامٌ لَا تَتَوَلَّدُ إِلَّا مِنْ أَجْسَامٍ، وَذَاتُ الْقَدِيمِ مُتَعَالِيَةٌ عَنْ ذَلِكَ.

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[4]

"وَأَنَّهُ" وَإِنَّ عِيسَى –عَلَيْهِ السَّلَامُ– ﴿لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾[5]، أَيْ شَرْطٌ مِنْ أَشْرَاطِهَا تُعْلَمُ بِهِ، فَسَمَّى الشَّرْطَ عِلْمًا لِحُصُولِ الْعِلْمِ بِهِ. وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِعَلَمٌ، وَهُوَ الْعَلَّامَةُ.

وَقُرِئَ: (لِلْعِلْمِ) وَقَرَأَ أُبَيٌّ: لَذِكْرٌ، عَلَى تَسْمِيَةِ مَا يُذْكَّرُ بِهِ ذِكْرًا، كَمَا سُمِّيَ مَا يُعْلَمُ بِهِ عِلْمًا.

وَفِي الْحَدِيثِ: "أَنَّ عِيسَى –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ– يَنْزِلُ عَلَى ثَنِيَّةٍ بِالْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ: يُقَالُ لَهَا أَفِيقِ وَعَلَيْهِ مُمَصَّرَتَانِ، وَشَعْرُ رَأْسِهِ دَهِينٌ، وَبِيَدِهِ حَرْبَةٌ، وَبِهَا يُقْتَلُ الدَّجَّالُ، فيأْتِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَالنَّاسُ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَالْإِمَامُ يَؤُمُّ بِهِمْ، فيتَأَخَّرُ الْإِمَامُ، فيقَدِّمُهُ عِيسَى وَيُصَلِّي خَلْفَهُ عَلَى شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–، ثُمَّ يَقْتُلُ الْخَنَازِيرَ وَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيُخَرِّبُ الْبِيَعَ وَالْكَنَائِسَ، وَيَقْتُلُ النَّصَارَى إِلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ".

وَعَنِ الْحَسَنِ: أَنَّ الضَّمِيرَ لِلْقُرْآنِ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ بِهِ تُعْلَمُ السَّاعَةُ، لِأَنَّ فِيهِ الْإِعْلَانَ بِهَا.

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[3] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[4] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

[5] سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

﴿فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾[1] مِنَ الْمِرْيَةِ وَهِيَ الشَّكُّ، ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾[2]: وَاتَّبِعُوا هُدَايَ وَشَرْعِي، أَوْ رَسُولِي. وَقِيلَ: هَذَا أَمْرٌ لِرَسُولِ اللَّهِ أَنْ يَقُولَهُ: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[3]، أَيْ هَذَا الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، أَوْ هَذَا الْقُرْآنُ إِنْ جُعِلَ الضَّمِيرُ فِي ﴿وَإِنَّهُ﴾[4] لِلْقُرْآنِ.

﴿وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[5]

﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[6]: قَدْ بَانَتْ عَدَاوَتُهُ لَكُمْ، إِذْ أَخْرَجَ أَبَاكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَنَزَعَ عَنْهُ لِبَاسَ النُّورِ.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[7]

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾[8]: الْمُعْجِزَاتِ. أَوْ بِآيَاتِ الْإِنْجِيلِ وَالشَّرَائِعِ الْبَيِّنَاتِ الْوَاضِحَاتِ.
﴿بِالْحِكْمَةِ﴾[9]، يَعْنِي الْإِنْجِيلَ وَالشَّرَائِعَ.
فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا بَيَّنَ لَهُمْ كُلَّ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلَكِنَّ بَعْضَهُ؟

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
6 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
7 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
8 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .
9 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

قُلْتُ: كَانُوا يَخْتَلِفُونَ فِي الدِّيَانَاتِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّكْلِيفِ وَفِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِمَّا لَمْ يَتَعَبَّدُوا بِمَعْرِفَتِهِ وَالسُّؤَالُ عَنْهُ، وَإِنَّمَا بُعِثَ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِمَّا يَعْنِيهِمْ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ.

﴿الْأَحْزَابُ﴾[1]: الْفِرَقُ الْمُتَحَزِّبَةُ بَعْدَ عِيسَى، وَقِيلَ: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[2]: وَعِيدٌ لِلْأَحْزَابِ.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾[3] إِلَى مَنْ يَرْجِعُ الضَّمِيرُ فِيهِ؟

قُلْتُ: إِلَى الَّذِينَ خَاطَبَهُمْ عِيسَى فِي قَوْلِهِ: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾[4]، وَهُمْ قَوْمُهُ الْمَبْعُوثُ إِلَيْهِمْ.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[5]

﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾[6] بَدَلٌ مِنَ السَّاعَةِ. وَالْمَعْنَى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا إِتْيَانَ السَّاعَةِ؟

فَإِنْ قُلْتَ: أَمَا أَدَّى قَوْلُهُ: ﴿بَغْتَةً﴾[7] مُؤَدَّى قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[8] فَيَسْتَغْنِيَ عَنْهُ؟

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

6 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

7 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

8 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

قُلْتُ: لَا، لِأَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[1]: وَهُمْ غَافِلُونَ لِاشْتِغَالِهِمْ بِأُمُورِ دُنْيَاهُمْ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾[2]؛ وَيَجُوزُ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ فَطِنُونَ.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾[3] مَنْصُوبٌ بِعَدُوٍّ، أَيْ: تَنْقَطِعُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ كُلُّ خُلَّةٍ بَيْنَ الْمُتَخَالِينَ فِي غَيْرِ ذَاتِ اللَّهِ، وَتَنْقَلِبُ عَدَاوَةً وَمَقْتًا، إِلَّا خُلَّةُ الْمُتَصَادِقِينَ فِي اللَّهِ، فَإِنَّهَا الْخُلَّةُ الْبَاقِيَةُ الْمُزْدَادَةُ قُوَّةً إِذَا رَأَوْا ثَوَابَ التَّحَابِّ فِي اللَّهِ –تَعَالَى– وَالتَّبَاغُضِ فِي اللَّهِ.

وَقِيلَ: ﴿إِلا الْمُتَّقِينَ﴾[4]: إِلَّا الْمُجْتَنِبِينَ أَخِلَّاءَ السُّوءِ. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي أُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةُ ابْنُ أَبِي مُعَيْطٍ.

"يَا عِبَادِي" حِكَايَةً لِمَا يُنَادَى بِهِ الْمُتَّقُونَ الْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ يَوْمَئِذٍ، وَ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾[5] مَنْصُوبُ الْمَحَلِّ صِفَةٌ لِعِبَادِي، لِأَنَّهُ مُنَادَى مُضَافٌ، أَيِ: الَّذِينَ صَدَقُوا ﴿بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾[6] مُخْلِصِينَ وُجُوهَهُمْ لَنَا، جَاعِلِينَ أَنْفُسَهُمْ سَالِمَةً لِطَاعَتِنَا.

وَقِيلَ: إِذَا بَعَثَ اللَّهُ النَّاسَ فَزِعَ كُلُّ أَحَدٍ، فَينَادِي مُنَادٍ، يَا عِبَادِي فيرْجُوهَا النَّاسُ كُلُّهُمْ، ثُمَّ يَتْبَعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا فيَأْسُ النَّاسُ مِنْهَا غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ.

وَقُرِئَ: (يَا عِبَادِ) "تُحْبَرُونَ" تُسَرُّونَ سُرُورًا يَظْهَرُ حَبَارُهُ –أَيْ: أَثَرُهُ– عَلَى وُجُوهِكُمْ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾[7].

وَقَالَ الزَّجَّاجُ: تُكْرَمُونَ إِكْرَامًا يُبَالَغُ فيه.

وَالْحَبَرَةُ: الْمُبَالَغَةُ فيمَا وُصِفَ بِجَمِيلٍ. وَالْكُوبُ: الْكُوزُ لَا عُرْوَةَ لَهُ.

﴿وَفيها﴾[8] الضَّمِيرُ لِلْجَنَّةِ.

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة يس، الآية 49.

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

6 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

7 سورة الْمُطَفِّفِينَ، الآية 24.

8 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

وَقُرِئَ: (تَشْتَهِي) وَ(تَشْتَهِيهِ). وَهَذَا حَصْرٌ لِأَنْوَاعِ النِّعَمِ، لِأَنَّهَا إِمَّا مُشْتَهَاةٌ فِي الْقُلُوبِ، وَإِمَّا مُسْتَلَذَّةٌ فِي الْعُيُونِ.

"وَتِلْكَ" إِشَارَةٌ إِلَى الْجَنَّةِ الْمَذْكُورَةِ. وَهِيَ مُبْتَدَأٌ، وَ"الْجَنَّةُ" خَبَرٌ.

وَ﴿الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾[1] صِفَةُ الْجَنَّةِ، أَوِ الْجَنَّةُ صِفَةٌ لِلْمُبْتَدَأِ الَّذِي هُوَ اسْمُ الْإِشَارَةِ. وَالَّتِي أُورِثْتُمُوهَا: خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ. أَوِ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا: صِفَةٌ، وَ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2] الْخَبَرُ، وَالْبَاءُ تَتَعَلَّقُ بِمَحْذُوفٍ كَمَا فِي الظُّرُوفِ الَّتِي تَقَعُ أَخْبَار.

وَفِي الْوَجْهِ الْأَوَّلِ تَتَعَلَّقُ بأورثتموها. وَشُبِّهَتْ فِي بَقَائِهَا عَلَى أَهْلِهَا بِالْمِيرَاثِ الْبَاقِي عَلَى الْوَرَثَةِ. وَقُرِئَ: (وَرَّثْتُمُوهَا).

﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[3] مِنْ لِلتَّبْعِيضِ، أَيْ: لَا تَأْكُلُونَ إِلَّا بَعْضَهَا، وَأَعْقَابُهَا بَاقِيَةٌ فِي شَجَرِهَا، فَهِيَ مُزَيَّنَةٌ بِالثِّمَارِ أَبَدًا مُوَقَّرَةٌ بِهَا، لَا تَرَى شَجَرَةً عُرْيَانَةً مِنْ ثَمَرِهَا كَمَا فِي الدُّنْيَا.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "لَا يَنْزِعُ رَجُلٌ فِي الْجَنَّةِ مِنْ ثَمَرِهَا إِلَّا نَبَتَ مَكَانَهَا مِثْلَاهَا".

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾[4]

﴿لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾[5]: لَا يُخَفَّفُ وَلَا يَنْقُصُ، مِنْ قَوْلِهِمْ: فَتَرَتْ عَنْهُ الْحُمَّى إِذَا سَكَنَتْ عَنْهُ قَلِيلًا وَنَقَصَ حَرُّهَا.

وَالْمُبْلِسُ: الْيَائِسُ السَّاكِتُ سُكُوتَ يَأْسٍ مِنْ فَرَجٍ.

وَعَنِ الضَّحَّاكِ: يُجْعَلُ الْمُجْرِمُ فِي تَابُوتٍ فِي نَارٍ ثُمَّ يُرْدَمُ عَلَيْهِ، فَيَبْقَى فِيهِ خَالِدًا: لَا يَرَى وَلَا يُرَى.

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

﴿هُمُ﴾[1] فَصْلٌ عِنْدَ الْبَصْرِيِّينَ، عِمَادٌ عِنْدَ الْكُوفِيينَ.

وَقُرِئَ: (وَهُمْ فيها)، أَيْ: في النَّارِ.

وَقَرَأَ عَلِيٌّ وَابْنُ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: (يَا مَالِ) بِحَذْفِ الْكَافِ لِلتَّرْخِيمِ، كَقَوْلِ الْقَائِلِ:

وَالْحَقُّ يَا مَالِ غَيْرُ مَا تَصِـــــــــفُ

وَقِيلَ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ قَرَأَ (وَنَادَوْا يَا مَالِ)، فَقَالَ: مَا أَشْغَلَ أَهْلَ النَّارِ عَنِ التَّرْخِيمِ وَعَنْ بَعْضِهِمْ: حَسَنُ التَّرْخِيمِ أَنَّهُمْ يَقْتَطِعُونَ بَعْضَ الِاسْمِ لِضَعْفِهِمْ وَعِظَمِ مَا هُمْ فيهِ.

وَقَرَأَ أَبُو السِّرَارِ الْغَنَوِيُّ: (يَا مَالُ) بِالرَّفْعِ كَمَا يُقَالُ: يَا حَارُ ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[2] مِنْ قَضَى عَلَيْهِ إِذَا أَمَاتَهُ، ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾[3].

وَالْمَعْنَى: سَلْ رَبَّكَ أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْنَا.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قَالَ: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾[4] بَعْدَ مَا وَصَفَهُمْ بِالْإِبْلَاسِ؟

قُلْتُ: تِلْكَ أَزْمِنَةٌ مُتَطَاوِلَةٌ وَأَحْقَابٌ مُمْتَدَّةٌ، فَتَخْتَلِفُ بِهِمُ الْأَحْوَالُ فيسْكُتُونَ أَوْقَاتًا لِغَلَبَةِ الْيَأْسِ عَلَيْهِمْ، وَعِلْمِهِمْ أَنَّهُ لَا فَرَجَ لَهُمْ، وَيَغُوثُونَ أَوْقَاتًا لِشِدَّةِ مَا بِهِمْ.

﴿مَاكِثُونَ﴾[5]: لَابِثُونَ، وَفيهِ اسْتِهْزَاءٌ. وَالْمُرَادُ: خَالِدُونَ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: إِنَّمَا يُجِيبُهُمْ بَعْدَ أَلْفِ سَنَةٍ. وَعَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "يَلْقَى عَلَى أَهْلِ النَّارِ الْجُوعَ حَتَّى يَعْدِلَ مَا هُمْ فيهِ مِنَ الْعَذَابِ، فيقُولُونَ: ادْعُوَا مَالِكًا، فيدْعُونَ يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ".

﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ﴾[6] كَلَامُ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-: بِدَلِيلِ قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ: (لَقَدْ جِئْتُكُمْ) وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي قَالَ ضَمِيرُ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-. لَمَّا سَأَلُوا مَالِكًا أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ تَعَالَى الْقَضَاءَ عَلَيْهِمْ: أَجَابَهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ.

---

1 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سورة الْقَصَصِ، الآية .

4 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

5 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

6 سورة الزُّخْرُفِ، الآية .

﴿كَارِهُونَ﴾[1] لَا تَقْبَلُونَهُ وَتَنْفِرُونَ مِنْهُ وَتَشْمَئِزُّونَ مِنْهُ، لِأَنَّ مَعَ الْبَاطِلِ الدَّعَةَ، وَمَعَ الْحَقِّ التَّعَبَ.

﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾[2]

﴿أَمْ﴾[3] أَبْرَمَ مُشْرِكُو مَكَّةَ ﴿أَمْرًا﴾[4] مِنْ كَيْدِهِمْ وَمَكْرِهِمْ بِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾[5] كَيْدَنَا كَمَا أَبْرَمُوا كَيْدَهُمْ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾[6]؟ وَكَانُوا يَتَنَادَوْنَ فيتَنَاجَوْنَ في أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْمُرَادُ بِالسِّرِّ وَالنَّجْوَى؟

قُلْتُ: السِّرُّ مَا حَدَّثَ بِهِ الرَّجُلُ نَفْسَهُ أَوْ غَيْرَهُ في مَكَانٍ خَالٍ. وَالنَّجْوَى: مَا تَكَلَّمُوا بِهِ فيمَا بَيْنَهُمْ.

﴿بَلَى﴾[7] نَسْمَعُهُمَا وَنَطَّلِعُ عَلَيْهِمَا.

﴿وَرُسُلُنَا﴾[8] يُرِيدُ الْحَفَظَةَ عِنْدَهُمْ ﴿يَكْتُبُونَ﴾[9] ذَلِكَ.

وَعَنْ يَحْيَى بْنِ مُعَاذٍ الرَّازِيِّ: مَنْ سَتَرَ مِنَ النَّاسِ ذُنُوبَهُ وَأَبْدَاهَا لِلَّذِي لَا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ في السَّمَاوَاتِ فَقَدْ جَعَلَهُ أَهْوَنَ النَّاظِرِينَ إِلَيْهِ، وَهُوَ مِنْ عَلَامَاتِ النِّفَاقِ.

---

1 سُورَةُ الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سُورَةُ الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سُورَةُ الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سُورَةُ الزُّخْرُفِ، الآية .

5 سُورَةُ الزُّخْرُفِ، الآية .

6 سُورَةُ الطُّورِ، الآية 42.

7 سُورَةُ الزُّخْرُفِ، الآية .

8 سُورَةُ الزُّخْرُفِ، الآية .

9 سُورَةُ الزُّخْرُفِ، الآية .

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1]

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾[2]: وَصَحَّ ذَلِكَ وَثَبَتَ بِبُرْهَانٍ صَحِيحٍ تُورِدُونَهُ وَحُجَّةٍ وَاضِحَةٍ تُدْلُونَ بِهَا ﴿فَأَنَا أَوَّلُ﴾[3] مَنْ يَعْظُمُ ذَلِكَ الْوَلَدَ وَأَسْبَقُكُمْ إِلَى طَاعَتِهِ وَالِانْقِيَادِ لَهُ كَمَا يُعَظِّمُ الرَّجُلُ وَلَدَ الْمَلِكِ لِتَعْظِيمِ أَبِيهِ، وَهَذَا كَلَامٌ وَارِدٌ عَلَى سَبِيلِ الْفَرْضِ وَالتَّمْثِيلِ لِغَرَضٍ، وَهُوَ الْمُبَالَغَةُ فِي نَفْيِ الْوَلَدِ وَالْإِطْنَابِ فِيهِ، وَأَنْ لَا يَتْرُكَ النَّاطِقُ بِهِ شُبْهَةً إِلَّا مُضْمَحِلَّةً مَعَ التَّرْجَمَةِ عَنْ نَفْسِهِ بِثَبَاتِ الْقَدَمِ فِي بَابِ التَّوْحِيدِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ عَلَّقَ الْعِبَادَةَ بِكَيْنُونَةِ الْوَلَدِ، وَهِيَ مَحَالٌّ فِي نَفْسِهَا، فَكَانَ الْمُعَلَّقُ بِهَا مُحَالًا مِثْلَهَا، فَهُوَ فِي صُورَةِ إِثْبَاتِ الْكَيْنُونَةِ وَالْعِبَادَةِ، وَفِي مَعْنَى نَفْيِهِمَا عَلَى أَبْلَغِ الْوُجُوهِ وَأَقْوَاهَا.

وَنَظِيرُهُ أَنْ يَقُولَ الْعَدْلِيُّ لِلْمُجْبِرِ، إِنْ كَانَ اللَّهُ –تَعَالَى– خَالِقًا لِلْكُفْرِ فِي الْقُلُوبِ وَمُعَذِّبًا عَلَيْهِ عَذَابًا سَرْمَدًا، فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقُولُ: هُوَ شَيْطَانٌ وَلَيْسَ بِإِلَهٍ، فَمَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ وَمَا وَضَعَ لَهُ أُسْلُوبُهُ وَنَظْمُهُ نَفْيُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى خَالِقًا لِلْكُفْرِ، وَتَنْزِيهُهُ عَنْ ذَلِكَ وَتَقْدِيسُهُ، وَلَكِنْ عَلَى طَرِيقِ الْمُبَالَغَةِ فِيهِ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَا، مَعَ الدَّلَالَةِ عَلَى سَمَاجَةِ الْمَذْهَبِ وَضَلَالَةِ الذَّاهِبِ إِلَيْهِ، وَالشَّهَادَةِ الْقَاطِعَةِ بِإِحَالَتِهِ وَالْإِفْصَاحِ عَنْ نَفْسِهِ بِالْبَرَاءَةِ مِنْهُ، وَغَايَةِ النِّفَارِ وَالِاشْمِئْزَازِ مِنِ ارْتِكَابِهِ.

وَنَحْوُ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ –رَحِمَهُ اللَّهُ– لِلْحَجَّاجِ حِينَ قَالَ لَهُ –: أَمَا وَاللَّهِ لَأُبْدِلَنَّكَ بِالدُّنْيَا نَارًا تَلَظَّى–: لَوْ عَرَفْتَ أَنَّ ذَلِكَ إِلَيْكَ مَا عَبَدْتُ إِلَهًا غَيْرَكَ.

وَقَدْ تَمَحَّلَ النَّاسُ بِمَا أَخْرَجُوهُ بِهِ مِنْ هَذَا الْأُسْلُوبِ الشَّرِيفِ الْمَلِيءِ بِالنُّكَتِ وَالْفَوَائِدِ الْمُسْتَقِلِّ بِإِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ عَلَى أَبْلَغِ وُجُوهِهِ، فَقِيلَ: إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فِي زَعْمِكُمْ، فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ الْمُوَحِّدِينَ لِلَّهِ، الْمُكَذِّبِينَ قَوْلَكُمْ بِإِضَافَةِ الْوَلَدِ إِلَيْهِ. وَقِيلَ: إِنْ كَانَ لَلرَّحْمَن وَلَدٌ فِي زَعْمِكُمْ فَأَنَا أَوَّلُ الْآنِفِينَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ مِنْ عَبْدٍ يُعْبَدُ: إِذَا اشْتَدَّ أَنَفُهُ فَهُوَ عَبْدٌ وَعَابِدٌ.

---

[1] سُورَةُ الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سُورَةُ الزُّخْرُفِ، الآية .

[3] سُورَةُ الزُّخْرُفِ، الآية .

وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: (الْعَبْدَيْنِ) وَقِيلَ: هِيَ إِنِ النَّافِيةُ، أَيْ: مَا كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ، فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ قَالَ بِذَلِكَ وَعَبَدَ وَوَحَّدَ.

وَرُوِيَ: أَنَّ النَّضِرَ بْنَ عَبْدِ الدَّارِ بْنِ قُصَيٍّ قَالَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ فَنَزَلَتْ، فَقَالَ النَّضِرُ: أَلَا تَرَوْنَ أَنَّهُ قَدْ صَدَقَنِي. فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةَ: مَا صَدَقَكَ، وَلَكِنْ قَالَ: مَا كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ، فَأَنَا أَوَّلُ الْمُوَحِّدِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ :أَنْ لَا وَلَدَ لَهُ.

وَقُرِئَ: (وُلْدٌ) بِضَمِّ الْوَاوِ. ثُمَّ نَزَّهَ ذَاتَهُ مَوْصُوفَةً بِرُبُوبِيَّتِهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْعَرْشِ عَنِ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ، لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ مِنْ صِفَةِ الْأَجْسَامِ.

وَلَوْ كَانَ جِسْمًا، لَمْ يَقْدِرْ عَلَى خَلْقِ هَذَا الْعَالَمِ وَتَدْبِيرِ أَمْرِهِ.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾[1]

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا﴾[2] فِي بَاطِلِهِمْ، "وَيَلْعَبُواْ" فِي دُنْيَاهُمْ، ﴿حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ﴾[3].

وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَا يَقُولُونَهُ مِنْ بَابِ الْجَهْلِ وَالْخَوْضِ وَاللَّعِبِ، وَإِعْلَامٍ لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنَّهُمْ مِنَ الْمَطْبُوعِ عَلَى قُلُوبِهِمُ الَّذِينَ لَا يَرْجِعُونَ الْبَتَّةَ، وَإِنْ زُكِّبَ فِي دَعْوَتِهِمْ كُلُّ صَعْبٍ وَذَلُولٍ، وَخُذْلَانٍ لَهُمْ وَتَخْلِيَةٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الشَّيْطَانِ، كَقَوْلِهِ –تَبَارَكَ وَتَعَالَى–: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾[4]، وَإِبْعَادٌ بِالشَّقَاءِ فِي الْعَاقِبَةِ.

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[5]

---

1 سُورَةُ الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سُورَةُ الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سُورَةُ الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سُورَةُ فُصِّلَتْ، الآية 40.

5 سُورَةُ الزُّخْرُفِ، الآية .

ضَمِنَ اسْمُهُ تَعَالَى مَعْنَى وَصْفٍ، فَلِذَلِكَ عَلَّقَ بِهِ الظَّرْفَ في قَوْلِهِ: ﴿فِي السَّمَاءِ وَفِي الأَرْضِ﴾[1]، كَمَا تَقُولُ: هُوَ حَاتِمٌ في طَيِّ، حَاتِمٌ في تَغَلُّبٍ، عَلَى تَضْمِينِ مَعْنَى الْجَوَادِ الَّذِي شَهَّرَ بِهِ، كَأَنَّكَ قُلْتَ: هُوَ جَوَادٌ في طَيِّ جَوَادٍ في تَغَلُّبٍ.

وَقُرِئَ: (وَهُوَ الَّذِي في السَّمَاءِ اللَّهُ وَفى الْأَرْضِ اللَّهُ)، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾[2]، كَأَنَّهُ ضَمِنَ مَعْنَى الْمَعْبُودِ أَوِ الْمَالِكِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ وَالرَّاجِعُ إِلَى الْمَوْصُولِ مَحْذُوفٌ لِطُولِ الْكَلَامِ، كَقَوْلِهِمْ: مَا أَنَا بِالَّذِي قَائِلٌ لَكَ شَيْئًا، وَزَادَهُ طُولًا أَنَّ الْمَعْطُوفَ دَاخِلٌ في حِينِ الصِّلَةِ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ﴿فِي السَّمَاءِ﴾[3] صِلَةُ الَّذِي وَإِلَهٌ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، عَلَى أَنَّ الْجُمْلَةَ بَيَانٌ لِلصِّلَةِ.

وَأَنَّ كَوْنَهُ في السَّمَاءِ عَلَى سَبِيلِ الْإِلَهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ، لَا عَلَى مَعْنَى الِاسْتِقْرَارِ. وَفيهِ نَفى الْآلِهَةِ الَّتِي كَانَتْ تُعْبَدُ في الْأَرْضِ.

﴿تَرْجِعُونَ﴾[4] قُرِئَ بِضَمِّ التَّاءِ وَفَتْحِهَا.

وَ(يَرْجِعُونَ) بِيَاءٍ مَضْمُومَةٍ.

وَقُرِئَ: (تُحْشَرُونَ) بِالتَّاءِ.

﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[5]

وَلَا يَمْلِكُ آلِهَتُهُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مَنْ دُونِ اللَّهِ الشَّفَاعَةَ، كَمَا زَعَمُوا أَنَّهُمْ شُفَعَاؤُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَكِنَّ مَنْ ﴿شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾[6]، وَهُوَ تَوْحِيدُ اللَّهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا يَشْهَدُ بِهِ عَنْ بَصِيرَةٍ

---

1 سُورَةُ الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سُورَةُ الْأَنْعَامِ، الآية 33.

3 سُورَةُ الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سُورَةُ الزُّخْرُفِ، الآية .

5 سُورَةُ الزُّخْرُفِ، الآية .

6 سُورَةُ الزُّخْرُفِ، الآية .

وَإِيقَانٍ وَإِخْلَاصٍ: هُوَ الَّذِي يَمْلِكُ الشَّفَاعَةَ، وَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُتَّصِلًا، لِأَنَّ فِي جُمْلَةِ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ: الْمَلَائِكَةُ،

وَقُرِئَ: (تَدْعُونَ) بِالتَّاءِ وَتَدَّعُونَ بِالتَّاءِ وَتَشْدِيدِ الدَّالِ.

﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[1]

﴿وَقِيلِهِ﴾[2] قُرِئَ بِالْحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ، وَذُكِرَ فِي النَّصْبِ عَنِ الْأَخْفَشِ أَنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى: أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَقِيلِهِ، وَعَنْهُ: وَقَالَ قِيلِهِ.

وَعَطَفَ الزَّجَّاجُ عَلَى مَحَلِّ السَّاعَةِ، كَمَا تَقُولُ: عَجِبْتُ مِنْ ضَرْبِ زَيْدٍ وَعَمْرًا، وَحُمِلَ الْجَرُّ عَلَى لَفْظِ السَّاعَةِ، وَالرَّفْعُ عَلَى الِابْتِدَاءِ، وَالْخَبَرُ مَا بَعْدَهُ: وَجَوَّزَ عَطْفَهُ عَلَى عِلْمِ السَّاعَةِ عَلَى تَقْدِيرِ حَذْفِ الْمُضَافِ.

مَعْنَاهُ: عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَعِلْمُ قِيلِهِ.

وَالَّذِي قَالُوهُ لَيْسَ بِقَوِيٍّ فِي الْمَعْنَى مَعَ وُقُوعِ الْفَصْلِ بَيْنَ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ بِمَا لَا يَحْسُنُ اعْتِرَاضًا، وَمَعَ تَنَافُرِ النَّظْمِ.

وَأَقْوَى مِنْ ذَلِكَ وَأَوْجَهُ: أَنْ يَكُونَ الْجَرُّ وَالنَّصْبُ عَلَى إِضْمَارِ حَرْفِ الْقَسَمِ وَحَذْفِهِ، وَالرَّفْعُ عَلَى قَوْلِهِمْ: أَيْمَنُ اللَّهِ، وَأَمَانَةُ اللَّهِ، وَيَمِينُ اللَّهِ، وَلَعَمْرُكَ.

وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ﴾[3] جَوَابَ الْقَسَمِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَأَقْسَمَ بِقِيلِهِ يَا رَبِّ، أَوْ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ قَسَمِي إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ.

﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾[4]: فَأَعْرِضْ عَنْ دَعْوَتِهِمْ يَائِسًا عَنْ إِيمَانِهِمْ، وَوَدِّعْهُمْ وَتَارِكْهُمْ.

﴿وَقُلْ﴾[5] لَهُمْ ﴿سَلَامٌ﴾[6]، أَيْ تَسَلُّمٌ مِنْكُمْ وَمُتَارَكَةٌ.

---

1 سُورَةُ الزُّخْرُفِ، الآية .

2 سُورَةُ الزُّخْرُفِ، الآية .

3 سُورَةُ الزُّخْرُفِ، الآية .

4 سُورَةُ الزُّخْرُفِ، الآية .

5 سُورَةُ الزُّخْرُفِ، الآية .

6 سُورَةُ الزُّخْرُفِ، الآية .

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[1] وَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ وَتَسْلِيَةٌ لِرَسُولِهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

وَالضَّمِيرُ فِي ﴿وَقِيلِهِ﴾[2] لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِقْسَامُ اللَّهِ بِقِيلِهِ رَفْعٌ مِنْهُ وَتَعْظِيمٌ لِدُعَائِهِ وَالْتِجَائِهِ إِلَيْهِ .

عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الزُّخْرُفِ كَانَ مِمَّنْ يُقَالُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا عِبَادِي لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ".

---

[1] سُورَةُ الزُّخْرُفِ، الآية .

[2] سُورَةُ الزُّخْرُفِ، الآية .

سُورَةُ الدُّخَانِ

سورة الدخان

مَكِّيَّةٌ، إِلَّا قَوْلَهُ: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلا﴾[1] الْآيَةُ
وَهِيَ سَبْعٌ وَخَمْسُونَ آيَةً، وَقِيلَ تِسْعٌ وَخَمْسُونَ
[نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الزُّخْرُفِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾[2]

الْوَاوُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالْكِتَابِ﴾[3] وَاوُ الْقَسَمِ، إِنْ جُعِلَتْ حم تَعْدِيدًا لِلْحُرُوفِ أَوِ اسْمًا لِلسُّورَةِ، مَرْفُوعًا عَلَى خَبَرِ الِابْتِدَاءِ الْمَحْذُوفِ، وَوَاوُ الْعَطْفِ إِنْ كَانَتْ حم مُقْسَمًا بِهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾[4] جَوَابُ الْقَسَمِ، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ لِلْقُرْآنِ.

وَاللَّيْلَةُ الْمُبَارَكَةُ: لَيْلَةُ الْقَدْرِ. وَقِيلَ: لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ.

وَلَهَا أَرْبَعَةُ أَسْمَاءٍ: اللَّيْلَةُ الْمُبَارَكَةُ، وَلَيْلَةُ الْبَرَاءَةِ، وَلَيْلَةُ الصَّكِّ، وَلَيْلَةُ الرَّحْمَةِ،

---

1 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .
2 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .
3 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .
4 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

وَقِيلَ: بَيْنَهَا وَبَيْنَ لَيْلَةِ الْقَدْرِ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً.

وَقِيلَ فِي تَسْمِيَتِهَا: لَيْلَةَ الْبَرَاءَةِ وَالصَّكِّ: أَنَّ الْبُنْدَارَ إِذَا اسْتَوْفَى الْخَرَاجَ مِنْ أَهْلِهِ كَتَبَ لَهُمُ الْبَرَاءَةَ، كَذَلِكَ اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ– يَكْتُبُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْبَرَاءَةَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ.

وَقِيلَ: هِيَ مُخْتَصَّةٌ بِخَمْسِ خِصَالٍ: تَفْرِيقُ كُلِّ أَمْرٍ حَكِيمٍ وَفَضِيلَةِ الْعِبَادَةِ فيها.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ صَلَّى فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ مِائَةَ رَكْعَةٍ أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ مِائَةَ مَلَكٍ: ثَلَاثُونَ يُبَشِّرُونَهُ بِالْجَنَّةِ، وَثَلَاثُونَ يُؤَمِّنُونَهُ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَثَلَاثُونَ يَدْفَعُونَ عَنْهُ آفَاتِ الدُّنْيَا، وَعَشْرَةٌ يَدْفَعُونَ عَنْهُ مَكَايِدَ الشَّيْطَانِ".

وَنُزُولُ الرَّحْمَةِ قَالَ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: "إِنَّ اللَّهَ يَرْحَمُ أُمَّتِي فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ بِعَدَدِ شَعْرِ أَغْنَامِ بَنِي كَلْبٍ "وَحُصُولُ الْمَغْفِرَةِ: قَالَ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: "إِنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– يَغْفِرُ لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ إِلَّا لِكَاهِنٍ أَوْ سَاحِرٍ أَوْ مُشَاحِنٍ أَوْ مُدْمِنِ خَمْرًا أَوْ عَاقٍّ لِلْوَالِدَيْنِ، أَوْ مُصِرٍّ عَلَى الزِّنَا "وَمَا أَعْطَى فيها رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مِنْ تَمَامِ الشَّفَاعَةِ.

وَذَلِكَ أَنَّهُ سَأَلَ لَيْلَةَ الثَّالِثَ عَشَرَ مِنْ شَعْبَانَ فِي أُمَّتِهِ. فَأُعْطِيَ الثُّلُثَ مِنْهَا؛ ثُمَّ سَأَلَ لَيْلَةَ الرَّابِعَ عَشَرَ، فَأُعْطِي الثُّلُثَيْنِ؛ ثُمَّ سَأَلَ لَيْلَةَ الْخَامِسَ عَشَرَ، فَأُعْطِي الْجَمِيعَ، إِلَّا مَنْ شَرَدَ عَنِ اللَّهِ شِرَادَ الْبَعِيرِ.

وَمِنْ عَادَةِ اللَّهِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ: أَنْ يَزِيدَ فيها مَاءُ زَمْزَمَ زِيَادَةً ظَاهِرَةً.

وَالْقَوْلُ الْأَكْثَرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِاللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ: لَيْلَةُ الْقَدْرِ، لِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[1]، وَلِمُطَابَقَةِ قَوْلِهِ: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[2] لِقَوْلِهِ: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾[3].

وَقَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[4]، وَلَيْلَةُ الْقَدْرِ فِي أَكْثَرِ الْأَقَاوِيلِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى إِنْزَالِ الْقُرْآنِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ؟

---

[1] سُورَةُ الْقَدْرِ، الآية 1.

[2] سُورَةُ الْقَدْرِ، الآية 1.

[3] سُورَةُ الْقَدْرِ، الآية 4.

[4] سُورَةُ الْبَقَرَةِ، الآية 185.

قُلْتُ: قَالُوا أَنْزَلَ جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَأَمَرَ السَّفْرَةَ الْكِرَامَ بِانْتِسَاخِهِ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَكَانَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُنْزِلُهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– نُجُومًا نُجُومًا.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[1] مَا مَوْقِعُ هَاتَيْنِ الْجُمْلَتَيْنِ؟

قُلْتُ: هُمَا جُمْلَتَانِ مُسْتَأْنَفَتَانِ مَلْفُوفَتَانِ فُسِّرَ بِهِمَا جَوَابُ الْقَسَمِ الَّذِي هُوَ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[2]، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَنْزَلْنَا، لِأَنَّ مِنْ شَأْنِنَا الْإِنْذَارَ وَالتَّحْذِيرَ مِنَ الْعِقَابِ.

وَكَانَ إِنْزَالُنَا، أَيْ: أَنَّهُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ خُصُوصًا، لِأَنَّ إِنْزَالَ الْقُرْآنِ مِنَ الْأُمُورِ الْحَكِيمَةِ، وَهَذِهِ اللَّيْلَةُ مَفْرِقُ كُلِّ أَمْرٍ حَكِيمٍ.

وَالْمُبَارَكَةُ: الْكَثِيرُ الْخَيْرِ لِمَا يُتِيحُ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَتَعَلَّقُ بِهَا مَنَافِعُ الْعِبَادِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَلَوْ لَمْ يُوجَدْ فِيهَا إِلَّا إِنْزَالُ الْقُرْآنِ وَحْدَهُ لَكَفَى بِهِ بِرْكَةً.

وَمَعْنَى ﴿يُفْرَقُ﴾[3]: يُفَصِّلُ وَيَكْتُبُ كُلَّ أَمْرٍ حَكِيمٍ مِنْ أَرْزَاقِ الْعِبَادِ وَآجَالِهِمْ، وَجَمِيعِ أُمُورِهِمْ مِنْهَا إِلَى الْأُخْرَى الْقَابِلَةِ.

وَقِيلَ: يَبْدَأُ فِي اسْتِنْسَاخِ ذَلِكَ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ فِي لَيْلَةِ الْبَرَاءَةِ، وَيَقَعُ الْفَرَاغُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَتُدْفَعُ نُسْخَةُ الْأَرْزَاقِ إِلَى مِيكَائِيلَ، وَنُسْخَةُ الْحُرُوبِ إِلَى جِبْرِيلَ، وَكَذَلِكَ الزَّلَازِلُ وَالصَّوَاعِقُ وَالْخَسْفُ، وَنُسْخَةُ الْأَعْمَالِ إِلَى إِسْمَاعِيلَ صَاحِبِ سَمَاءِ الدُّنْيَا، وَهُوَ مَلِكٌ عَظِيمٌ، وَنُسْخَةُ الْمَصَائِبِ إِلَى مَلَكِ الْمَوْتِ.

وَعَنْ بَعْضِهِمْ: يُعْطَى كُلُّ عَامِلٍ بَرَكَاتِ أَعْمَالِهِ، فيلْقَى عَلَى أَلْسِنَةِ الْخَلْقِ مَدْحُهُ، وَعَلَى قُلُوبِهِمْ هَيْبَتُهُ.

وَقُرِئَ: (يُفَرَّقُ) بِالتَّشْدِيدِ.

وَ﴿يُفْرَقُ﴾[4] كُلٌّ عَلَى بِنَائِهِ لِلْفَاعِلِ وَنُصِبَ كُلَّ.

وَالْفَارِقُ: اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ–.

وَقَرَأَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: (نُفَرِّقُ) بِالنُّونِ.

---

1 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

2 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية 3.

3 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

4 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

كُلَّ أَمْرٍ حَكِيمٍ: كُلُّ شَأْنٍ ذِي حِكْمَةٍ، أَيْ: مَفْعُولٌ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ، وَهُوَ مِنَ الْإِسْنَادِ الْمُجَازِيِّ، لِأَنَّ الْحَكِيمَ صِفَةُ صَاحِبِ الْأَمْرِ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَوَصْفُ الْأَمْرِ بِهِ مَجَازٌ ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾[1] نُصِبَ عَلَى الِاخْتِصَاصِ. جُعِلَ كُلُّ أَمْرٍ جَزْلًا فَخْمًا بِأَنَّ وَصْفَهُ بِالْحَكِيمِ، ثُمَّ زَادَهُ جَزَالَةً وَكَسَبَهُ فَخَامَةً بِأَنْ قَالَ: أَعْنِي بِهَذَا الْأَمْرِ أَمْرًا حَاصِلًا مِنْ عِنْدِنَا، كَائِنًا مِنْ لَدُنَّا، وَكَمَا اقْتَضَاهُ عِلْمُنَا وَتَدْبِيرُنَا.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْأَمْرُ الَّذِي هُوَ ضِدُّ النَّهْيِ، ثُمَّ إِمَّا أَنْ يُوضَعَ مَوْضِعَ فُرْقَانًا الَّذِي هُوَ مَصْدَرٌ يُفَرَّقُ، لِأَنَّ مَعْنَى الْأَمْرِ وَالْفُرْقَانِ وَاحِدٌ، مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ إِذَا حَكَمَ بِالشَّيْءِ وَكَتَبَهُ، فَقَدْ أَمَرَ بِهِ وَأَوْجَبَهُ، أَوْ يَكُونُ حَالًا مِنْ أَحَدِ الضَّمِيرَيْنِ فِي أَنْزَلْنَاهُ: إِمَّا مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ، أَيْ: أَنْزَلْنَاهُ آمِرِينَ أَمْرًا. أَوْ مِنْ ضَمِيرِ الْمَفْعُولِ، أَيْ: أَنْزَلْنَاهُ فِي حَالِ كَوْنِهِ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا بِمَا يَجِبُ أَنْ يَفْعَلَ.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾[2] بِمَ يَتَعَلَّقُ؟

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾[3] وَ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾[4] مَفْعُولًا لَهُ، عَلَى مَعْنَى: إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ، لِأَنَّ مِنْ شَأْنِنَا إِرْسَالَ الرُّسُلِ بِالْكُتُبِ إِلَى عِبَادِنَا لِأَجْلِ الرَّحْمَةِ عَلَيْهِمْ، وَأَنْ يَكُونَ تَعْلِيلًا لِيُفَرَّقَ، أَوْ لِقَوْلِهِ: ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾[5]، وَرَحْمَةً: مَفْعُولًا بِهِ.

وَقَدْ وَصَفَ الرَّحْمَةَ بِالْإِرْسَالِ، كَمَا وَصَفَهَا بِهِ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾[6]، أَيْ يَفْصِلُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ كُلَّ أَمْرٍ، أَوْ تَصْدُرُ الْأَوَامِرُ مِنْ عِنْدِنَا، لِأَنَّ مِنْ عَادَتِنَا أَنْ نُرْسِلَ رَحْمَتَنَا.

وَفَصْلُ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ قِسْمَةِ الْأَرْزَاقِ وَغَيْرِهَا مِنْ بَابِ الرَّحْمَةِ، وَكَذَلِكَ الْأَوَامِرُ الصَّادِرَةُ مِنْ جِهَتِهِ –عَزَّ وَعُلَا–، لِأَنَّ الْغَرَضَ فِي تَكْلِيفِ الْعِبَادِ تَعْرِيضُهُمْ لِلْمَنَافِعِ.

---

1 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

2 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

3 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

4 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

5 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

6 سُورَةُ فَاطِرٍ، الآية 22.

وَالْأَصْلُ: إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِيهِمْ رَحْمَةً مِنَّا، فَوُضِعَ الظَّاهِرُ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ إِيذَانًا بِأَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ تَقْتَضِي الرَّحْمَةَ عَلَى الْمَرْبُوبِينَ.

وَفِي قِرَاءَةِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ: (أَمْرٌ مِنْ عِنْدِنَا) عَلَى: هُوَ أَمْرٌ وَهِيَ تَنْصُرُ انْتِصَابَهُ عَلَى الِاخْتِصَاصِ.

وَقَرَأَ الْحَسَنُ: (رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّكَ)، عَلَى: تِلْكَ رَحْمَةٌ، وَهِيَ تَنْصُرُ انْتِصَابَهَا بِأَنَّهَا مَفْعُولٌ لَهُ.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1] وَمَا بَعْدَهُ تَحْقِيقٌ لِرُبُوبِيَّتِهِ، وَأَنَّهَا لَا تَحِقُّ إِلَّا لِمَنْ هَذِهِ أَوْصَافُهُ. وَقُرِئَ: (رَبُّ السَّمَاوَاتِ. .. رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ) بِالْجَرِّ بَدَلًا مِنْ رَبِّكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى الشَّرْطِ الَّذِي هُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾[2]؟

قُلْتُ: كَانُوا يُقِرُّونَ بِأَنَّ لِلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبًّا وَخَالِقًا، فَقِيلَ لَهُمْ: إِنَّ إِرْسَالَ الرُّسُلِ وَإِنْزَالَ الْكُتُبِ رَحْمَةٌ مِنَ الرَّبِّ.

ثُمَّ قِيلَ: إِنَّ هَذَا الرَّبَّ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ الَّذِي أَنْتُمْ مُقِرُّونَ بِهِ وَمُعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كَانَ إِقْرَارُكُمْ عَنْ عِلْمٍ وَإِيقَانٍ، كَمَا تَقُولُ: إِنَّ هَذَا إِنْعَامُ زَيْدٍ الَّذِي تَسَامَعَ النَّاسُ بِكَرَمِهِ وَاشْتُهِرَ إِسْخَاؤُهُ، إِنْ بَلَغَكَ حَدِيثُهُ وَحُدِّثْتَ بِقِصَّتِهِ.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾[3]

ثُمَّ رَدَّ أَنْ يَكُونُوا مُوقِنِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾[4]، وَأَنَّ إِقْرَارَهُمْ غَيْرُ صَادِرٍ عَنْ عِلْمٍ وَتَيَقُّنٍ، وَلَا عَنْ جِدٍّ وَحَقِيقَةٍ: بَلْ قَوْلُ مَخْلُوطٍ بِهُزْءٍ وَلَعِبٍ.

﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ﴾[5] مَفْعُولٌ بِهِ مُرْتَقَبٌ. يُقَالُ: رَقَبْتُهُ وَارْتَقَبْتُهُ. نَحْوُ: نَظَرْتُهُ وَانْتَظَرْتُهُ.

---

[1] سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

[2] سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

[3] سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

[4] سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

[5] سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

وَاخْتُلِفَ فِي الدُّخَانِ، فَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–، وَبِهِ أَخَذَ الْحَسَنُ: أَنَّهُ دُخَانٌ يَأْتِي مِنَ السَّمَاءِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَدْخُلُ فِي أَسْمَاعِ الْكَفَرَةِ، حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ كَالرَّأْسِ الْحَنِيذِ، وَيَعْتَرِي الْمُؤْمِنَ مِنْهُ كَهَيْئَةِ الزُّكَامِ، وَتَكُونُ الْأَرْضُ كُلُّهَا كَبَيْتٍ أُوقِدَ فِيهِ لَيْسَ فِيهِ خَصَاصٌ،

وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: أَوَّلُ الْآيَاتِ: الدُّخَانُ، وَالدَّجَّالُ، وَنُزُولُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنٍ أَبْيَنَ تَسُوقُ النَّاسَ إِلَى الْمَحْشَرِ" قَالَ حُذَيْفَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الدُّخَانُ؟ فَتَلَا رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– الْآيَةَ، وَقَالَ: "يَمْلَأُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ يَمْكُثُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً، أَمَّا الْمُؤْمِنُ فيصِيبُهُ كَهَيْئَةِ الزُّكْمَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ، فَهُوَ كَالسَّكْرَانِ يَخْرُجُ مِنْ مِنْخَرَيْهِ وَأُذُنَيْهِ وَدُبُرِهِ".

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: خَمْسٌ قَدْ مَضَتِ :الرُّومُ، وَالدُّخَانُ، وَالْقَمَرُ، وَالْبَطْشَةُ، وَاللِّزَامُ.

وَيُرْوَى أَنَّهُ قِيلَ لِابْنِ مَسْعُودٍ: إِنَّ قَاصًّا عِنْدَ أَبْوَابِ كِنْدَةَ يَقُولُ: إِنَّهُ دُخَانٌ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فيأْخُذُ بِأَنْفَاسِ الْخَلْقِ، فَقَالَ: مَنْ عَلِمَ عِلْمًا فَلْيَقُلْ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلِ: اللَّهُ أَعْلَمُ، فَإِنَّ مِنْ عِلْمِ الرَّجُلِ أَنْ يَقُولَ لِشَيْءٍ لَا يَعْلَمُهُ: اللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَالَ: أَلَا وَسَأُحَدِّثُكُمْ أَنَّ قُرَيْشًا لَمَّا اسْتَعْصَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– دَعَا عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: "اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرٍ، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ "فَأَصَابَهُمُ الْجَهْدُ، حَتَّى أَكَلُوا الْجِيَفَ وَالْعِلْهَزَ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَرَى بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ الدُّخَانَ، وَكَانَ يُحَدِّثُ الرَّجُلَ فيسْمَعُ كَلَامَهُ وَلَا يَرَاهُ مِنَ الدُّخَانِ؛ فَمَشَى إِلَيْهِ أَبُو سُفيانَ وَنَفَرَ مَعَهُ وَنَاشَدُوهُ اللَّهَ وَالرَّحِمَ، وَوَاعَدُوهُ إِنْ دَعَا لَهُمْ وَكَشَفَ عَنْهُمْ، أَنْ يُؤْمِنُوا. فَلَمَّا كَشَفَ عَنْهُمْ، رَجَعُوا إِلَى شِرْكِهِمْ.

﴿بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾[1] ظَاهِرُ حَالِهِ لَا يَشُكُّ أَحَدٌ فِي أَنَّهُ دُخَانٌ ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾[2] يَشْمَلُهُمْ وَيُلْبِسُهُمْ، وَهُوَ فِي مَحَلِّ الْجَرِّ صِفَةٌ لِدُخَانٍ.

---

[1] سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية.

[2] سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية.

وَ﴿هَذَا عَذَابٌ﴾[1] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مُؤْمِنُونَ﴾[2] مَنْصُوبُ الْمَحَلِّ بِفِعْلٍ مُضْمَرٍ، وَهُوَ: يَقُولُونَ، وَيَقُولُونَ: مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ، أَيْ: قَائِلِينَ ذَلِكَ.

﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾[3]: مَوْعِدَةً بِالْإِيمَانِ إِنْ كَشَفَ عَنْهُمُ الْعَذَابَ.

﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾[4]

﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى﴾[5]: كَيْفَ يُذَكَّرُونَ وَيَتَّعِظُونَ وَيَفُونَ بِمَا وَعَدُوهُ مِنَ الْإِيمَانِ عِنْدَ كَشْفِ الْعَذَابِ ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ﴾[6] مَا هُوَ أَعْظَمُ وَأَدْخَلُ فِي وُجُوبِ الِادِّكَارِ مِنْ كَشْفِ الدُّخَانِ، وَهُوَ مَا ظَهَرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ مِنَ الْكِتَابِ الْمُعْجِزِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ، فَلَكَمْ يُذَكَّرُوا وَتَوَلَّوْا عَنْهُ، وَبَهَتُوهُ بِأَنْ عَدَّاسًا غُلَامًا أَعْجَمِيًّا لِبَعْضِ ثَقِيفٍ هُوَ الَّذِي عَلَّمَهُ، وَنَسَبُوهُ إِلَى الْجُنُونِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾[7]، أَيْ رَيْثَمَا نَكْشِفُ عَنْكُمُ الْعَذَابَ تَعُودُونَ إِلَى شِرْكِكُمْ لَا تَلْبَثُونَ غَبَّ الْكَشْفِ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّضَرُّعِ وَالِابْتِهَالِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَسْتَقِيمُ عَلَى قَوْلِ مَنْ جَعَلَ الدُّخَانَ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلا﴾[8].

---

1 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية.
2 سُورَةُ الدُّخَانِ ، الآية.
3 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .
4 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .
5 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .
6 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .
7 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .
8 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

قُلْتُ: إِذَا أَتَتِ السَّمَاءُ بِالدُّخَانِ تَصَوَّرَ الْمُعَذَّبِينَ بِهِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ. وَغَوَّثُوا وَقَالُوا: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾[1] مُنِيبُونَ، فيكْشِفُهُ اللَّهُ عَنْهُمْ بَعْدَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَرَيْثَمَا يَكْشِفُهُ عَنْهُمْ يَرْتَدُّونَ لَا يَتَمَهَّلُونَ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾[2] يُرِيدُ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾[3].

﴿إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾[4]، أَيْ نَنْتَقِمُ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ انْتَصَبَ يَوْمَ نَبْطِشُ؟

قُلْتُ: بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ ﴿إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾[5]، وَهُوَ نَنْتَقِمُ.

وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَنْتَصِبَ بِمُنْتَقِمُونَ، لِأَنَّ "إِنَّ" تَحْجُبُ عَنْ ذَلِكَ. وَقُرِئَ: (نَبْطُشُ) بِضَمِّ الطَّاءِ.

وَقَرَأَ الْحَسَنُ: (نُبْطِشُ) بِضَمِّ النُّونِ، كَأَنَّهُ يَحْمِلُ الْمَلَائِكَةَ عَلَى أَنْ يَبْطِشُوا بِهِمُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى، أَوْ يَجْعَلَ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى بَاطِشَةً بِهِمْ.

وَقِيلَ: ﴿الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾[6]: يَوْمَ بَدْرٍ.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾[7]

وَقُرِئَ: (وَلَقَدْ فَتَنَّا) بِالتَّشْدِيدِ لِلتَّأْكِيدِ، أَوْ لِوُقُوعِهِ عَلَى الْقَوْمِ. وَمَعْنَى الْفِتْنَةِ: أَنَّهُ أَمْهَلَهُمْ وَوَسَّعَ عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي ارْتِكَابِهِمُ الْمَعَاصِي وَاقْتِرَافِهِمُ الْآثَامَ،

---

1 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

2 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

3 سُورَةُ النَّازِعَاتِ، الآية 34.

4 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

5 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

6 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

7 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

أَوِ ابْتَلَاهُمْ بِإِرْسَالِ مُوسَى إِلَيْهِمْ لِيُؤْمِنُوا، فَاخْتَارُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ، أَوْ سَلَبَهُمْ مُلْكَهُمْ وَأَغْرَقَهُمْ.

﴿كَرِيمٌ﴾[1] عَلَى اللَّهِ وَعَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ كَرِيمٌ فِي نَفْسِهِ، لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا مِنْ سَرَاةِ قَوْمِهِ وَكِرَامِهِمْ.

﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ﴾[2] هِيَ أَنِ الْمُفَسِّرَةُ، لِأَنَّ مَجِيءَ الرَّسُولِ مَنْ بَعَثَ إِلَيْهِمْ مُتَضَمِّنٌ لِمَعْنَى الْقَوْلِ، لِأَنَّهُ لَا يَجِيئُهُمْ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ، أَوِ الْمُخَفَّفَةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَمَعْنَاهُ: وَجَاءَهُمْ بِأَنَّ الشَّأْنَ وَالْحَدِيثَ أَدُّوا إِلَيَّ.

وَ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾[3] مَفْعُولٌ بِهِ وَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ، يَقُولُ: أَدُّوهُمْ إِلَيَّ وَأَرْسِلُوهُمْ مَعِي، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ﴾[4]، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نِدَاءً لَهُمْ عَلَى: أَدُّوا إِلَيَّ يَا عِبَادَ اللَّهِ مَا هُوَ وَاجِبٌ لِي عَلَيْكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ لِي وَقَبُولِ دَعْوَتِي وَاتِّبَاعِ سَبِيلِي، وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[5] غَيْرُ ظَنِينٍ قَدِ ائْتَمَنَهُ اللَّهُ عَلَى وَحْيِهِ وَرِسَالَتِهِ.

﴿وَأَنْ لا تَعْلُوا﴾[6] أَنَّ هَذِهِ مِثْلُ الْأُولَى فِي وَجْهَيْهَا، أَيْ: لَا تَسْتَكْبِرُوا ﴿عَلَى اللَّهِ﴾[7] بِالِاسْتِهَانَةِ بِرَسُولِهِ وَوَحْيِهِ، أَوْ لَا تَسْتَكْبِرُوا عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ.

﴿بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾[8] بِحُجَّةٍ وَاضِحَةٍ.

﴿أَنْ تَرْجُمُونِ﴾[9]: أَنْ تَقْتُلُونِ. وَقُرِئَ: (عَتَّ) بِالْإِدْغَامِ. وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ عَائِذٌ بِرَبِّهِ مُتَّكِلٌ عَلَى أَنَّهُ يَعْصِمُهُ مِنْهُمْ وَمِنْ كَيْدِهِمْ، فَهُوَ غَيْرُ مُبَالٍ بِمَا كَانُوا يَتَوَعَّدُونَهُ بِهِ مِنَ الرَّجْمِ وَالْقَتْلِ.

"فَاعْتَزِلُونِ" يُرِيدُ: إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَلَا مُوَالَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ مَنْ لَا يُؤْمِنُ، فَتَنَحَّوْا عَنِّي وَاقْطَعُوا أَسْبَابَ الْوَصْلَةِ عَنِّي، أَيْ: فَخَلُّونِي كَفَافًا لَا لِيَ وَلَا عَلَيَّ، وَلَا تَتَعَرَّضُوا لِي بِشَرِّكُمْ وَأَذَاكُمْ، فَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ دَعَاكُمْ إِلَى مَا فِيهِ فَلَا حُكْمَ ذَلِكَ.

---

1 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

2 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

3 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

4 سُورَةُ طَهَ، الآية 47.

5 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

6 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

7 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

8 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

9 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾[1]

"إِنَّ هَؤُلاءِ" بِأَنَّ هَؤُلَاءِ، أَيْ: دَعَا رَبَّهُ بِذَلِكَ. قِيلَ: كَانَ دُعَاؤُهُ: اللَّهُمَّ عَجِّلْ لَهُمْ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ بِإِجْرَامِهِمْ: وَقِيلَ هُوَ قَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2].

وَإِنَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ –تَعَالَى– السَّبَبَ الَّذِي اسْتَوْجَبُوا بِهِ الْهَلَاكَ، وَهُوَ كَوْنُهُمْ مُجْرِمِينَ.

وَقُرِئَ: (إِنَّ هَؤُلَاءِ) بِالْكَسْرِ عَلَى إِضْمَارِ الْقَوْلِ، أَيْ: فَدَعَا رَبَّهُ، فَقَالَ: إِنَّ هَؤُلَاءِ.

﴿فَأَسْرِ﴾[3]، قُرِئَ بِقَطْعِ الْهَمْزَةِ مِنْ أُسْرِيَ، وَوَصْلِهَا مَنْ سَرَى.

وَفِيهِ وَجْهَانِ: إِضْمَارُ الْقَوْلِ بَعْدَ الْفَاءِ، فَقَالَ: أَسْرِ بِعِبَادِي. وَأَنْ يَكُونَ جَوَابَ شَرْطٍ مَحْذُوفٍ، كَأَنَّهُ قِيلَ: قَالَ إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُ: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي﴾[4]، يَعْنِي: فَأَسْرِ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَدْ دَبَّرَ اللَّهُ أَنْ تَتَقَدَّمُوا وَيَتْبَعُكُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، فَيَنْجِي الْمُتَقَدِّمِينَ وَيُغْرِقُ التَّابِعِينَ.

الرَّهْوُ فِيهِ وَجْهَانِ:

– أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ السَّاكِنُ.

قَالَ الْأَعْشَى:

يَمْشِينَ رَهْوًا فَلَا الْأَعْجَازُ خَاذِلَةً وَلَا الصُّدُورُ عَلَى الْأَعْجَازِ تَتَّكِلُ

أَيْ: مَشْيًا سَاكِنًا عَلَى هَيِّنَةٍ.

أَرَادَ مُوسَى لَمَّا جَاوَزَ الْبَحْرَ أَنْ يَضْرِبَهُ بِعَصَاهُ فَيَنْطَبِقُ، كَمَا ضَرَبَهُ فَانْفَلَقَ، فَأَمَرَ بِأَنْ يَتْرُكَهُ سَاكِنًا عَلَى هَيْئَتِهِ، قَارًّا عَلَى حَالِهِ: مِنَ انْتِصَابِ الْمَاءِ، وَكَوْنُ الطَّرِيقِ يَبَسًا لَا يَضْرِبُهُ بِعَصَاهُ وَلَا يُغَيِّرُ مِنْهُ شَيْئًا لِيَدْخُلَهُ الْقِبْطُ، فَإِذَا حَصَلُوا فِيهِ أَطْبَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.

– وَالثَّانِي: أَنَّ الرَّهْوَ الْفَجْوَةُ الْوَاسِعَةُ.

---

[1] سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

[2] سُورَةُ يُونُس، الآية 85.

[3] سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

[4] سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

وَعَنْ بَعْضِ الْعَرَبِ: أَنَّهُ رَأَى جَمَلًا فَالِجًا، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، رَهْوٌ بَيْنَ سَنَامَيْنِ، أَيِ: اتْرُكْهُ مَفْتُوحًا عَلَى حَالِهِ مُنْفَرِجًا.

﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾[1] وَقُرِئَ بِالْفَتْحِ، بِمَعْنَى: لِأَنَّهُمْ.

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾[2]

وَ"الْمَقَام الْكَرِيم": مَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الْمَجَالِسِ وَالْمَنَازِلِ الْحَسَنَةِ.

وَقِيلَ: الْمَنَابِرُ.

وَالنِّعْمَةُ بِالْفَتْحِ– مِنَ التَّنَعُّمِ، –وَبِالْكَسْرِ– مِنَ الْإِنْعَامِ.

وَقُرِئَ: (فَاكِهِينَ) وَ(فَكِهِينَ).

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾[3]

﴿كَذَلِكَ﴾[4]: الْكَافُ مَنْصُوبَةٌ عَلَى مَعْنَى: مِثْلَ ذَلِكَ الْإِخْرَاجِ أَخْرَجْنَاهُمْ مِنْهَا ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾[5] أَوْ فِي مَوْضِعِ الرَّفْعِ عَلَى الْأَمْرِ كَذَلِكَ.

﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾[6] لَيْسُوا مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ قَرَابَةٍ وَلَا دِينٍ وَلَا وَلَاءٍ، وَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: كَانُوا مُتَسَخِّرِينَ مُسْتَعْبَدِينَ فِي أَيْدِيهِمْ، فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ، وَأَوْرَثَهُمْ مُلْكَهُمْ وَدِيَارَهُمْ. إِذَا مَاتَ رَجُلٌ خَطِيرٌ قَالَتِ الْعَرَبُ فِي تَعْظِيمِ مُهْلِكَةٍ: بَكَتْ عَلَيْهِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ، وَبَكَتْهُ الرِّيحُ، وَأَظْلَمَتْ لَهُ الشَّمْسُ.

---

[1] سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

[2] سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

[3] سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

[4] سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

[5] سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

[6] سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

وَفِي حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَا مِنْ مُؤْمِنٍ مَاتَ فِي غُرْبَةٍ غَابَتْ فِيهَا بَوَاكِيهِ إِلَّا بَكَتْ عَلَيْهِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ".

وَقَالَ جَرِيرٌ:

تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومُ اللَّيْلِ وَالْقَمَـــــــــرَا

وَقَالَتِ الْخَارِجِيَّةُ:

أَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَا لَكَ مُورِقًا؟ كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفِ

وَذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ وَالتَّخْيِيلِ مُبَالَغَةً فِي وُجُوبِ الْجَزَعِ وَالْبُكَاءِ عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ مَا يُرْوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: مِنْ بُكَاءِ مُصَلَّى الْمُؤْمِنِ، وَآثَارِهِ فِي الْأَرْضِ، وَمَصَاعِدِ عَمَلِهِ، وَمَهَابِطِ رِزْقِهِ فِي السَّمَاءِ تَمْثِيلٌ، وَنَفَى ذَلِكَ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾[1]، فِيهِ تَهَكُّمٌ بِهِمْ وَبِحَالِهِمُ الْمُنَافِيَةِ لِحَالِ مَنْ يَعْظُمُ فَقْدَهُ، فَيُقَالُ فِيهِ: بَكَتْ عَلَيْهِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ.

وَعَنِ الْحَسَنِ :فَمَا بَكَى عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ، بَلْ كَانُوا بِهَلَاكِهِمْ مَسْرُورِينَ، يَعْنِي: فَمَا بَكَى عَلَيْهِمْ أَهْلُ السَّمَاءِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ، ﴿وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾[2] لَمَّا جَاءَ وَقْتُ هَلَاكِهِمْ لَمْ يَنْظُرُوا إِلَى وَقْتٍ آخَرَ، وَلَمْ يُمْهِلُوا إِلَى الْآخِرَةِ، بَلْ عَجَّلَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾[3]

﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾[4] بَدَلٌ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ، كَأَنَّهُ فِي نَفْسِهِ كَانَ عَذَابًا مُهِينًا، لِإِفْرَاطِهِ فِي تَعْذِيبِهِمْ وَإِهَانَتِهِمْ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ وَاقِعًا مِنْ جِهَةِ فِرْعَوْنَ.

وَقُرِئَ: (مِنْ عَذَابِ الْمُهِينِ).

---

1 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

2 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

3 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

4 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

وَوَجْهُهُ أَنْ يَكُونَ تَقْدِيرُ قَوْلِهِ: ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾[1]: مِنْ عَذَابِ فِرْعَوْنَ، حَتَّى يَكُونَ الْمُهِينُ هُوَ فِرْعَوْنُ.

وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ: مِنْ فِرْعَوْنَ، لَمَّا وَصَفَ عَذَابَ فِرْعَوْنَ بِالشِّدَّةِ وَالْفَظَاعَةِ، قَالَ: مِنْ فِرْعَوْنَ، عَلَى مَعْنَى: هَلْ تَعْرِفُونَهُ مَنْ هُوَ فِي عُتُوِّهِ وَشَيْطَنَتِهِ؟

ثُمَّ عَرَّفَ حَالَهُ فِي ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾[2]، أَيْ كَبِيرًا رَفِيعَ الطَّبَقَةِ، وَمِنْ بَيْنِهِمْ فَائِقًا لَهُمْ، بَلِيغًا فِي إِسْرَافِهِ، أَوْ عَالِيًا مُتَكَبِّرًا، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ﴾[3].

وَ﴿مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾[4] خَبَرٌ ثَانٍ، كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنَّهُ كَانَ مُتَكَبِّرًا مُسْرِفًا.

﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُبِينٌ﴾[5]

الضَّمِيرُ فِي ﴿اخْتَرْنَاهُمْ﴾[6] لِبَنِي إِسْرَائِيلَ.

وَ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾[7] فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، أَيْ: عَالِمِينَ بِمَكَانِ الْخِيَرَةِ، وَبِأَنَّهُمْ أَحِقَّاءُ بِأَنْ يَخْتَارُوا.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: مَعَ عِلْمٍ مِنَّا بِأَنَّهُمْ يَزِيغُونَ وَيُفَرِّطُ مِنْهُمُ الْفُرُطَاتُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[8] عَلَى عَالِمِي زَمَانِهِمْ.

وَقِيلَ: عَلَى النَّاسِ جَمِيعًا لِكَثْرَةِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْهُمْ.

---

1 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

2 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

3 سورة الْقَصَصِ، الآية 4.

4 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

5 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

6 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

7 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

8 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

﴿مِنَ الآيَاتِ﴾[1]: مِنْ نَحْوِ فَلْقِ الْبَحْرِ وَتَظْلِيلِ الْغَمَامِ وَإِنْزَالِ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْعِظَامِ الَّتِي لَمْ يُظْهِرِ اللَّهُ فِي غَيْرِهِمْ مِثْلَهَا ﴿بَلاءٌ مُبِينٌ﴾[2] نِعْمَةٌ ظَاهِرَةٌ، لِأَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– يَبْلُو بِالنِّعْمَةِ كَمَا يَبْلُو بِالْمُصِيبَةِ، أَوِ اخْتِبَارٍ ظَاهِرٍ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[3].

﴿إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلا مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[4]

﴿هَؤُلَاءِ﴾[5] إِشَارَةٌ إِلَى كُفَّارِ قُرَيْشٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَانَ الْكَلَامُ وَاقِعًا فِي الْحَيَاةِ الثَّانِيَةِ لَا فِي الْمَوْتِ، فَهَلَّا قِيلَ: إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الْأَوْلَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ؟ كَمَا قِيلَ: ﴿إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[6]؟

وَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿إِنْ هِيَ إِلا مَوْتَتُنَا الأُولَى﴾[7]؟ وَمَا مَعْنَى ذِكْرِ الْأُولَى؟ كَأَنَّهُمْ وُعِدُوا مَوْتَةً أُخْرَى حَتَّى نَفَوْهَا وَجَحَدُوهَا وَأَثْبَتُوا الْأُولَى؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ –وَاللَّهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ–: أَنَّهُ قِيلَ لَهُمْ: إِنَّكُمْ تَمُوتُونَ مَوْتَةً تَتَعَقَّبُهَا حَيَاةٌ، كَمَا تَقَدَّمَتْكُمْ مَوْتَةٌ قَدْ تَعَقَّبَتْهَا حَيَاةٌ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[8]، فَقَالُوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلا مَوْتَتُنَا الأُولَى﴾[9]، يُرِيدُونَ: مَا الْمَوْتَةُ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ يَتَعَقَّبَهَا حَيَاةٌ إِلَّا الْمَوْتَةُ الْأُولَى دُونَ الْمَوْتَةِ الثَّانِيَةِ، وَمَا هَذِهِ الصِّفَةُ

---

1 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

2 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

3 سُورَةُ الْبَقَرَةِ، الآية 49.

4 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

5 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

6 سُورَةُ الْأَنْعَامِ، الآية 29.

7 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

8 سُورَةُ الْبَقَرَةِ، الآية 28.

9 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

الَّتِي تَصِفُونَ بِهَا الْمَوْتَةَ مِنْ تَعَقُّبِ الْحَيَاةِ لَهَا إِلَّا لِلْمَوْتَةِ الْأُولَى خَاصَّةً، فَلَا فَرْقَ إِذًا بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ: (إِنْ هِي إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا) فِي الْمَعْنَى.

يُقَالُ: أَنْشَرَ اللَّهُ الْمَوْتَى وَنَشَرَهُمْ: إِذَا بَعَثَهُمْ.

﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا﴾[1]: هَذَا خِطَابٌ لِلَّذِينِ كَانُوا يَعُدُّونَهُمُ النُّشُورَ: مِنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَالْمُؤْمِنِينَ، أَيْ: إِنْ صَدَقْتُمْ فِيمَا تَقُولُونَ فَعَجِّلُوا لَنَا إِحْيَاءَ مَنْ مَاتَ مِنْ آبَائِنَا بِسُؤَالِكُمْ رَبُّكُمْ ذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ مَا تَعُدُّونَهُ مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ وَبَعْثِ الْمَوْتَى حَقٌّ.

وَقِيلَ: كَانُوا يَطْلُبُونَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَدْعُوا اللَّهَ وَيَنْشُرَهُمْ لَهُمْ قَصِيُّ بْنُ كِلَابٍ لِيُشَاوِرُوهُ، فَإِنَّهُ كَانَ كَبِيرُهُمْ وَمُشَاوِرُهُمْ فِي النَّوَازِلِ وَمَعَاظِمِ الشُّؤُونِ.

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[2]

هُوَ تُبَّعُ الْحِمْيَرِيُّ: كَانَ مُؤْمِنًا وَقَوْمُهُ كَافِرِينَ، وَلِذَلِكَ ذَمَّ اللَّهُ قَوْمَهُ وَلَمْ يَذُمَّهُ، وَهُوَ الَّذِي سَارَ بِالْجُيُوشِ وَحَيَّرَ الْحِيرَةَ وَبَنَى سَمَرْقَنْدَ –وَقِيلَ: هَدَمَهَا–. وَكَانَ إِذَا كَتَبَ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي مَلَكَ بَرًّا وَبَحْرًا.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "لَا تَسُبُّوا تُبَّعًا، فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ". وَعَنْهُ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: "مَا أَدْرِي أَكَانَ تُبَّعٌ نَبِيًّا أَوْ غَيْرَ نَبِيٍّ".

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: كَانَ نَبِيًّا.

وَقِيلَ: نَظَرَ إِلَى قَبْرَيْنِ بِنَاحِيَةِ حِمْيَرَ قَالَ: هَذَا قَبْرُ رَضْوَى وَقَبْرُ حُبَّى بِنْتَيْ تُبَّعٍ لَا تُشْرِكَانِ بِاللَّهِ شَيْئًا.

وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي كَسَا الْبَيْتَ.

وَقِيلَ لِمُلُوكِ الْيَمَنِ: التَّبَابِعَةُ، لِأَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ، كَمَا قِيلَ: الْأَقْيَالُ، لِأَنَّهُمْ يَتَقَيَّلُونَ، وَسُمِّيَ الظِّلُّ ﴿تُبَّعًا﴾[3]، لِأَنَّهُ يَتْبَعُ الشَّمْسَ.

---

1 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

2 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

3 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾[1]، وَلَا خَيْرَ فِي الْفَرِيقَيْنِ؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: أَهُمْ خَيْرٌ فِي الْقُوَّةِ وَالْمَنْعَةِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾[2] بَعْدَ ذِكْرِ آلِ فِرْعَوْنَ.

وَفِي تَفْسِيرِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: أَهُمْ أَشُدُّ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ إِلا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[3]

﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾[4] وَمَا بَيْنَ الْجِنْسَيْنِ.

وَقَرَأَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ: وَمَا بَيْنَهُنَّ.

وَقَرَأَ: (مِيقَاتَهُمْ) بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّهُ اسْمُ إِنَّ، وَيَوْمُ الْفَصْلِ، خَبَرُهَا، أَيْ: إِنَّ مِيعَادَ حِسَابِهِمْ وَجَزَائِهِمْ فِي يَوْمِ الْفَصْلِ.

﴿لا يُغْنِي مَوْلًى﴾[5]، أَيْ مَوْلَى كَانَ مِنْ قَرَابَةٍ أَوْ غَيْرِهَا، ﴿عَنْ مَوْلًى﴾[6]: عَنْ أَيِّ مَوْلًى كَانَ ﴿شَيْئًا﴾[7] مِنْ إِغْنَاءٍ، أَيْ: قَلِيلًا مِنْهُ.

﴿وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾[8] الضَّمِيرُ لِلْمَوَالِي، لِأَنَّهُمْ فِي الْمَعْنَى كَثِيرٌ، لِتَنَاوُلِ اللَّفْظِ عَلَى الْإِبْهَامِ وَالشُّيَاعِ كُلَّ مَوْلًى.

---

1 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

2 سُورَةُ الْقَمَرِ، الآية 43.

3 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

4 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

5 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

6 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

7 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

8 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

﴿إِلا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾[1] فِي مَحَلِّ الرَّفْعِ عَلَى الْبَدَلِ مِنَ الْوَاوِ فِي ﴿يُنْصَرُونَ﴾[2]، أَيْ: لَا يَمْنَعُ مِنَ الْعَذَابِ إِلَّا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَنْتَصِبَ عَلَى الِاسْتِثْنَاءِ.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾[3]: لَا يُنْصَرُ مِنْهُ مَنْ عَصَاهُ، ﴿الرَّحِيمِ﴾[4] لِمَنْ أَطَاعَهُ.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾[5]

قُرِئَ: (إِنَّ شِجَرَتِ الزَّقُّومِ) بِكَسْرِ الشِّينِ، وَفِيهَا ثَلَاثُ لُغَاتٍ: شَجَرَةَ، بِفَتْحِ الشِّينِ وَكَسْرِهَا وَشَيَرَةَ، بِالْيَاءِ.

وَرَوَى أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾[6]]الصَّافَّاتُ: 62] قَالَ ابْنُ الزِّبَعْرَى: إِنَّ أَهْلَ الْيَمَنِ يَدْعُونَ أَكْلَ الزَّبَدِ وَالتَّمْرِ: التَّزَقُّمُ، فَدَعَا أَبُو جَهْلٍ بِتَمْرٍ وَزَبَدٍ، فَقَالَ: تَزَقَّمُوا فَإِنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي يُخَوِّفُكُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ، فَنَزَلَ ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ﴾[7]، وَهُوَ الْفَاجِرُ الْكَثِيرُ الْآثَامِ.

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ كَانَ يُقْرِئُ رَجُلًا فَكَانَ يَقُولُ: طَعَامُ الْيَتِيمِ، فَقَالَ: قُلْ طَعَامَ الْفَاجِرِ يَا هَذَا. وَبِهَذَا يُسْتَدَلُّ عَلَى أَنَّ إِبْدَالَ كَلِمَةٍ مَكَانَ كَلِمَةٍ جَائِزٌ إِذَا كَانَتْ مُؤَدِّيَةً مَعْنَاهَا.

وَمِنْهُ أَجَازَ أَبُو حَنِيفَةَ الْقِرَاءَةَ بِالْفَارِسِيَّةِ عَلَى شَرِيطَةٍ، وَهِيَ: أَنْ يُؤَدِّيَ الْقَارِئُ الْمَعَانِيَ عَلَى كَمَالِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَخْرِمَ مِنْهَا شَيْئًا. قَالُوا: وَهَذِهِ الشَّرِيطَةُ تَشْهَدُ أَنَّهَا إِجَازَةٌ كَلَا إِجَازَةٍ، لِأَنَّ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ خُصُوصًا فِي الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ مُعْجِزٌ بِفَصَاحَتِهِ وَغَرَابَةِ نَظْمِهِ وَأَسَالِيبِهِ مِنْ

---

1 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .
2 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .
3 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .
4 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .
5 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .
6 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .
7 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

لَطَائِفِ الْمَعَانِي وَالْأَغْرَاضِ مَا لَا يَسْتَقِلُّ بِأَدَائِهِ لِسَانٌ مِنْ فَارِسِيَّةٍ وَغَيْرِهَا، وَمَا كَانَ أَبُو حَنِيفَةَ –رَحِمَهُ اللَّهُ– يُحْسِنُ الْفَارِسِيَّةَ، فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْهُ عَنْ تَحَقُّقٍ وَتَبَصُّرٍ.

وَرَوَى عَلِيُّ بْنُ الْجَعْدِ عَنْ أَبِي يُوسُفَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ مِثْلَ قَوْلِ صَاحِبَيْهِ فِي إِنْكَارِ الْقِرَاءَةِ بِالْفَارِسِيَّةِ.

﴿كَالْمُهْلِ﴾[1] قُرِئَ: بِضَمِّ الْمِيمِ وَفَتْحِهَا، وَهُوَ دُرْدِيُّ الزَّيْتِ.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾[2] مَعَ قَوْلِهِ: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾[3].

وَقِيلَ: هُوَ ذَائِبُ الْفِضَّةِ وَالنُّحَاسِ ، وَالْكَافُ رَفْعُ خَبَرٍ بَعْدَ خَبَرٍ، وَكَذَلِكَ ﴿يَغْلِي﴾[4]، وَقُرِئَ بِالتَّاءِ لِلشَّجَرَةِ، وَبِالْيَاءِ لِلطَّعَامِ.

وَ﴿الْحَمِيمُ﴾[5] الْمَاءُ الْحَارُّ الَّذِي انْتَهَى غَلَيَانُهُ، يُقَالُ لِلزَّبَانِيَةِ: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾[6] فَقَوَّدُوهُ بِعُنْفٍ وَغِلْظَةٍ، وَهُوَ أَنْ يُؤْخَذَ بِتَلْبِيبِ الرَّجُلِ فيجَرَّ إِلَى حَبْسٍ أَوْ قَتْلٍ.

وَمِنْهُ "الْعُتُلُّ"، وَهُوَ الْغَلِيظُ الْجَافي.

وَقُرِئَ: بِكَسْرِ التَّاءِ وَضَمِّهَا ﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾[7] إِلَى وَسَطِهَا وَمُعْظَمِهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ: صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنَ الْحَمِيمِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾[8]، لِأَنَّ الْحَمِيمَ هُوَ الْمَصْبُوبُ لَا عَذَابُهُ؟

قُلْتُ: إِذَا صَبَّ عَلَيْهِ الْحَمِيمَ فَقَدْ صَبَّ عَلَيْهِ عَذَابَهُ وَشِدَّتُهُ، إِلَّا أَنَّ صَبَّ الْعَذَابِ طَرِيقَةُ الِاسْتِعَارِ، كَقَوْلِهِ:

صَبَّتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ الدَّهْرِ مِنْ صَبَبِ

---

1 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية.

2 سُورَةُ الْمَعَارِجِ، الآية 8.

3 سُورَةُ الرَّحْمَنِ، الآية 37.

4 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

5 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

6 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

7 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

8 سُورَةُ الْحَجِّ، الآية .

وَكَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾[1]، فَذَكَرَ الْعَذَابَ مُعَلَّقًا بِهِ الصَّبَّ، مُسْتَعَارًا لَهُ، لِيَكُونَ أَهْوَلُ وَأَهْيَبُ يُقَالُ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[2] عَلَى سَبِيلِ الْهُزُؤِ وَالتَّهَكُّمِ بِمَنْ كَانَ يَتَعَزَّزُ وَيَتَكَرَّمُ عَلَى قَوْمِهِ.

وَرُوِيَ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: مَا بَيْنَ جَبَلَيْهَا أَعَزُّ وَلَا أَكْرَمُ مِنِّي، فَوَاللَّهِ مَا تَسْتَطِيعُ أَنْتَ وَلَا رَبُّكَ أَنْ تَفْعَلَا بِي شَيْئًا.

وَقُرِئَ: (إِنَّكَ) بِمَعْنَى: لِأَنَّكَ.

وَعَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّهُ قَرَأَ بِهِ عَلَى الْمِنْبَرِ (إِنَّ هَذَا) الْعَذَابَ. أَوْ إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ هُوَ ﴿مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾[3]، أَيْ تَشُكُّونَ، أَوْ تَتَمَارُونَ وَتَتَلَاجُّونَ.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلا الْمَوْتَةَ الأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ فَضْلا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[4]

قُرِئَ: (فِي مَقَامٍ) بِالْفَتْحِ: وَهُوَ مَوْضِعِ الْقِيَامِ، وَالْمُرَادُ الْمَكَانُ، وَهُوَ مِنَ الْخَاصِّ الَّذِي وَقَعَ مُسْتَعْمَلًا فِي مَعْنَى الْعُمُومِ. وَبِالضَّمِّ: وَهُوَ مَوْضِعُ الْإِقَامَةِ.

وَ"الْأَمِينُ" مِنْ قَوْلِكَ: أَمِنَ الرَّجُلُ أَمَانَةً، فَهُوَ أَمِينٌ. وَهُوَ ضِدُّ الْخَائِنِ، فَوَصَفَ بِهِ الْمَكَانَ اسْتِعَارَةً، لِأَنَّ الْمَكَانَ الْمُخِيفَ، كَأَنَّمَا يَخُونُ صَاحِبَهُ بِمَا يَلْقَى فِيهِ مِنَ الْمَكَارِهِ.

قِيلَ: السُّنْدُسُ: مَا رَقَّ مِنَ الدِّيبَاجِ.

وَالْإِسْتَبْرَقُ: مَا غَلُظَ مِنْهُ، وَهُوَ تَعْرِيبُ اسْتَبَرَ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ سَاغَ أَنْ يَقَعَ فِي الْقُرْآنِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ لَفْظٌ أَعْجَمِيٌّ؟

قُلْتُ: إِذَا عُرِّبَ خَرَجَ مِنْ أَنْ يَكُونَ عَجَمِيًّا، لِأَنَّ مَعْنَى التَّعْرِيبِ أَنْ يُجْعَلَ عَرَبِيًّا بِالتَّصَرُّفِ فِيهِ، وَتَغْيِيرِهِ عَنْ مِنْهَاجِهِ، وَإِجْرَائِهِ عَلَى أَوْجُهِ الْإِعْرَابِ.

---

[1] سُورَةُ الْبَقَرَةِ، الآية 250.

[2] سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

[3] سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

[4] سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

﴿كَذَلِكَ﴾[1] الْكَافُ مَرْفُوعٌ عَلَى الْأَمْرِ كَذَلِكَ، أَوْ مَنْصُوبٌ عَلَى: مِثْلِ ذَلِكَ أَثَبْنَاهُمْ.

﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ﴾[2] وَقَرَأَ عِكْرِمَةُ: (بِحَوَرٍ عِينٍ) عَلَى الْإِضَافَةِ، وَالْمَعْنَى: بِالْحَوَرِ مِنَ الْعِينِ، لِأَنَّ الْعَيْنَ إِمَّا أَنْ تَكُونَ حُورًا أَوْ غَيْرَ حُورٍ، فَهَؤُلَاءِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ لَا مِنْ شَهْلِهِنَّ مَثَلًا.

وَفِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ: (بِعَيْسِ عِينٍ) وَالْعَيْسَاءُ: الْبَيْضَاءُ تَعْلُوهَا حُمْرَةٌ.

وَقَرَأَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ: (لَا يُذَاقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ).

وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ: (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا طَعْمَ الْمَوْتِ).

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ اسْتَثْنَيْتَ الْمَوْتَةَ الْأُولَى -الْمَذُوقَةَ قَبْلَ دُخُولِ الْجَنَّةِ- مِنَ الْمَوْتِ الْمَنْفِي ذَوْقُهُ فِيهَا؟

قُلْتُ: أُرِيدُ أَنْ يُقَالَ: لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ الْبَتَّةَ، فَوَضَعَ قَوْلَهُ: ﴿إِلا الْمَوْتَةَ الأُولَى﴾[3] مَوْضِعَ ذَلِكَ، لِأَنَّ الْمَوْتَةَ الْمَاضِيَةَ مُحَالٌ ذَوْقُهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ، فَهُوَ مِنْ بَابِ التَّعْلِيقِ بِالْمُحَالِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنْ كَانَتِ الْمَوْتَةُ الْأُولَى يَسْتَقِيمُ ذَوْقُهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ فَإِنَّهُمْ يَذُوقُونَهَا. وَقُرِئَ: (وَوَقَاهُمْ) بِالتَّشْدِيدِ.

﴿فَضْلا مِنْ رَبِّكَ﴾[4]: عَطَاءٌ مِنْ رَبِّكَ وَثَوَابًا، يَعْنِي: كُلُّ مَا أَعْطَى الْمُتَّقِينَ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ وَالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ.

وَقُرِئَ: (فَضْلُ)، أَيْ: ذَلِكَ فَضْلُ.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾[5]

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾[6] فَذْلَكَةٌ لِلسُّورَةِ. وَمَعْنَاهَا: ذَكَّرَهُمْ بِالْكِتَابِ الْمُبِينِ.

---

1 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

2 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

3 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

4 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

5 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

6 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾[1]، أَيْ: سَهَّلْنَاهُ، حَيْثُ أَنْزَلْنَاهُ عَرَبِيًّا بِلِسَانِكَ بِلُغَتِكَ إِرَادَةَ أَنْ يَفْهَمَهُ قَوْمُكَ فيتَذَكَّرُوا.

﴿فَارْتَقِبْ﴾[2]: فَانْتَظِرْ مَا يَحِلُّ بِهِمْ.

﴿إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾[3] مَا يَحِلُّ بِكَ مُتَرَبِّصُونَ بِكَ الدَّوَائِرَ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ حم الدُّخَانِ في لَيْلَةٍ أَصْبَحَ يَسْتَغْفِرُ لَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ"، وَعَنْهُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ حم الَّتِي ذَكَرَ فيها الدُّخَّانَ في لَيْلَةِ جُمْعَةٍ أَصْبَحَ مَغْفُورًا لَهُ".

---

1 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

2 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

3 سُورَةُ الدُّخَانِ، الآية .

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

سورة الروم

مَكِّيَّةٌ [إِلَّا آيَةَ 14 فَمَدَنِيَّةٌ]
وَآيَاتُهَا 37 وَقِيلَ 36 آيَةُ [نَزَلَتْ بَعْدَ الدُّخَانِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ
لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ
آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ
فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾

﴿حم﴾[1] إِنْ جَعَلْتَهَا اسْمًا مُبْتَدَأً مُخْبَرًا عَنْهُ بِ ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾[2] لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ حَذْفِ مُضَافٍ، تَقْدِيرُهُ: تَنْزِيلُ حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ.

---

[1] سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

[2] سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

وَ﴿مِنَ اللَّهِ﴾[1] صِلَةٌ لِلتَّنْزِيلِ، وَإِنْ جَعَلْتَهَا تَعْدِيدًا لِلْحُرُوفِ كَانَ ﴿تَنْزِيلِ الْكِتَابِ﴾[2] مُبْتَدَأً، وَالظَّرْفُ خَبَرًا ﴿إِنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[3] يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَأَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى، إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ لِقَوْلِهِ: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾[4].

فَإِنْ قُلْتَ: عَلَامَ عَطَفَ ﴿وَمَا يَبُثُّ﴾[5] أَعَلَى الْخَلْقِ الْمُضَافِ؟ أَمْ عَلَى الضَّمِيرِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ؟

قُلْتُ: بَلْ عَلَى الْمُضَافِ، لِأَنَّ الْمُضَافَ إِلَيْهِ ضَمِيرٌ مُتَّصِلٌ مَجْرُورٌ يَقْبُحُ الْعَطْفُ عَلَيْهِ، اسْتَقْبَحُوا أَنْ يُقَالَ: مَرَرْتُ بِكَ وَزَيْدٌ، وَهَذَا أَبُوكَ وَعَمْرٌو، وَكَذَلِكَ إِنْ أَكَّدُوهُ كَرِهُوا أَنْ يَقُولُوا: مَرَرْتُ بِكَ أَنْتَ وَزَيْدَ.

قُرِئَ: (آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) بِالنَّصْبِ وَالرَّفْعِ، عَلَى قَوْلِكَ: إِنَّ زَيْدًا فِي الدَّارِ وَعَمْرًا فِي السُّوقِ، أَوْ عَمْرٌو فِي السُّوقِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[6]، فَمِنَ الْعَطْفِ عَلَى عَامِلِينَ، سَوَاءٌ نُصِبَتْ أَوْ رُفِعَتْ، فَالْعَامِلَانِ إِذَا نُصِبَتْ هُمَا: إِنْ، وَفِي، أُقِيمَتِ الْوَاوُ مَقَامَهُمَا، فَعَمِلَتِ الْجَرَّ فِي (اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)، وَالنُّصْبَ فِي "لَآيَاتٍ".

وَإِذَا رَفَعَتْ فَالْعَامِلَانِ: الِابْتِدَاءُ وَفِي عَمِلَتِ الرَّفْعُ فِي ﴿لَآيَاتُ﴾[7]، وَالْجَرُّ فِي ﴿وَاخْتِلَافِ﴾[8]، وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (وَفِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ).

فَإِنْ قُلْتَ: الْعَطْفُ عَلَى عَامِلِينَ عَلَى مَذْهَبِ الْأَخْفَشِ سَدِيدٌ لَا مَقَالَ فِيهِ. وَقَدْ أَبَاهُ سِيبَوَيْهِ، فَمَا وَجْهُ تَخْرِيجِ الْآيَةِ عِنْدَهُ؟

قُلْتُ: فِيهِ وَجْهَانِ عِنْدَهُ.

---

1 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
2 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
3 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
4 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
5 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
6 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
7 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
8 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ عَلَى إِضْمَارٍ فِي. وَالَّذِي حَسَّنَهُ تَقَدُّمُ ذِكْرِهِ فِي الْآيَتَيْنِ قَبْلَهَا. وَيُعَضِّدُهُ قِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ.

وَالثَّانِي: أَنْ يَنْتَصِبَ آيَاتٍ عَلَى الِاخْتِصَاصِ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْمَجْرُورِ مَعْطُوفًا عَلَى مَا قَبْلَهُ أَوْ عَلَى التَّكْرِيرِ، وَرَفَعَهَا بِإِضْمَارِ هِيَ.

وَقُرِئَ: (وَاخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) بِالرَّفْعِ.

وَقُرِئَ: (آيَةٌ) وَكَذَلِكَ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَةٌ.

وَقُرِئَ: (وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ).

وَالْمَعْنَى: إِنَّ الْمُنْصِفِينَ مِنَ الْعِبَادِ إِذَا نَظَرُوا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ النَّظَرَ الصَّحِيحَ، عَلِمُوا أَنَّهَا مَصْنُوعَةٌ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ صَانِعٍ، فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَأَقَرُّوا.

فَإِذَا نَظَرُوا فِي خَلْقِ أَنْفُسِهِمْ وَتَنَقُّلِهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَهَيْئَةٍ إِلَى هَيْئَةٍ، وَفِي خَلْقِ مَا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ صُنُوفِ الْحَيَوَانِ: ازْدَادُوا إِيمَانًا، وَأَيْقَنُوا وَانْتَفَى عَنْهُمُ اللَّبْسُ.

فَإِذَا نَظَرُوا فِي سَائِرِ الْحَوَادِثِ الَّتِي تَتَجَدَّدُ فِي كُلِّ وَقْتٍ، كَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَنُزُولِ الْأَمْطَارِ وَحَيَاةِ الْأَرْضِ بِهَا بَعْدَ مَوْتِهَا.

﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾[1]: جَنُوبًا وَشَمَالًا وَقَبُولًا وَدَبُورًا: عَقَلُوا وَاسْتَحْكَمَ عِلْمُهُمْ وَخَلَصَ يَقِينُهُمْ، وَسَمَّى الْمَطَرَ رِزْقًا، لِأَنَّهُ سَبَبُ الرِّزْقِ.

﴿تِلْكَ﴾[2]: إِشَارَةٌ إِلَى الْآيَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ، أَيْ: تِلْكَ الْآيَاتُ آيَاتُ اللَّهِ.

وَ﴿نَتْلُوهَا﴾[3] فِي مَحَلِّ الْحَالِ، أَيْ: مَتْلُوَّةً ﴿عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾[4] وَالْعَامِلُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ تِلْكَ مِنْ مَعْنَى الْإِشَارَةِ. وَنَحْوُهُ: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾[5]، وَقُرِئَ: (يَتْلُوهَا) بِالْيَاءِ.

﴿بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ﴾[6]، أَيْ بَعْدَ آيَاتِ اللَّهِ، كَقَوْلِهِمْ: أَعْجَبَنِي زَيْدٌ وَكَرَمُهُ، يُرِيدُونَ: أَعْجَبَنِي كَرَمُ زَيْدٍ.

---

1 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

2 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

3 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

4 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

5 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

6 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: بَعْدَ حَدِيثِ اللَّهِ، وَهُوَ كِتَابُهُ وَقُرْآنُهُ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾[1].

وَقُرِئَ: (يُؤْمِنُونَ) بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ.

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2]

الْأَفَّاكُ: الْكَذَّابُ، وَالْأَثِيمُ: الْمُتَبَالِغُ فِي اقْتِرَافِ الْآثَامِ.

﴿يُصِرُّ﴾[3] يُقْبَلُ عَلَى كُفْرِهِ وَيُقِيمُ عَلَيْهِ. وَأَصْلُهُ مِنْ إِصْرَارِ الْحِمَارِ عَلَى الْعَانَةِ، وَهُوَ أَنْ يُنَحَّى عَلَيْهَا صَارَّ أُذُنَيْهِ.

﴿مُسْتَكْبِرًا﴾[4] عَنِ الْإِيمَانِ بِالْآيَاتِ وَالْإِذْعَانِ لِمَا يَنْطِقُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ، مزدريًا لَهَا معجبًا بِمَا عِنْدَهُ.

قِيلَ: نَزَلَتْ فِي النَّضِرِ بْنِ الْحَرْثِ وَمَا كَانَ يَشْتَرِي مِنْ أَحَادِيثِ الْأَعَاجِمِ، وَيُشْغِلُ النَّاسَ بِهَا عَنِ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ.

وَالْآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَا كَانَ مُضَارًّا لِدِينِ اللَّهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى ثُمَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾[5]؟

قُلْتُ: كَمَعْنَاهُ فِي قَوْلِ الْقَائِلِ:

يَرَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَـــــــا

وَذَلِكَ أَنَّ غَمَرَاتِ الْمَوْتِ حَقِيقَةٌ، بِأَنْ يَنْجُوَ رَائِيهَا بِنَفْسِهِ وَيَطْلُبَ الْفِرَارَ عَنْهَا.

---

1 سورة الزُّمَر، الآية 23.

2 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

3 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

4 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

5 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

وَأَمَّا زِيَارَتُهَا وَالْإِقْدَامُ عَلَى مُزَاوَلَتِهَا. فَأَمْرٌ مُسْتَبْعَدٌ، فَمَعْنَى ثُمَّ: الْإِيذَانُ بِأَنَّ فِعْلَ الْمُقَدَّمِ عَلَيْهَا بَعْدَمَا رَآهَا وَعَايَنَهَا، شَيْءٌ يُسْتَعْبَدُ فِي الْعَادَاتِ وَالطِّبَاعِ، وَكَذَلِكَ آيَاتُ اللَّهِ الْوَاضِحَةُ النَّاطِقَةُ بِالْحَقِّ، مَنْ تُلِيَتْ عَلَيْهِ وَسَمِعَهَا: كَانَ مُسْتَعْبَدًا فِي الْعُقُولِ إِصْرَارُهُ عَلَى الضَّلَالَةِ عِنْدَهَا وَاسْتِكْبَارُهُ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا.

﴿كَأَنْ﴾[1] مُخَفَّفَةٌ، وَالْأَصْلُ كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهَا: وَالضَّمِيرُ ضَمِيرُ الشَّأْنِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ:

كَأَنْ ظَبْيَةً تَعْطُو إِلَى نَاضِرِ السَّلَمِ

وَمَحِلُّ الْجُمْلَةِ النَّصْبُ عَلَى الْحَالِ، أَيْ: يَصِيرُ مِثْلَ غَيْرِ السَّامِعِ.

﴿وَإِذَا﴾[2] بَلَغَهُ شَيْءٌ مِنْ آيَاتِنَا وَعَلِمَ أَنَّهُ مِنْهَا ﴿اتَّخَذَهَا﴾[3]، أَيِ اتَّخَذَ الْآيَاتِ ﴿هُزُوًا﴾[4]، وَلَمْ يَقُلِ: اتَّخَذَهُ، لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّهُ إِذَا أَحَسَّ بِشَيْءٍ مِنَ الْكَلَامِ أَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ الْآيَاتِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ –تَعَالَى– عَلَى مُحَمَّدٍ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: خَاضَ فِي الِاسْتِهْزَاءِ بِجَمِيعِ الْآيَاتِ. وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى الِاسْتِهْزَاءِ بِمَا بَلَغَهُ.

وَيُحْتَمَلُ: وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا يُمْكِنُ أَنْ يَتَشَبَّثَ بِهِ الْمُعَانِدُ، وَيَجِدُ لَهُ مَحْمَلًا يَتَسَلَّقُ بِهِ عَلَى الطَّعْنِ وَالْغَمِيزَةِ: افْتَرَصَهُ وَاتَّخَذَ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا.

وَذَلِكَ نَحْوُ افْتِرَاصِ ابْنِ الزَّبَعْرَى قَوْلُهُ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[5]، وَمُغَالَطَتُهُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَقَوْلُهُ: خَصِمْتُكَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَرْجِعَ الضَّمِيرُ إِلَى شَيْءٍ، لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ كَقَوْلِ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ:

نَفْسِي بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا مُعَلَّقَةٌ أَللَّهُ وَالْقَائِمُ الْمَهْدِيُّ يَكْفِيهَا

حَيْثُ أَرَادَ عُتْبَةُ.

وَقُرِئَ: (عِلْمُ أُولَئِكَ) إِشَارَةٌ إِلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، لِشُمُولِهِ الْأَفَّاكِينَ.

وَالْوَرَاءُ اسْمٌ لِلْجِهَةِ الَّتِي يُوَارِيهَا الشَّخْصُ مِنْ خَلْفٍ أَوْ قُدَّامٍ.

قَالَ:

أَلَيْسَ وَرَائِي أَنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي؟ أَدَبٌ مَعَ الْوِلْدَانِ أَزْحَفُ كَالنَّسْرِ

---

[1] سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

[2] سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

[3] سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

[4] سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

[5] سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ، الآية 98.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ﴾[1]، أَيْ مِنْ قُدَّامِهِمْ، ﴿مَا كَسَبُوا﴾[2] مِنَ الْأَمْوَالِ فِي رَحْلِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ، ﴿وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[3] مِنَ الْأَوْثَانِ.

﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾[4]

﴿هَذَا﴾[5] إِشَارَةٌ إِلَى الْقُرْآنِ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾[6]، لِأَنَّ آيَاتِ رَبِّهِمْ هِيَ الْقُرْآنُ، أَيْ هَذَا الْقُرْآنُ كَامِلٌ فِي الْهِدَايَةِ، كَمَا تَقُولُ: زِيدٌ رَجُلٌ، تُرِيدُ كَامِلَ فِي الرُّجُولِيَّةِ. وَأَيُّمَا رَجُلٍ.

وَالرِّجْزُ: أَشَدُّ الْعَذَابِ.

وَقُرِئَ بِجَرِّ (أَلِيمٍ) وَرَفْعِهِ.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[7]

﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾[8] بِالتِّجَارَةِ أَوْ بِالْغَوْصِ عَلَى اللُّؤْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ وَاسْتِخْرَاجِ اللَّحْمِ الطَّرِيِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَنَافِعِ الْبَحْرِ.

---

1 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
2 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
3 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
4 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
5 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
6 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
7 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
8 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى ﴿مِنْهُ﴾[1] فِي قَوْلِهِ: ﴿جَمِيعًا مِنْهُ﴾[2]؟ وَمَا مَوْقِعُهَا مِنَ الْإِعْرَابِ؟

قُلْتُ: هِيَ وَاقِعَةٌ مَوْقِعَ الْحَالِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ سَخَّرَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ كَائِنَةً مِنْهُ وَحَاصِلَةً مِنْ عِنْدِهِ، يَعْنِي: أَنَّهُ مُكَوِّنُهَا وَمُوجِدُهَا بِقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ، ثُمَّ مُسَخِّرُهَا لِخَلْقِهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خَبَرَ مُبْتَدَإٍ مَحْذُوفٍ، تَقْدِيرُهُ: هِيَ جَمِيعًا مِنْهُ، وَأَنْ يَكُونَ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ﴾[3] تَأْكِيدًا لِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿سَخَّرَ لَكُمُ﴾[4]، ثُمَّ ابْتُدِئَ قَوْلُهُ: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾[5]، وَأَنْ يَكُونَ (مَّا فِي الْأَرْضِ) مُبْتَدَأً، وَ ﴿مِنْهُ﴾[6] خَبَرُهُ.

وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: (مِنْهُ) وَقَرَأَ سَلَمَةُ بْنُ مُحَارِبٍ: (مِنْهُ)، عَلَى أَنْ يَكُونَ مِنْهُ فَاعِلُ سَخِرَ عَلَى الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ، أَوْ عَلَى أَنَّهُ خَبَرُ مُبْتَدَإٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ: ذَلِكَ. أَوْ هُوَ مِنْهُ.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[7]

حَذْفُ الْمَقُولِ، لِأَنَّ الْجَوَابَ دَالٌّ عَلَيْهِ.

وَالْمَعْنَى: قُلْ لَهُمُ اغْفِرُوا يَغْفِرُوا ﴿لا يَرْجُونَ أَيَّامَ﴾[8]: لَا يَتَوَقَّعُونَ وَقَائِعَ اللَّهِ بِأَعْدَائِهِ، مِنْ قَوْلِهِمْ لِوَقَائِعِ الْعَرَبِ: أَيْ أُمُّ الْعَرَبِ.

وَقِيلَ: لَا يَأْمَلُونَ الْأَوْقَاتِ الَّتِي وَقَّتَهَا اللَّهُ لِثَوَابِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَعَدَهُمُ الْفَوْزَ فِيهَا.

قِيلَ: نَزَلَتْ قَبْلَ آيَةِ الْقِتَالِ، ثُمَّ نُسِخَ حُكْمُهَا.

---

1 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
2 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
3 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
4 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
5 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
6 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
7 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
8 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

وَقِيلَ: نُزُولُهَا في عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، وَقَدْ شَتَمَهُ رَجُلٌ مِنْ غِفَارٍ، فَهَمَّ أَنْ يَبْطِشَ بِهِ.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ: كُنَّا بَيْنَ يَدَيْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، فَقَرَأَ قَارِئٌ هَذِهِ الْآيَةَ، فَقَالَ عُمَرُ: لِيُجْزَى عُمَرُ بِمَا صَنَعَ "لِيَجْزِيَ" تَعْلِيلٌ لِلْأَمْرِ بِالْمَغْفِرَةِ، أَيْ: إِنَّمَا أُمِرُوا بِأَنْ يَغْفِرُوا لِمَا أَرَادَهُ اللَّهُ مِنْ تَوْفِيقِهِمْ جَزَاءَ مُغْفِرَتِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ: ﴿قَوْمًا﴾[1] مَا وَجْهُ تَنْكِيرِهِ وَإِنَّمَا أَرَادَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُمْ مَعَارِفُ؟

قُلْتُ: هُوَ مَدْحٌ لَهُمْ وَثَنَاءٌ عَلَيْهِمْ، كَأَنَّهُ قِيلَ: لِيَجْزِيَ أَيْ مَا قَوْمٌ وَقَوْمًا مَخْصُوصِينَ، لِصَبْرِهِمْ وَإِغْضَائِهِمْ عَلَى أَذَى أَعْدَائِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ، وَعَلَى مَا كَانُوا يُجَرِّعُونَهُمْ مِنَ الْغَصَصِ ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2] مِنَ الثَّوَابِ الْعَظِيمِ بِكَظْمِ الْغَيْظِ وَاحْتِمَالِ الْمَكْرُوهِ.

وَمَعْنَى قَوْلِ عُمَرَ: لِيُجْزَى عُمَرُ بِمَا صَنَعَ: لِيُجْزَى بِصَبْرِهِ وَاحْتِمَالِهِ.

وَقَوْلُهُ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عِنْدَ نُزُولِ الْآيَةِ: "وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا تَرَى الْغَضَبَ في وَجْهِي".

وَقُرِئَ: (لِيَجْزِيَ قَوْمًا) أَيِ: اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ-. وَلِيُجْزَى قَوْمٌ. وَلِيَجْزِيَ قَوْمًا، عَلَى مَعْنَى: وَلِيَجْزِيَ الْجَزَاءَ قَوْمًا.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[3]

﴿الْكِتَابَ﴾[4]: التَّوْرَاةُ.

﴿وَالْحُكْمَ﴾[5]: الْحِكْمَةُ وَالْفِقْهُ، أَوْ فَصْلُ الْخُصُومَاتِ بَيْنَ النَّاسِ، لِأَنَّ الْمُلْكَ كَانَ فِيهِمْ وَالنُّبُوَّةُ.

---

1 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

2 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

3 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

4 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

5 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

﴿مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾[1]: مِمَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ وَأَطَابَ مِنَ الْأَرْزَاقِ.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[2] حَيْثُ لَمْ نُؤْتَ غَيْرَهُمْ مِثْلَ مَا آتَيْنَاهُمْ.

﴿بَيِّنَاتٍ﴾[3]: آيَاتٌ وَمُعْجِزَاتٌ ﴿مِنَ الأَمْرِ﴾[4] مِنْ أَمْرِ الدِّينِ، فَمَا وَقَعَ بَيْنَهُمُ الْخِلَافُ فِي الدِّينِ ﴿إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ﴾[5] مَا هُوَ مُوجِبٌ لِزَوَالِ الْخِلَافِ وَهُوَ الْعِلْمُ. وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا لِبَغْيٍ حَدَثَ بَيْنَهُمْ، أَوْ لِعَدَاوَةٍ وَحَسَدٍ.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾[6]

﴿عَلَى شَرِيعَةٍ﴾[7] عَلَى طَرِيقَةٍ وَمِنْهَاجٍ ﴿مِنَ الأَمْرِ﴾[8] مِنْ أَمْرِ الدِّينِ، فَاتَّبِعْ شَرِيعَتَكَ الثَّابِتَةَ بِالدَّلَائِلِ وَالْحُجَجِ، وَلَا تَتَّبِعْ مَا لَا حُجَّةَ عَلَيْهِ مِنْ أَهْوَاءِ الْجُهَّالِ، وَدِينِهِمُ الْمَبْنِيُّ عَلَى هَوًى وَبِدْعَةٍ، وَهُمْ رُؤَسَاءُ قُرَيْشٍ حِينَ قَالُوا: ارْجِعْ إِلَى دِينِ آبَائِكَ وَلَا تُوَالِهِمْ، إِنَّمَا يُوَالِي الظَّالِمِينَ مَنْ هُوَ ظَالِمٌ مِثْلُهُمْ، وَأَمَّا الْمُتَّقُونَ، فَوَلِيُّهُمُ اللَّهُ وَهُمْ مُوَالُوهُ. وَمَا أَبْيَنَ الْفَصْلَ بَيْنَ الْوِلَايَتَيْنِ.

﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[9]

---

1 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
2 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
3 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
4 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
5 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
6 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
7 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
8 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
9 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

﴿هَذَا﴾[1] الْقُرْآنُ ﴿بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾[2] جُعِلَ مَا فيهِ مِنْ مَعَالِمِ الدِّينِ وَالشَّرَائِعِ بِمَنْزِلَةِ الْبَصَائِرِ في الْقُلُوبِ، كَمَا جُعِلَ رُوحًا وَحَيَاةً وَهُوَ هُدًى مِنَ الضَّلَالَةِ، وَرَحْمَةٌ مِنَ الْعَذَابِ لِمَنْ آمَنَ وَأَيْقَنَ.

وَقُرِئَ: (هَذِهِ بَصَائِرُ)، أَيْ: هَذِهِ الْآيَاتُ.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[3]

﴿أَمْ﴾[4] مُنْقَطِعَةٌ. وَمَعْنَى الْهَمْزَةِ فيها إِنْكَارُ الْحُسْبَانِ.

وَالِاجْتِرَاحُ: الِاكْتِسَابُ. وَمِنْهُ الْجَوَارِحُ وَفُلَانٌ جَارِحَةُ أَهْلِهِ، أَيْ: كَاسِبُهُمْ.

﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ﴾[5]، أَيْ نَصِيرَهُمْ. وَهُوَ مِنْ جَعْلِ الْمُتَعَدِّي إِلَى مَفْعُولَيْنِ فَأَوَّلَهُمَا الضَّمِيرُ، وَالثَّانِي: الْكَافُ، وَالْجُمْلَةُ الَّتِي هِيَ ﴿سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾[6] بَدَلٌ مِنَ الْكَافِ، لِأَنَّ الْجُمْلَةَ تَقَعُ مَفْعُولًا ثَانِيًا، فَكَانَتْ في حُكْمِ الْمُفْرَدِ.

أَلَا تَرَاكَ لَوْ قُلْتَ: أَنْ نَجْعَلَهُمْ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ، كَانَ سَدِيدًا، كَمَا تَقُولُ: ظَنَنْتُ زَيْدًا أَبُوهُ مُنْطَلِقٌ. وَمَنْ قَرَأَ: (سَوَاءً) بِالنَّصْبِ: أَجْرَى سَوَاءً مَجْرَى مُسْتَوِيًا، وَارْتَفَعَ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ عَلَى الْفَاعِلِيَّةِ، وَكَانَ مُفْرَدًا غَيْرَ جُمْلَةٍ.

وَمَنْ قَرَأَ: (وَمَمَاتَهُمْ) بِالنَّصْبِ، جَعَلَ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتَهُمْ: ظَرْفِينِ، كَمَقْدَمِ الْحَاجِّ وَخَفُوقِ النَّجْمِ. أَيْ سَوَاءٌ: سَوَاءٌ في مَحْيَاهُمْ وَفِي مَمَاتِهِمْ.

وَالْمَعْنَى: إِنْكَارٌ أَنْ يَسْتَوِيَ الْمُسِيئُونَ وَالْمُحْسِنُونَ مَحْيَا، وَأَنْ يَسْتَوُوا مَمَاتًا، لِافْتِرَاقِ أَحْوَالِهِمْ أَحْيَاءً. حَيْثُ عَاشَ هَؤُلَاءِ عَلَى الْقِيَامِ بِالطَّاعَاتِ، وَأُولَئِكَ عَلَى رُكُوبِ الْمَعَاصِي.

---

1 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

2 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

3 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

4 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

5 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

6 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

وَمَمَاتًا، حَيْثُ مَاتَ هَؤُلَاءِ عَلَى الْبُشْرَى بِالرَّحْمَةِ وَالْوُصُولِ إِلَى ثَوَابِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ، وَأُولَئِكَ عَلَى الْيَأْسِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَالْوُصُولِ إِلَى هَوْلِ مَا أَعَدَّ لَهُمْ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ إِنْكَارُ أَنْ يَسْتَوُوا فِي الْمَمَاتِ كَمَا يَسْتَوُوا فِي الْحَيَاةِ، لِأَنَّ الْمُسِيئِينَ وَالْمُحْسِنِينَ مُسْتَوٍ مَحْيَاهُمْ فِي الرِّزْقِ وَالصِّحَّةِ، وَإِنَّمَا يَفْتَرِقُونَ فِي الْمَمَاتِ.

وَقِيلَ: سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ: كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ عَلَى مَعْنَى: أَنَّ مَحْيَا الْمُسِيئِينَ وَمَمَاتَهُمْ سَوَاءٌ، وَكَذَلِكَ مَحْيَا الْمُحْسِنِينَ وَمَمَاتُهُمْ: كَلٌّ يَمُوتُ عَلَى حَسَبِ مَا عَاشَ عَلَيْهِ.

وَعَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي ذَاتَ لَيْلَةٍ عِنْدَ الْمَقَامِ، فَبَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ، فَجَعَلَ يَبْكِي وَيُرَدِّدُ إِلَى الصَّبَاحِ: سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ.

وَعَنِ الْفُضَيْلِ: أَنَّهُ بَلَغَهَا فَجَعَلَ يُرَدِّدُهَا وَيَبْكِي وَيَقُولُ: يَا فُضَيْلُ، لَيْتَ شِعْرِي مِنْ أَيِّ الْفَرِيقَيْنِ أَنْتَ.

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾[1]

﴿وَلِتُجْزَى﴾[2] مَعْطُوفٌ عَلَى بِالْحَقِّ، لِأَنَّ فِيهِ مَعْنَى التَّعْلِيلِ، أَوْ عَلَى مُعَلَّلٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، لِيَدُلَّ بِهِ عَلَى قُدْرَتِهِ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ.

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنَ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾[3]

أَيْ: هُوَ مِطْوَاعٌ لِهَوَى النَّفْسِ يَتَّبِعُ مَا تَدْعُوهُ إِلَيْهِ، فَكَأَنَّهُ يَعْبُدُهُ كَمَا يَعْبُدُ الرَّجُلُ إِلَهَهُ. وَقُرِئَ: (آلَهَهُ هَوَاهُ)، لِأَنَّهُ كَانَ يَسْتَحْسِنُ الْحَجَرَ فيعْبُدُهُ، فَإِذَا رَأَى مَا هُوَ أَحْسَنُ رَفَضَهُ إِلَيْهِ، فَكَأَنَّهُ اتَّخَذَ هَوَاهُ آلِهَةً شَتَّى: يَعْبُدُ كُلَّ وَقْتٍ وَاحِدًا مِنْهَا.

---

1 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

2 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

3 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾[1] وَتَرَكَهُ عَنِ الْهِدَايَةِ وَاللُّطْفِ وَخَذَلَهُ عَلَى عِلْمٍ، عَالِمًا بِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ مِمَّنْ لَا لُطْفَ لَهُ، أَوْ مَعَ عِلْمِهِ بِوُجُوهِ الْهِدَايَةِ وَإِحَاطَتِهِ بِأَنْوَاعِ الْأَلْطَافِ الْمُحَصَّلَةِ وَالْمُقَرَّبَةِ.

﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ﴾[2] إِضْلَالِ "اللَّهِ"، وَقُرِئَ: (غِشَاوَةً) بِالْحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ. و(غِشْوَةً)، بِالْكَسْرِ وَالْفَتْحِ. وَقُرِئَ: (تَتَذَكَّرُونَ).

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[3]

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾[4] نَمُوتُ نَحْنُ وَيَحْيَا وَأَوْلَادُنَا، أَوْ يَمُوتُ بَعْضٌ وَيَحْيَا بَعْضٌ، أَوْ نَكُونُ مَوَاتًا نُطَفًا فِي الْأَصْلَابِ، وَنَحْيَا بَعْدَ ذَلِكَ، أَوْ يُصِيبُنَا الْأَمْرَانِ: الْمَوْتُ وَالْحَيَاةُ، يُرِيدُونَ: الْحَيَاةُ فِي الدُّنْيَا وَالْمَوْتُ بَعْدَهَا، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ حَيَاةٌ.

وَقُرِئَ: (نَحْيَا) بِضَمِّ النُّونِ.

وَقُرِئَ: (إِلَّا دَهْرٌ يَمُرُّ) مَا يَقُولُونَ ذَلِكَ عَنْ عِلْمٍ، وَلَكِنْ عَنْ ظَنٍّ وَتَخْمِينٍ: كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ مُرُورَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي هُوَ الْمُؤَثِّرُ فِي هَلَاكِ الْأَنْفُسِ، وَيُنْكِرُونَ مَلَكَ الْمَوْتِ وَقَبْضَهُ الْأَرْوَاحَ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَكَانُوا يُضِيفُونَ كُلَّ حَادِثَةٍ تَحْدُثُ إِلَى الدَّهْرِ وَالزَّمَانِ، وَتَرَى أَشْعَارَهُمْ نَاطِقَةً بِشَكْوَى الزَّمَانِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: "لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ"، أَيْ: فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْآتِي بِالْحَوَادِثِ لَا الدَّهْرُ.

---

[1] سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

[2] سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

[3] سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

[4] سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[1]

وَقُرِئَ: (حُجَّتَهُمْ) بِالنَّصْبِ وَالرَّفْعِ، عَلَى تَقْدِيمِ خَبَرِ كَانَ وَتَأْخِيرِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ سُمِّيَ قَوْلُهُمْ حُجَّةً وَلَيْسَ بِحُجَّةٍ؟

قُلْتُ: لِأَنَّهُمْ أَدْلَوْا بِهِ كَمَا يُدْلِي الْمُحْتَجُّ بِحُجَّتِهِ وَسَاقُوهُ مَسَاقَهَا، فَسُمِّيَتْ حُجَّةً عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ، أَوْ لِأَنَّهُ فِي حُسْبَانِهِمْ وَتَقْدِيرِهِمْ حُجَّةٌ، أَوْ لِأَنَّهُ فِي أُسْلُوبِ قَوْلِهِ:

تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيـــــــــــــــــعُ

كَأَنَّهُ قِيلَ: مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا مَا لَيْسَ بِحُجَّةٍ. وَالْمُرَادُ: نَفى أَنْ تَكُونَ لَهُمْ حُجَّةٌ الْبَتَّةَ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ وَقَعَ قَوْلُهُ: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾[2] جَوَابًا لِقَوْلِهِمْ: ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[3]؟

قُلْتُ: لَمَّا أَنْكَرُوا الْبَعْثَ وَكَذَّبُوا الرُّسُلَ، وَحَسِبُوا أَنَّ مَا قَالُوهُ قَوْلٌ مُبَكِّتٌ، أَلْزَمُوا مَا هُمْ مُقِرُّونَ بِهِ: مِنْ أَنَّ اللَّهَ -عَزَّ وَجَلَّ- هُوَ الَّذِي يُحْيِيهِمْ ثُمَّ يُمِيتُهُمْ.

وَضَمَّ إِلَى إِلْزَامِ ذَلِكَ إِلْزَامَ مَا هُوَ وَاجِبُ الْإِقْرَارِ بِهِ إِنْ أَنْصَفُوا وَأَصْغَوْا إِلَى دَاعِي الْحَقِّ، وَهُوَ جَمْعُهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى ذَلِكَ كَانَ قَادِرًا عَلَى الْإِتْيَانِ بِآبَائِهِمْ، وَكَانَ أَهْوَنَ شَيْءٍ عَلَيْهِمْ.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

---

1 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

2 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

3 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾[1]

عَامِلُ النَّصْبِ في (يَوْمِ تَقُومُ) يَخْسَرُ، وَ﴿يَوْمَئِذٍ﴾[2] بَدَلٌ مِنْ (يَوْم تَقُومُ) ﴿جَاثِيَةً﴾[3]: بَارِكَةً مُسْتَوْفِزَةً عَلَى الرُّكَبِ.

وَقُرِئَ: (جَاذِيَةً) وَالْجَذْوُ: أَشَدُّ اسْتِيفَازًا مِنَ الْجَثْوِ، لِأَنَّ الْجَاذِيَ هُوَ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِهِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: جَاثِيَةٌ مُجْتَمِعَةٌ.

وَعَنْ قَتَادَةَ جَمَاعَاتٌ مِنَ الْجَثْوَةِ، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ، وَجَمْعُهَا: جُثًى.

وَفِي الْحَدِيثِ: "مَنْ جَثْي جَهَنَّمَ".

وَقُرِئَ: (كُلُّ أُمَّةٍ) عَلَى الِابْتِدَاءِ، وَكُلُّ أُمَّةٍ: عَلَى الْإِبْدَالِ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ.

﴿إِلَى كِتَابِهَا﴾[4]: إِلَى صَحَائِفِ أَعْمَالِهَا، فَاكْتَفَى بِاسْمِ الْجِنْسِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾[5].

﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾[6] مَحْمُولٌ عَلَى الْقَوْلِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ أُضِيفَ الْكِتَابُ إِلَيْهِمْ وَإِلَى اللَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ–؟

قُلْتُ: الْإِضَافَةُ تَكُونُ لِلْمُلَابَسَةِ، وَقَدْ لَابَسَهُمْ وَلَابَسَهُ، أَمَّا مُلَابَسَتُهُ أَيْ إِيَّاهُمْ، فَلِأَنَّ أَعْمَالَهُمْ مُثْبَتَةٌ فِيهِ.

وَأَمَّا مُلَابَسَتُهُ، أَيْ إِيَّاهُ، فَلِأَنَّهُ مَالِكُهُ، وَالْآمِرُ مَلَائِكَتُهُ أَنْ يَكْتُبُوا فِيهِ أَعْمَالَ عِبَادِهِ.

﴿يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ﴾[7]: يَشْهَدُ عَلَيْكُمْ بِمَا عَمِلْتُمْ، ﴿بِالْحَقِّ﴾[8]: مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ.

---

1 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
2 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
3 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
4 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
5 سُورَةُ الْكَهْفِ، الآية 49.
6 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
7 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .
8 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ﴾[1] الْمَلَائِكَةُ ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2]، أَيْ: نَسْتَكْتِبُهُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾[3] فِي جَنَّتِهِ.

وَجَوَابُ: "أَمَّا" مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا، فيقَالُ لَهُمْ: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾[4].

وَالْمَعْنَى: أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلِي فَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ، فَحَذَفَ الْمَعْطُوفَ عَلَيْهِ.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[5]

وَقُرِئَ: (وَالسَّاعَةَ) بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى الْوَعْدِ، وَبِالرَّفْعِ عَطْفًا عَلَى مَحَلِّ إِنَّ وَاسْمِهَا ﴿مَا السَّاعَةُ﴾[6]، أَيُّ شَيْءٍ السَّاعَةُ؟

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلا ظَنًّا﴾[7]؟

قُلْتُ: أَصْلُهُ نَظُنُّ ظَنًّا.

وَمَعْنَاهُ: إِثْبَاتُ الظَّنِّ فَحَسْبُ، فَأُدْخِلَ حَرْفَا النَّفى وَالِاسْتِثْنَاءِ، لِيُفَادَ إِثْبَاتُ الظَّنِّ مَعَ نَفى مَا سِوَاهُ وَزِيدَ نَفى مَا سِوَى الظَّنِّ تَوْكِيدًا بِقَوْلِهِ: (وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ..... سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ)، أَيْ قَبَائِحَ أَعْمَالِهِمْ، أَوْ عُقُوبَاتِ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَاتِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٍ مِثْلُهَا﴾[8].

---

1 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

2 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

3 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

4 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

5 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

6 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

7 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

8 سُورَةُ الشُّورَى، الآية 45.

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[1]

﴿نَنْسَاكُمْ﴾[2]: نَتْرُكُكُمْ فِي الْعَذَابِ كَمَا تَرَكْتُمْ عِدَةَ ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾[3]، وَهِيَ الطَّاعَةُ، أَوْ نَجْعَلُكُمْ بِمَنْزِلَةِ الشَّيْءِ الْمَنْسِيِّ غَيْرِ الْمُبَالَى بِهِ، كَمَا لَمْ تُبَالُوا أَنْتُمْ بِلِقَاءِ يَوْمِكُمْ وَلَمْ تُخْطِرُوهُ بِبَالٍ، كَالشَّيْءِ الَّذِي يُطْرَحُ نَسْيًا مَنْسِيًّا.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى إِضَافَةِ اللِّقَاءِ إِلَى الْيَوْمِ؟

قُلْتُ: كَمَعْنَى إِضَافَةِ الْمُكْرِ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾[4]، أَيْ نَسِيتُمْ لِقَاءَ الْيَوْمِ فِي يَوْمِكُمْ هَذَا وَلِقَاءَ جَزَائِهِ.

وَقُرِئَ: (لَا يَخْرُجُونَ) بِفَتْحِ الْيَاءِ.

﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[5]: وَلَا يَطْلُبُ مِنْهُمْ أَنْ يَعْتِبُوا رَبَّهُمْ أَيْ يَرْضُوهُ.

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[6]

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾[7] فَاحْمَدُوا اللَّهَ الَّذِي هُوَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْعَالَمِينَ، فَإِنَّ مِثْلَ هَذِهِ الرُّبُوبِيَّةِ الْعَامَّةِ يُوجِبُ الْحَمْدَ وَالثَّنَاءَ عَلَى كُلِّ مَرْبُوبٍ.

---

1 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

2 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

3 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

4 سُورَةُ سَبَإٍ، الآية 33.

5 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

6 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

7 سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

وَكَبَّرُوهُ، فَقَدْ ظَهَرَتْ آثَارُ كِبْرِيَائِهِ وَعَظَمَتِهِ ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1]، وَحُقُّ مِثْلِهِ أَنْ يُكَبَّرَ وَيُعَظَّمَ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ حم الْجَاثِيَةَ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ وَسَكَنَ رَوْعَتَهُ يَوْمَ الْحِسَابِ".

[1] سُورَةُ الْجَاثِيَةِ، الآية .

محتويات الكتاب

ـحنويات الكتاب

كتاب تفسير الكشّاف

الجزء الثّالث عشر **19 – 52**

سُورَةُ الْمُؤْمِنِ		
﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾		
﴿حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾		
﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾		
﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾		
﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾		
﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾		

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾		
﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلّا مَنْ يُنِيبُ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾		
﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾		
﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾		
﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾		
﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾		
﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾		
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا		

نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلّا فِي ضَلالٍ﴾		
﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾		
﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾		
﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مِنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾		
﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾		
﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾		
﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنَ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهِ فَمَا لَهُ مِنَ هَادٍ﴾		
﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهِ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾		
﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ		

السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلّا فِي تَبَابٍ﴾		
﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾		
﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مَنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾		
﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾		
﴿لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهِ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾		
﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾		
﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾		
﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾		
﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلّا فِي ضَلالٍ﴾		
﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ		

﴿وَلَهُمُ سُوءُ الدَّارِ﴾		
﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ هُدًى وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ﴾		
﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾		
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾		

محتويات الكتاب **64 – 61**

النّاشر: شركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع
العنوان: إقامة الزّيتونة – III/2 – المنار 2 – تونس – الجمهوريّة التّونسيّة
الهاتف: 71886914 216+
الفاكس: 71886872 216+
العنوان الالكتروني: JomaaAssaad@yahoo.fr
معرّف النّاشر: 02-9938
عدد الطّبعة: الأولى
ت د م ك: 978-9938-02-070-6

© جميع الحقوق محفوظة لشركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع